تصوير ابو عبدالرحمن الكردي

تأملات في الواقع الإسلامي

تأليف
عمر عبيد حسنة

تأملات فى الواقع الاسلام
٣٢٨٠٠
100210

المكتب الإسلامي

تأملات في الواقع الإسلامي

تأليف

عمر عبيد حسنة

المكتب الإسلامي

لتحميل أنواع الكتب راجع: (**مُنْتَدى إِقْرَأ الثَقافِي**)

براي دانلود كتابهاى مختلف مراجعه: (**منتدى اقرأ الثقافي**)

بۆدابەزاندنی جۆرەها کتێب:سەردانی: (**مُنْتَدى إِقْرَأ الثَقافِي**)

www. iqra.ahlamontada.com

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - برقياً : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠٢ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقـَـدّمـَـة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره على الدين كله، وأنزل القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، والصلاة والسلام على الرسول الخاتم الذي انتهت إليه أصول الرسالات السماوية جميعاً، من لدن آدم عليه السلام، وقصّ الله عليه رحلة النبوة التاريخية، ليمتلك البصيرة ويغنىٰ بالعبرة، وتكفل لرسالته بالحفظ من التحريف والتبديل لأن صحة النص الديني من لوازم التكليف ومقتضيات الرسالة الخاتمة، فكانت سلامة الخطاب القرآني: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (الحجر: ٩)، وكانت عصمة عموم الأمة التي آمنت به: «لا تجتمع أمتي على خطأ» ـ وفي رواية: «على ضلالة»، هما خميرة النهوض والإمكان الحضاري في كل زمان ومكان. وبعد:

فلا شك أن الواقع الإسلامي اليوم، لا يزال مؤرقًا على الرغم من بعض البشائر والبصائر التي تحمينا من الانكسار، وتبعث فينا الأمل، وتجدد اليقين بقدرة الأمة على الصمود والنهوض والتواصل الحضاري إذ من غير المقبول شرعاً وعقلاً وواقعاً أن الأمة التي نيطت بها الرسالة الخاتمة، يمكن أن تُلغىٰ من الحياة الإنسانية أو يُسلط عليها أعداؤها تسليط استئصال، وإنما هي توعكات وإصابات وأمراض وعقوبات توقع عليها بسبب تقصيرها وتفريطها، فتشعرها بالتحدي والاستفزاز، ليتجدد شبابها، وتقضي على العناصر الرخوة والشائخة في شخصيتها فتستأنف النهوض من جديد.. والتاريخ هو المعلم والشاهد.

فالأمة المسلمة، استعصت على الذوبان، ولم تخضع لسنّة الموت الحضاري ـ إن صح التعبير ـ وإن خضعت للدورات الحضارية من بعض

الوجوه.. لكن، في أشد حالات سقوطها، لم تفتقد خميرة النهوض والإمكان الحضاري.. ولعل من أهم عواصمها من ذلك، كان دائماً سلامة الخطاب الديني من التحريف الذي يمثل ميثاق الخلاص، وعصمة عموم الأمة التي تشكل الحماية والوقاية من الانحراف.

ولعل القلق الذي يبعثه الواقع الإسلامي في النفس هو من البشائر ومؤشرات الصحة، ذلك أننا لم نفتقد الإحساس بإصاباتنا، ونستسلم لهذا الواقع.. ومن هنا، نسارع إلى القول:

إن أيّ محاولة لتغييب الإحساس بهذا الواقع، وحمل الأمة على الاطمئنان الخادع، وإيهامها بالفجر الكاذب، وتضليلها بفلسفة الهزائم والانكسارات، يعتبر مساهمة في دفنها.

إن القلق من الواقع، وعلى الواقع، هو المهماز الحضاري، أو المنبِّه والمحرض الحضاري الذي لا بد منه باستمرار لاستعادة القابلية، وشحذ الفاعلية، ومعاودة النهوض.. إنه القلق الحضاري، والهاجس السوي الذي يدل على أن الموت لمّا يصل بعد إلى روح الأمة، وعالم أفكارها، وقيمها، وأن الإصابة اقتصرت على أشيائها وأعضائها.

وعلى الرغم من أن هذا الإحساس السوي، أو القلق السوي الذي أشرنا إليه، هو مؤشر الصحة والسلامة، إلاّ أن هذا الإحساس إذا لم يتحول إلى إدراك يبحث العلّة، ويستقصي السبب، ويكتشف موطن الخلل والتقصير، ويقدم العلاج بجرأة وشجاعة وحكمة، أي إذا لم يتجاوز مرحلة الإحساس إلى الإدراك والتفسير الصحيح للأمور، يُصبح أماني وآهات، وتلاوماً، ومتنفساً، وعلاجاً بالشكوى يكرِّس الواقع ولا يغيره، ويوظف لاستنزاف طاقات الأمة وزيادة استنقاعها وعجزها، بعيداً عن الموقع المجدي والفاعل.

ويمكن أن نقول: بأن أول طريق النهوض هو هذا الإحساس، الذي يعني اكتشاف التناقض بين الواقع وما صار إليه، وبين القيم أو العقيدة وما

تقتضيه. . وإن هذا القلق لا يجوز أن يتوقف حتى يتم تغيير الواقع وفق المراد الإلهي، وعندئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله.

وليست رحلة الإيمان في حقيقتها، إلاّ ذلك الحس والإدراك المناقض لواقع الكفر والوثنية. . فالمحرك للإنجاز الإيماني هو التحدي الوثني الشركي، وإطفاء هذا الحس، يعني انطفاء شعلة الإيمان في النفوس، والركود والقعود عن التغيير.

وقد تكون المشكلة التي تكرِّس واقع المسلمين السيء اليوم، المحاولات المستمرة لإلغاء هذا الهاجس، والتطبيع بين الوثنية والإيمان، وتغييب التناقض والقلق، تحت مقولات يُزعم أنها من الدين! وهنا مكمن الخطورة لأنها إن صدقت، تكسب الرضى والاطمئنان الخادع. . والدين من ذلك براء. . وواقع الصحابة، خير القرون، منها براء. . وفترات الإنجاز الحضاري في تاريخ الأمة الطويل، منها براء أيضاً. . ولسوف تساهم بتكريس تخلف الأمة، وعجزها وسقوطها ما لم تُلغ هذه المقولات من أذهان الجيل، ويصوَّب المسار العقلي للأمة.

فالاعتقاد بأنه ليس بالإمكان أفضل مما كان، يعني في حقيقته الموت الحضاري، والقضاء على أي أمل بالنهوض والإفادة من العثرات، ومحاصرة وتحنيط لأفكار الإصلاح وحركات التغيير، واستسلام للواقع، وإلغاء لحرية الإنسان وإرادته، وإلغاء لكل محاولة مراجعة ونقد وتصويب. . وبهذا الاعتقاد، يصبح الركود، والتوقف، والجمود، والتقليد الجماعي، ضربة لازب لا يمكن الفكاك منها.

وما لم نعتقد أنه بالإمكان دائماً أفضل مما كان، بحيث نترجم هذا الاعتقاد إلى ممارسة تحملنا إلى عمليات المراجعة والتقويم، واكتشاف مواطن القصور وأسباب التقصير بدقة وجرأة، فسوف نبقى نراوح مكاننا، وإن توهمنا أننا نقطع المسافات. . والحقيقة، أننا نقطّع الأحذية في المكان نفسه، ونخسر الطاقات في غير الموقع الفاعل.

وليس أقل خطراً من مقولة: (ليس بالإمكان أفضل مما كان)، ما نروِّج له أيضاً في حياتنا الفكرية من أن علينا أن نعمل وليس علينا إدراك النتائج، ذلك لأن النتائج بيد الله.. وكأنَّ هناك تناقضاً بين حرصنا على إدراك النتائج (إحرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز)، وبين أن تكون النتائج من مراد الله وتكليفه، وأن ما بثه من سنن وقوانين وكلف به خلقه، إن هي إلاّ المقدمات المطلوبة للوصول إلى النتائج والحصول عليها، وإن أي تخلف للنتائج، يعني وجود خلل في المقدمات لا بد من تداركه واستدراكه في مستقبل الحياة.

ولو سلمنا جدلاً بأن علينا أن نعمل أي عمل دون ربط ذلك بالنتائج، فنكون بذلك قضينا على دوافع العمل في النفس، وألغينا السنن التي شرعها الله لبلوغ الأهداف، وسلبنا الذات الإلهية العدل الذي يعتبر من أخص خصائصها.. وهل العدل، إلاّ أن يكون الجزاء من جنس العمل، وأن تترتب النتيجة على العمل الصحيح؟ وإلاّ فما قيمة التكليف والثواب والعقاب على العمل؟

وعلى الرغم من أن العمل بلا نتائج، إبحار في الضياع، وسير في الظلمات، وإسقاط للعقل والعدل، والمنطق، فإن أخطر المخاطر المترتبة عليه:

إلغاء أي تقويم، أو مراجعة، أو اعتبار، أو قياس، أو برمجة.. وهذا يعني تسوية الخطأ بالصواب، والسكوت عن الخطأ، والتخويف من تحديده، ومراجعته، ومعالجته.. بل قد يشتط بعضهم فيرى أن أية مراجعة هي مروق من الدين، وخروج من قدر الله المكتوب، وفي هذا إلغاء للنبوات والرسالات، وإحباط لحركات الإصلاح والتغيير، وإهدار لقيمة العقل في التمييز بين الخير والشر، وإلغاء لإرادة الإنسان التي هي في الحقيقة، مناط التكليف.. ولو أنعمنا النظر بدقةٍ، لعلمنا أننا بذلك وقعنا في حفر غير المؤمنين الذين قالوا مسوغين عدم إيمانهم: ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾ (الأنعام: ١٤٨).

أما مُغالبة القدر بقدر، والفرار من القدر إلى القدر، وفهم أبعاد التكليف الذي نيط بالإرادة الحرّة، فهي أمور مسكوت عنها، لأنها تؤثر على إيقاع النوم العام، وتستفز العقل، وتطلق الملكات، وتحسن توظيف الإمكانات.

ولعل من أخطر النتائج لتلك التصورات البئيسة، والعقول الكليلة: إلغاء قانون السببية، والقعود عن اكتشاف السنن والقوانين المطردة التي تحكم الكون، والقعود عن التفتيش عن علل الأشياء، والقوانين الاجتماعية، وسنن التداول الحضاري التي تحكم سقوط ونهوض الأمم، والتي كلفنا الله استقراءها من السير في الأرض، والتبصر بالعواقب: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل. . .﴾ (الروم: ٤٢) وعدم الاقتصار في ذلك على التاريخ الخاص، تاريخ الجماعة المؤمنة، وإنما الامتداد صوب التاريخ العام لفهم آليات التغيير ومقومات السقوط والصعود.

لقد توقفنا عن السير في الأرض، وتوقفنا عن رؤية السنن في الأنفس والآفاق، فغابت عنا علل الأشياء وأسبابها، وعجزنا عن إصابة الهدف والوصول إلى الصواب: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ (فصلت: ٥٣). . فالقيم من السماء، والبراهين ودليل الصدق في الأرض ﴿حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ لكن المشكلة اليوم، بعدم القدرة على التبيّن. . فإذا كان لا يجوز لنا أن ننظر في العواقب، فكيف يمكن لنا أن نتبين؟!

إن قعود المسلمين في عصور التخلف والانحطاط، عن البحث في علل الأشياء وأسبابها، والتبصر بعواقبها، كان السبب الحقيقي في التوقف الحضاري، أو الغياب الحضاري. . ولعل هذا التصور، غريب عن العقل المسلم، وإنما تسرب إليه من الخارج الإسلامي، من علل الأمم السابقة الساقطة حضارياً. . ويمكن أن نقول:

إن أوربا لم تستطع النهوض والشهود الحضاري إلاّ بعد أن أقْصت رجال

الكنيسة، عن مسيرة الحضارة لأنهم كانوا يحرمون النظر في علل الأشياء وأسبابها، وإدراك سنن التغيير التي أوجدها الله في الكون.. وكان لا بد لنهوضهم، من الإفادة من رصيد العقل الإسلامي، وما منح من الحرية.. وكان لا بد لتخلفنا، من أن نسقط في الغزو العقلي والديني لمفهومات رجال الكنيسة، ونروِّج لمقولات وندافع عنها باسم الدِّين، فينقلب الدين على يد بعض دعاته من دافع إلى النهوض الحضاري، إلى مانع ومعوق لمسيرة الحياة، ويصبح سبباً في الغياب والركود الحضاري، ويكرس التخلف باسم التدين.

ومن الحقائق الحضارية: أن نهوض أي مجتمع، مرهون إلى حدٍ بعيد بظروف وشروط ميلاده.. ويمكن لنا أن ندرك في ضوء ذلك مقولة الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه: لا يصلح آخر هذه الأمة، إلاّ بما صلح به أولها.

فأية محاولة نهوض وإصلاح للمسلمين اليوم، مرهونة إلى حدٍ بعيد باستلهام فترة القدوة، والارتكاز إليها، لأنها تمثل فترة ميلاد مجتمع خير القرون، ولأنها الفترة المعصومة، والتجربة العملية المأمونة لتنزيل الوحي على واقع الناس.. هذا من جانب.

ومن جانب آخر لا بد من الارتكاز على مواثيق الله التي بشر بها الرسول ﷺ من العصمة الممتدة لعموم الأمة التي تحمل الرسالة الخاتمة: (لا تجتمع أمتي على خطأ أو ضلالة).. لكن، يبقى المطروح اليوم: كيف يتحقق الوصول إلى عصمة عموم الأمة؟ ولا نتردد في الجواب: إن ذلك إنما يتحقق بتأمين الحرية، وإتاحة فرص التعبير والتفكير، ومحاربة الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي، لأنهما يقضيان على عصمة عموم الأمة، ويغلقان قنواتها.

ولعل إشاعة مناخ الاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي في الواقع الاسلامي، كان هو السبب الحقيقي والأهم في المعادلة الصعبة، والمأزق الحرج، والنفق المظلم الذي حال دون عملية النهوض والشهود الحضاري.

ولم يقتصر مناخ الاستبداد السياسي، والإرهاب الفكري، ومحاصرة فرص الحرية التي تغني المسيرة، وتسهم في بناء عصمة عموم الأمة، على

المؤسسات الخارجة عن الإسلام، بل لعل الإصابة نفسها لحقت بكثير من المؤسسات والمنظمات والجمعيات التي ترفع الشعارات الإسلامية، بل أصبحت ـ اليوم ـ المضامين تكاد تكون واحدة، وإن اختلفت العناوين.

فكثيراً ما نرى الأسوار الحزبية، والمصالح الشخصية تحول دون حرية النقد والمراجعة والتقويم، وتحمي الخطأ والضعف إلى درجة الافتتان بالنفس، والإبحار في التاريخ الخاص والواقع التي هي عليه، وإن ادعت غير ذلك، وخطبت وكتبت فيه.. لكن، تبقى الحقيقة: إقرأ تفرح، جرِّب تحزن.. والواقع الذي نحن عليه، دليل ذلك، وشاهد إدانته.. لقد غاب مفهوم الأخوة الشاملة الذي هو الأصل الموصل إلى عصمة عموم الأمة، عن تجمعاتنا الإسلامية، بسبب الروح الحزبية، وإن ادعينا الدعوة إلى الوحدة.

فعندنا اليوم، أعداد من الجماعات والتجمعات، التي أصبحت ـ بطبيعتها ـ أقرب إلى الطوائف، أكثر من الواقع السياسي الذي ندينه ونرفض بعثرته، وتمزقه، ونزعاته الإقليمية! حتى أصبحت الروح الحزبية تأبىٰ أية مراجعة أو تقويم، وتعيش حالة من التطفيف لا تحسد عليها.. فالكبائر تصبح صغائر، إذا جاءت من داخل الجماعة، والصغائر تصبح كبائر إذا مورست من خارج الجماعة أو التنظيم والله تعالىٰ يقول: ﴿ويل للمطففين﴾ (المطففين: ١).

ولا بد من الاعتراف: أن أدب النقد، والتقويم، والمراجعة والمناصحة، لم يأخذ بعده المطلوب من أدبيات العمل والواقع الإسلامي، وأن كسْبَنا في هذا، لا يكاد يُذكر، على ضرورته وأهميته لتسديد المسيرة، وإن كانت بعض البشائر بدأت في السنوات الأخيرة تظهر كمحاولات تتقدم حيناً، وتتعثر أحياناً.

وقضية النقد، والتقويم، والمراجعة، كأمرٍ لازم لكل عمل جلّ أو دقّ لتسديد المسيرة، والإفادة من التجربة، واكتشاف الخلل والتقصير، ومعرفة أسباب القصور، وتحقيق العبرة، والارتقاء بالعمل إلى الأفضل، وبيان دور الإنسان الفاعل في صناعة الحدث، ومسؤوليته عنه؛ منهج قرآني معلم.

ولا يتسع المجال لإيراد أمثلة ونماذج قرآنية مستقصية لجوانب الكسب البشري المتعددة في فترة النبوة وكيف أن النقد والتقويم والمراجعة لم يتوقف لحظة واحدة، حيث لا بد من العودة والاستقراء لذلك مستقبلاً.. وإنما هي نوافذ بسيطة للاهتداء بها، والتأصيل لها:

● ففي غزوة بدر مثلاً، حيث النصر الفرقاني الكبير، لم يخل الأمر من نظرة تقويمية، ابتداءً من الخروج إلى بدر وانتهاء بالنصر: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون. يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ (الأنفال: ٥-٦).

- وعندما تراءى لبعض المسلمين أن النصر كان بقوتهم، جاء النص: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمىٰ﴾ (الأنفال: ١٧) ﴿وما النصر إلاّ من عند الله﴾ (آل عمران: ١٢٦).

- وعندما اختلف البدريون على قسمة الغنائم، وهم من هم، اعتبر القرآن خلافهم وفساد ذات بينهم - الذي عبر عنه عبادة رضي الله عنه بقوله: اختلفنا حتىٰ كادت تسوء أخلاقنا - من المخاطر التي لا بد من التنبه لها.. وقال تعالىٰ: ﴿يسألونك عن الأنفال، قل: الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾ (الأنفال: ١).

- وعندما تصرف الرسول ﷺ في الأسرىٰ بالفداء، جاء التنبيه لقابلات الأيام: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرىٰ حتى يثخن في الأرض، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾ (الأنفال: ٦٧).. هذا في مجال النصر.

● وفي أحد، حيث النقد في مجال الهزيمة، كان قوله تعالى: ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ (آل عمران: ١٦٥) شعار المسؤولية عن الهزيمة الكبرىٰ في حياة المسلمين.. ووصل الأمر بالنقد والمراجعة إلى الكشف عما تكنه النفوس: ﴿منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة﴾ (آل عمران: ١٥٢)، وهم الصحابة المجاهدون.

● وفي غزوة حنين، يطالعنا قوله تعالى: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم

كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً..﴾ (التوبة: ٢٥).

● وفي تبوك، حيث قعد بعض الناس عن الجهاد، جاء قوله تعالىٰ: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ قليل. إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم﴾ (التوبة: ٣٨ ـ ٣٩).

● وفي مجال الدعوة: عندما فكر الرسول ﷺ أن يُفرد مجلساً لكبراء قريش، جاء قوله تعالىٰ: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء﴾ (الأنعام: ٥٢).. وقوله تعالى: ﴿عبس وتولىٰ أن جاءه الأعمىٰ﴾ (عبس: ١) عندما أعرض عن عبدالله ابن أم مكتوم... إلخ.

وهكذا نرىٰ أن التقويم القرآني والنبوي، كان مرافقاً لكل خطوة من خطوات جيل القدوة.. فالتقويم هو الضابط الدقيق لكل عملية نهوض وتقدم.

وأخشى ما نخشاه اليوم، أن يركب الموجة من لا يطيقون النقد، والمراجعة، والتقويم ممن يشهد تاريخهم بذلك، كما ركب موجة الديموقراطية سدنة الاستبداد السياسي ورفعوا شعاراتها ليجهضوها من الداخل.

والأمر الذي لا بد أن نعرض له في هذه المقدمة: أن الإحساس بالواقع، والحال الذي صار إليه، لم يتوقف لحظة واحدة في تاريخ الأمة الطويل.. ولعل الإحساس المستمر بتناقض الواقع مع المثال، يجيء ثمرة لعدم إمكانية اجتماع الأمة على ضلالة، وتواطئها على الخطأ. وإذا رجعنا إلى أدبيات زعماء الإصلاح، ودعاة التجديد، لوجدنا ذلك واضحاً.. بل لعل الكثير مما نراه وندعو إليه اليوم، لا يعتبر جديداً، بل قد يعتبر تكراراً لما أحس به من سبقونا من دعاة الإسلام وزعماء الدعوات الإصلاحية فيه.

لكن، المشكلة أو المصيبة دائماً، في عدم تقويم التجارب التي قامت عليها دعوات الإصلاح والتجديد، واكتشاف الإصابات التي لحقت بها، والمعوقات التي حالت دون بلوغ أهدافها، لنفيد منها، ونضيف أعماراً إلى عمرنا، وعقولاً إلى عقلنا.. فغياب النقد، والمراجعة، والتصويب، والتقويم، هو السبب الذي يحرمنا دائماً من الإفادة من تجاربنا، ويجعلنا نقع في الحفر نفسها.. وقد نجهد أنفسنا في تجارب ومحاولات، ثم نكتشف أنّا سُبقنا إليها، ولم نعتبر بها، وإنما كررنا أخطاءها نفسها.

والتاريخ، هو المعلم الحقيقي للشعوب؛ والرحلة إليه هي التي تحقق القصد، وتمنح العبرة، وتقيل العثرة..

والواقع، هو المختبر الحقيقي لدعاوى الإصلاح.

والنقد، والمراجعة، والتقويم أمور لا بد منها لتسديد المسيرة وتحقيق الصواب.

وتحديد مواطن الخلل، هو السبيل إلى النهوض والارتقاء، وكسب رصيد التجارب السابقة، والوقوف على قمتها، والإبصار للمكان البعيد، واستشراف للمستقبل المأمول.

وفي اعتقادنا أن أية عملية بعث وإحياء، لا بد أن تأخذ في اعتبارها: استقراء التاريخ، وقراءة الواقع، وتحديد موقع الأمة الآن من المسيرة الحضارية، والتاريخية لها، وأخذ العبرة التاريخية في الخطأ والصواب.

كما لا بد لها من:

- وضوح الأهداف المراد تحقيقها، واختبار واقعيتها، وما يعتبر من الثوابت والمتغيرات، (أي مجموعة الأفكار التي توضح العمل).

- جدولة الأهداف، بحسب الأولوية والإمكان.

- تحديد الوسائل الموصلة إلى تحقيق هذه الأهداف، من خلال الظروف

المحيطة، والإمكانات المتاحة في ضوء التعرف على السنن التي تحكمها.

- الإمكانات البشرية والمادية المطلوبة لعملية التنفيذ.

- إدخال عنصر الزمن، وتحديده، وتحويله إلى قيمة عملية في ضوء الفعل المطلوب.

- اصطحاب عنصر النقد، والمراجعة، والتقويم لكل مرحلة من مراحل العمل، والإنجاز، وبيان سبب الخلل والقصور، إذا حصل، وكيفية استدراكه، وتحديد مواطن الخطأ في التقدير.

ولا بد أن يسبق هذا كله، مرحلة التعرف الدقيق على عقيدة الأمة التي تصوغ معادلتها النفسية والاجتماعية، والتاريخ الحضاري والثقافي والسياسي، ونصيبه من العقيدة، والواقع المعاصر، وموقعه من التاريخ والعقيدة معاً.

إن هذه العناصر هي المعايير التي تمكننا من التقويم والمراجعة الضرورية لأي فعل، أو محاولة نهوض، وإلاّ بقينا نحرث في البحر أو نسبح بدون شواطىء، فنهلك أنفسنا، ونُبَتّ مقصدنا، والمنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.. ونستمر في الانتكاس كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً.

ولا ندّعي أننا بهذه التأملات للواقع الإسلامي، التي أملتها ظروف ومناسبات متباعدة، استقرأنا هذا الواقع من جوانبه المتعددة، والمختلفة، وتتبعنا التاريخ الذي أثمره، وإنما هي تأملات، وملحوظات، وإثارات، ونوافذ للإطلالة على هذا الواقع، علها تثير التوجه صوبه ودراسته، وتسهم بخطوة في طريق الدراسات التقويمية المطلوبة لانتشال هذا الواقع، والارتقاء به في ضوء الآيات البينات في الأنفس والآفاق، والسير في الأرض، والنظر في العواقب والنتائج، ومحاكمتها إلى المقدمات، في استشراف للماضي والمستقبل معاً.

وهي في النهاية: اجتهادات، إن فاتها الأجران، فنسأل الله أن لا نحرم من الأجر الواحد الذي هو جزاء المخطىء على جهده، وبذل وسعه.. ويبقى

الصـواب صوابـاً، والخطأ خـطأ، والحق أحق أن يُتبع، والـرجال يـوزنون بـالحق. . ولا بد لنـا أن نعرف الحق لنعـرف أهله. . وهـذا بـدء التقـويم الصحيح، والمراجعة المطلوبة، والله من وراء القصد.

قطر ـ الدوحة

في ٢٧ رمضان ١٤١٠هـ

الموافق لـ ٢٢ نيسان (أبريل) ١٩٩٠

عُمَر عبَيْد حَسَنَة

الدِّينُ وَالتَدَيُّن

لعل خطورة توقف العلوم الاجتماعية والإنسانية، في أنه حرم المفكر والمجتهد من التعرف إلى ساحة عمله، وأضاع عليه خارطة الطريق، التي يحاول أن يسلكها، لتنزيل المراد الإلهي على واقع الناس، وتحقيق تقويم سلوكهم بدين الله، وامتلاك شروط التغيير السليمة؛ ولا مناص من الاعتراف اليوم بأن آليات العلوم الاجتماعية تطورت تطوراً كبيراً على أيدي غير المسلمين، وبلغت شأواً واسعاً، في معرفة الإنسان، الأمر الذي لا مندوحة منه لبسط الإسلام على حياة الناس، وإلا كان التعامل مع مجهول. لقد توقف العقل المسلم عن السير في الأرض، والتعرف على تاريخ الأمم في النهوض والسقوط، واكتشاف آيات الله في الأنفس والآفاق، وآليات التغيير الاجتماعي، التي وردت في القرآن بشكل لافت للنظر، وهي أشبه ما تكون بالمعادلات الرياضية بعد أن أصبح القرآن مجرد تراتيل للتبرك.. فظن كثير من المجتهدين، أن العملية الاجتهادية، تكفي لها الرؤية النصفية، وهي الوصول إلى معرفة الحكم الشرعي، أما دراسة محل الحكم، والكيفية التي يتم بها بسطه على الواقع، وطبيعة هذا الواقع، بتركيبه المعقد، وأسبابه القريبة والبعيدة، فلم تأخذ الاهتمام المطلوب، فانفصل الدين عن الحياة، وانتهى الفقه إلى تجريدات ذهنية وأراجيز حفظية لا نصيب لها من الواقع.

* * *

الغياب الحضاري، الذي نحن بصدده، قد لا يكون بسبب نضوب منابع الدين في حياة الأمة، بقدر ما هو خطأ في منهج ووسائل الوصول إلى هذه المنابع

وحسن التعامل معها وترجمتها إلى لغة الواقع، وإثارة الاقتداء بها عند الناس.

فإصابة الأمة اليوم، تكاد تنحصر في منهج ووسائل التدين، خاصة بعد أن تكفل الله بحفظ الدين، الذي يعني فيما يعني: خاتميته وخلوده. ويبقى الأمر المطروح بإلحاح، في كل زمان ومكان: الكيفية التي بها تكون إثارة النزوع إلى التدين، وتفجير ينابيعه، في النفس البشرية، ومن ثم تقويم السلوك الفردي والاجتماعي بنهج الدين القويم.

ذلك أن قضية التدين، أو تقويم الحياة بنهج الدين، هي قضية ملازمة لوجود الإنسان؛ فطالما أن هناك إنساناً، يمتلك أهلية الاختيار، فلا بد له من منظومة قيم، يؤمن بها، ويصدر عنها في القبول والرفض، والإقدام والإحجام، هذه المنظومة هي مجموعة معارف وقناعات، إما أن يختارها بنفسه، أو يرثها عن مجتمعه، أو ينقلها عن مجتمعات أخرى، وقد يتجاوز عالم حواسه، ويترقى في النظر العقلي، إلى آفاق واستفهامات لا يمتلك الإجابة الشافية عليها، فينتهي إلى ضرورة التلقي عن النبوة، فتكون ضميمة الوحي، التي لا تخرج في الاهتداء إليها عن العقل.

فالإنسان مخلوق متدين، والتدين نزعة فطرية، لا يمكن تصور إنسان بدونها، مهما كانت صورة ذلك التدين، والاستقراء يؤكد أنه وجدت في التاريخ مدن ليس فيها مصانع، ولا معامل، ولا مدارس، ولا نواد، لكن لم توجد في تاريخ الإنسان الطويل مدينة بلا معابد، وكثير من المفكرين وفلاسفة المادة الذين يقولون: على الرغم من انشغالنا طيلة النهار بضجيج الآلات، وزيادة الإنتاج، وتحسينه، إلا أننا عندما نأوي إلى مضاجعنا تؤرقنا مجموعة أسئلة، لا نجد لها جواباً شافياً، كيف بدأ الخلق؟ وكيف سينتهي؟ وهل الموت يعني الانطفاء النهائي؟!

فالنزوع إلى التدين ملازم للإنسان كما أسلفنا، لكنه قد يلتقي بهداية السماء، ويستقيم بشرع الله، وقد يضل طريقه، متخذاً أرباباً من دون الله، ومن لم يكن عبداً لله فهو عبد لسواه، والذين يظنون أنهم تمردوا على دين الله،

وخرجوا عليه لم يدركوا أنهم سقطوا في عبودية الأشخاص والأهواء والشهوات قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾؟.

وقد لا يكون المجال هنا مجال مناقشة وموازنة، بين هدي الله وما يمنحه للإنسان من الحرية والعدالة والكرامة والمساواة؛ وألوان التدين الأخرى، لكن لا بد لنا من التأكيد أن الذين حاربوا هداية الله إنما حاربوها لأنها تسويهم بغيرهم من الخلق، وهم يريدون لأنفسهم أن يكونوا آلهة وأرباباً، لهم حق السيادة والأمر والنهي، وأن الصراع، والحوار، والمواجهة.. إنما هو في الحقيقة صراع بين ألوان من التدين، أو من الدين ـ إن صح التعبير ـ.

هذا النزوع المفطور في الإنسان، هو الذي يشكل القابلية والتهيؤ لاستقبال الهدي الإلٰهي، وبقدر ما يكون جهاز التوصيل سليماً، والإرسال صحيحاً، ويكون المرسل بصيراً وفقيهاً بأساليب الخطاب، وأحوال المخاطبين، وكيفية إثارة كوامن هذا النزوع بالاتجاه الصحيح، بقدر ما يكون الكسب الديني متعاظماً وممتداً، وبقدر ما تصاب أجهزة الدعوة إلى الدين، بقدر ما يكون التأثير محدوداً، فالعلّة ليست دائماً في المخاطَب، فقد تكون العلّة كلها في المخاطِب الذي يريد توصيل الدين إلى الآخرين.

لذلك نرى أكثر الفترات تألقاً وامتداداً فترة النبوة والصحبة، والمراحل التاريخية التي استطاعت استصحاب روح تلك الفترة.

لقد استطاعت تلك المراحل التاريخية إثارة كوامن التدين، وأحسنت في إيصال الإسلام إلى الناس، وتقويم واقعهم بهديه، فالقرآن هو القرآن كما أنزل، والسنة بيانه، محفوظان بحفظ الله الذي أثمر جهود العلماء، أوعية الحفظ وأدواته، لكن المشكلة اليوم ليست فقط في إتقان وإدراك الخطاب الديني المحفوظ، أي ليست في معرفة نصوص الدين، وإنما بإصابة أجهزة الدعوة بالعطب، ولا نعني بأجهزة الدعوة الوعظ والإرشاد، بقدر ما نعني امتلاك القدرة على فقه الإنسان، وفقه المجتمعات، والتبصر بكيفية خطابها، وطرائق بسط الدين على حياتها لتستقيم بنهجه.

وسائل وآليات الفهم

ومن الأمور التي تدعو للاعتزاز والإعجاب ـ والتي جاءت ثمرة حفظ الله لهذا الدين ـ الجهود العلمية التي بذلت لحماية نصوصه وتنقيتها، ومن ثم وضع الأصول والقواعد لمعرفة المراد الإلٰهي. فلقد تطورت العلوم التي تخدم هذا المقصد في مجال مناهج التفسير، وعلوم القرآن، ومصطلح الحديث، وأصول الفقه، ومناهج الاستنباط، وعلوم اللغة، ودلالات الألفاظ، وهو ما يسمى علوم الآلة، تطوراً كبيراً، وكلها تشكل في نهاية المطاف وسيلة لفهم الدين، لكنها انقلبت في عصور التقليد والركود والتخلف إلى غاية بحد ذاتها، معطلة بيد أصحابها يصعب إعمالها، وتعديتها إلى مجرد مثال آخر، غير مثال الأقدمين، وغاية ما استطاعت فعله، هو المحافظة على الصورة واستبقائها، ونقلها إلى الجيل التالي، أما تشغيل هذه الآليات، وتطويرها لتحقيق المقاصد منها، والإفادة مما قدمه العصر من تقنيات للحفظ والتيسير فلم يحظ بالحد الأدنى، كما أن التعامل مع الصورة الجديدة للواقع بظروفه وشروطه، من وجهة نظر إسلامية يكاد يكون توقف تماماً من خلال تلك الآليات التي تعطلت منذ زمن.

ونستطيع القول: إن هذه الآليات (آليات الفهم) للمراد الإلٰهي في المراحل المتأخرة ـ حيث أصبحت تجريدات ذهنية بعيدة عن الواقع ـ بدل أن تكون أداة تيسير وفهم، انقلبت إلى حواجز ومعوقات تحول دون القدرة على الاغتراف من مصادر المراد الإلٰهي ـ الكتاب والسنة ـ للتعامل مع العصر، وأصبح التدين مقتصراً على مجرد حفظها وترديدها، وليس القدرة على إعمالها، ولو أحسنّا إدراكها ـ إلى جانب حفظها ـ لتمت النقلة المطلوبة في بيان المراد الإلٰهي لمشكلات الأمة وقضايا الواقع، وبسط الدين سلطانه على الفعاليات المختلفة.

لقد دوِّن الوحي ليحفظ، وجُمع لئلا يضيع، ودوّن الحديث، وصُنِّف لتنقيته من الدخيل على الوحي، ونشأت دواعي علم النحو والصرف ودلالات الألفاظ لحماية النص وعدم الخروج بالمعنى عما وضع له اللفظ، لكن إلى أي مدى

وخاصة في عصور الركود والتقليد استطعنا تجاوز أسوار الحماية هذه إلى الانتفاع بما في داخلها، لحاضرنا ومستقبلنا؟!

المجتهد ومعطيات العصر

لقد بدأت القدسية للنص القرآني والحديث النبوي وهما مقدسان بلا شك لأنهما وحي يوحى، وكان لهذه القدسية معنى حياتي، وبعد حضاري، ثم انتهى القرآن إلى لون من التراتيل، يتلى للتبرك، بعيداً عن دوره في بناء العقل، وتعمير الأرض، والقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني، وأصبح صحيح البخاري، وموطأ مالك، وكتب السنة الشهيرة، تقرأ في النوازل، ثم انتقلت القدسية إلى فهوم البشر واجتهاداتهم في عصر معين، وأصبح المراد الإلهي وقفاً على فهمهم وعصرهم ومشكلاتهم وكادت هذه الفهوم تحل محل الكتاب والسنة، وبذلك افتقدا بهذه الصورة التي صارا إليها صفة الخلود والقدرة على العطاء المتجدد.

صحيح أن أصول المشكلات الإنسانية وثوابتها، يمكن أن تكون واحدة في العصور كلها، وأن مظاهرها وأشكالها، هي التي تتعدد، وتتنوع، وتختلف، ولولا هذا التجدد لاكتفت البشرية بالنبوة الأولى، ولما جُعلَ الاجتهاد المستمر مصدراً للتشريع في النبوة الآخرة، ولما جاءت معظم نصوص المراد الإلهي، عامة ومرنة، لتكون قادرة على استيعاب العصر وتصريف شؤون الناس وفق الهدي الديني، فيما وراء الثوابت، الأمر الذي لا بد له من الاجتهاد لكل عصر.

وإذا سلّمنا بأن المجتهد هو ابن عصره وبيئته، وأن الاجتهاد لبسط الدين على واقع الناس، وتقويم مسالكهم بنهجه يجب أن يأخذ بعين الاعتبار معطيات العصر، ومشكلات الناس، الذين هم محل الحكم الشرعي، فلا بد لنا من القول: بأن هذه المسلمة لحقت بها إصابات بالغة وقد نقول: قاتلة، من خلال ما نلاحظه من انفصال المجتهدين والمفكرين عن همّ أمتهم وقضايا عصرهم

ومشكلاته، والدوران في فلك الاجتهاد والأفكار البشرية السابقة، التي على الرغم من دقتها وتميزها وإبداعها، إلا أنها إنما جاءت ثمرة لعصر معين، بقضاياه ومشكلاته، وأقل ما يقال فيها: إنها لم تكن محصلة لهذا العصر، وإن الالتجاء إليها، والاحتماء بها، قد يحافظ عليها حفاظاً تاريخيًّا، لكن الاقتصار على ذلك، دون القدرة على الإفادة منها، كمعين للفهم والنقل الثقافي، والشهود الحضاري، يفقدها قيمتها، ويبعد بها عن إغناء حياة المسلمين، فتنقلب معوقاً، ومانعاً حضاريًّا، بدل أن تكون دافعاً ومشروع نهوض.

العلوم الاجتماعية آليات ضرورية للفهم

ولعل الأخطر من ذلك ـ وارتباط الأمرين ببعضهما ارتباط سبب ونتيجة ـ التوقف المذهل في إطار العلوم الاجتماعية والإنسانية، وهي الأدوات والآليات الضرورية لفهم الواقع، وإدراك أبعاد الإنسان، والتعرف على مفاتيح شخصيته، وطرائق تفكيره، والأسباب الحقيقية الكامنة وراء مشكلاته، وهو محل الحكم الشرعي.

إن هذه المعرفة بما تقدمه من نتائج تصبح ضرورة شرعية، وأعتقد أنها تقع ضمن إطار الفروض العينية للذي يتصدى لعملية الاجتهاد وبيان المراد الإلهي، وبسطه على واقع الناس، والحكم على مسالكهم، لتتم عملية الموافقة والتكيّف بين الحكم ومحله بدقة، ولا بد أن نذكر هنا تنبه بعض المؤسسات العلمية الإسلامية ـ كلية الشريعة بجامعة دمشق ـ إلى أهمية العلوم الاجتماعية والإنسانية بقدر أهمية العلوم الشرعية نفسها، فكانت لها أسبقية في هذا المجال، حيث اعتمدت دراسة علم النفس، وعلم الاجتماع، وحاضر العالم الإسلامي مواد أساسية في منهجها.

ولعل خطورة توقف العلوم الاجتماعية والإنسانية، في أنه حرم المفكر والمجتهد من التعرف إلى ساحة عمله، وأضاع عليه خارطة الطريق، التي يحاول أن يسلكها، لتنزيل المراد الإلهي على واقع الناس، وتحقيق تقويم سلوكهم بدين

الله، وامتلاك شروط التغيير السليمة؛ ولا مناص من الاعتراف اليوم بأن آليات العلوم الاجتماعية تطورت تطوراً كبيراً على أيدي غير المسلمين، وبلغت شأواً واسعاً، في معرفة الإنسان، الأمر الذي لا مندوحة منه لبسط الإسلام على حياة الناس، وإلا كان التعامل مع مجهول. لقد توقف العقل المسلم عن السير في الأرض، والتعرف على تاريخ الأمم في النهوض والسقوط، واكتشاف آيات الله في الأنفس والآفاق، وآليات التغيير الاجتماعي، التي وردت في القرآن بشكل لافت للنظر، وهي أشبه ما تكون بالمعادلات الرياضية بعد أن أصبح القرآن مجرد تراتيل للتبرك.. فظن كثير من المجتهدين، أن العملية الاجتهادية، تكفي لها الرؤية النصفية، وهي الوصول إلى معرفة الحكم الشرعي، أما دراسة محل الحكم، والكيفية التي يتم بها بسطه على الواقع، وطبيعة هذا الواقع، بتركيبه المعقد، وأسبابه القريبة والبعيدة، فلم تأخذ الاهتمام المطلوب، فانفصل الدين عن الحياة، وانتهى الفقه إلى تجريدات ذهنية وأراجيز حفظية لا نصيب لها من الواقع.

البعد الغائب في شروط الاجتهاد

والذي يحاول التعرف على شروط الاجتهاد التي وضعها العلماء يجد أن من جملة هذه الشروط معرفة أعراف الناس ومألوفهم، إلا أن هذا الشرط لم يحظ بشيء من الدراسة الجادة، والبيان الشافي والتأصيل العلمي، على عكس الشروط الأخرى كلها التي يمكن أن نقول: إنها درست وأنضجت حتى كادت تحترق، لأنها أدخلت في طور استحالة التحقق، أما هذا الشرط، وهو معرفة الواقع، فاكتفي فيه بإشارات بسيطة وساذجة في كثير من الأحيان، هي أقرب للملاحظات والمشاهدات، منها للمناهج والدراسات، اللهم إلا الجانب القليل من مباحث الاستحسان والمصالح المرسلة، وسد الذرائع، والعرف، أو ما يمكن أن نسميه بالمصادرالتبعية، ذلك أن النظر الاجتهادي في هذه المصادر اعتبره بعضهم ملحقاً إلى حد بعيد بالقياس ـ القياس الخفي ـ لبيان المراد الإلهي، أكثر منه تعلقاً في معرفة واقع الناس محل التنزيل؛ أما مكونات الإنسان، وعوامل

تشكيل شخصيته، وبناء علاقاته الاجتماعية، والقوانين التي تحكمها فلم يكن له النصيب المطلوب، إلا من بعض البوارق التي لم يكتب لها الاستمرار.

لقد كان المجتهد جزءاً من الحياة يتعامل معها ويحترف بحرفها ويخوض معاركها ويكون لمشاهداته ومعاناته الميدانية نصيب كبير من فقهه، أما عندما انفصل المجتهد عن مجتمعه، وابتعد عن همومه فقد فاته الإدراك الواعي لمشكلاته، فجاءت اجتهاداته اجتهادات نظرية مجردة، تنطلق من فراغ، وتسير في فراغ، مما جعل بعض المفكرين يطلقون عليها مصطلح «فقه الأوراق» لأنها تكونت بعيداً عن واقع الناس وميدان نشاطهم. فأية قيمة للحكم تبقى إذا لم ينزل على محله وكيف يعرف محله دون دراسة وعلم؟! لذلك نرى من لوازم الاجتهاد اليوم، الاستيعاب المعرفي الشامل للواقع الإنساني، وهذا لا يتأتى كله من مجرد المعايشة، والنزول إلى الساحة ـ الأمر الذي لا بد منه ـ وإنما النزول، والتزود قبله، بآليات فهم هذا الواقع، من العلوم الاجتماعية التي توقفت في حياة المسلمين منذ زمن، ذلك أن عدم الاستيعاب والتحقق بهذه الشروط اللازمة لعملية الاجتهاد، أدى إلى انفصال أصحاب المشروع الإسلامي، عن واقع الحياة، وإن لم ينفصلوا عن ضمير الأمة، التي لا تزال ترى في المشروع الإسلامي بوارق الأمل للإنقاذ والتغيير.

والتغيير لا بد له من إدراك المراد الإلٰهي أولاً ومن ثم آليات فهم المجتمع بالمستوى نفسه، حتى يتم الإنجاز، وقد تكون مشكلة الحضارة اليوم أن الذين أدركوا آليات فهم الواقع لم يؤمنوا بالخطاب الإلٰهي، وكثير من الذين آمنوا بالخطاب الإلٰهي لم يدركوا آليات فهم الواقع.

فالاجتهاد الفردي في هذا العصر يكاد يكون مستحيلاً، بعد هذا التوسع، والتبحر في الاختصاص، والتعقيد في تركيب المجتمعات، والتشابك في العلاقات الاجتماعية، والتأثر والتأثير بين الأمم من جهة، وبين جوانب الحياة المتعددة، لذلك لا يتسع عمر الفرد ولا علمه ـ مهما بلغ من النبوغ ـ لهذا النوع المطلوب من الاجتهاد، فلا مندوحة والحالة هذه من التقدم باتجاه المؤسسات

ومراكز البحوث والدراسات، وبناء العقل الجماعي المؤسسي، الذي يمتلك نوافذ الرؤية من الجهات كلها وفي العلوم كلها.

لقد حفل العصر السابق بإنجازات فردية هامة جاءت ثمرة لمقتضيات العصر نفسه، أما بعد أن توسعت الأمور وأصبحت الدنيا كلها محل رؤية الإنسان وخطابه، فلا بد من إعادة النظر في عملية الاجتهاد. حتى يمكن تحويل الإسلام من قيم ومبادىء ومواثيق أخلاقية وإرشادات عامة توجه مسيرة الحياة إلى برامج وأحكام تصوغ الواقع وتضع الأوعية الشرعية الصحيحة لحركته.

فالإيمان بخلود هذا الدين، وصلاحيته لكل زمان ومكان وقدرته على النهوض بالأمة إلى مرتبة الشهود الحضاري، أصبح مسلمة لا تحتمل شكًا، ولا استزادة لمستزيد، وتعاظم المد الإسلامي إلى آفاق لم تكن بالحسبان، لكن لا بد من الاعتراف بأن حركة الاجتهاد لترشيد تدين هذا المد، ووضع البرامج والأوعية الشرعية لحركته، لم تكن بالمستوى المطلوب، ولا الموازي لحركة المد الإسلامي، ذلك أن الجماهير المسلمة آمنت بالإسلام، لكنها لم تبصّر بالواقع وكيفية التعامل معه، وتقويمه بنهج الدين، لقد امتلكت القاعدة الإسلامية العريضة وافتقدت القيادة الواعية الرشيدة الفقهية، فلحقت بها إصابات بالغة ليست كلها بسبب أعدائها، وهذا يقتضي ديمومة النظر وبذل الجهد والاجتهاد في كل وقت وعصر للإفادة من الخطاب الإلهي في تقويم مسالك الناس ومعالجة مشكلاتهم وفق الهدي الديني، ذلك الاجتهاد (الفقه) الذي يمكن أن نمثل له بدور الطبيب، الذي يدرس حالة المريض، ويحدد أسباب المرض وآثاره، ويختار له من مجموعة الأدوية المحفوظة في الصيدلية، ما يناسبه ويعالج حالته، دون أن يكون لذلك آثار جانبية قد تعيق شفاء المريض، أو تضاعف مرضه، أو تفضي إلى الإصابة بمرض آخر، فالصيدلي الذي يحفظ الدواء ويعرف مركباته يبقى عاجزاً عن المعالجة لأن المعالجة لا تكفي فيها معرفة الدواء، وإنما تتطلب المعرفة الدقيقة بحالة المريض وما يناسبه وما لا يناسبه من الدواء، والمقادير المطلوبة، والزمن المقدر، والتوازن بين أكثر من دواء إلخ. فمنهج النقل والحفظ للخطاب الإلهي أقرب ما يكون إلى عمل الصيدلي، ومنهج الفهم والفقه من هذا المنقول

أقرب ما يكون شبهاً بعمل الطبيب، وقد لا تفيد كثيراً كثرة الصيادلة، ومعامل الدواء، إذا انعدم وجود الأطباء، لأن ذلك قد يؤدي إلى وضع الدواء في غير محله، فيهلك المريض من حيث يراد له الشفاء والنجاة.

وجود العلاج لا يعني وجود المعالج

فالمشكلة اليوم ليست في عدم وجود العلاج، وإنما هي في عدم وجود المعالج، فالإسلام هو الدواء، والشفاء، ولكن كيف نستعمل هذا الدواء ولمن نستعمله؟ ومتى؟ هذه هي المشكلة اليوم التي يعاني منها الواقع الإسلامي، وهي مؤشر مؤرق بسبب غياب فقهاء المجتمعات، وفقهاء التربية، وفقهاء التخطيط، وفقهاء استشراف آفاق المستقبل، وفقهاء علوم الإنسان، فقهاء الحضارة عامة، الذين يشكلون عقل الأمة، ويعرفون كيف يغترفون من هذا الإسلام، لمصلحة الأمة في واقعها المعاصر، وكيف يتعاملون مع هذا الإسلام، ويعودون بالأمة إليه.

ويصير الأمر أكثر لزوماً بعد الإحباطات الكثيرة التي تعرض لها العمل للإسلام، بسبب العجز الواضح في فقه الحركة والميدان، وإبداع البرامج العملية التي تترجم القيم والمبادىء الإسلامية وتنزلها على واقع الناس المعاصر، في ضوء رؤية ذات دراية وفقه، وتتأكد وتتعاظم مسؤولية المشتغلين بالقضية الإسلامية في أن يطرحوا الأمر بجدية وموضوعية، بعيداً عن الحماس والتوثب، وخروجاً على الأسوار الحزبية وممالأة الجماهير، وردود الأفعال، والأساليب التعبوية، التي أدت دورها كاملاً في مرحلة إعادة الانتماء للإسلام والتي باتت لا تفيد كثيراً في مرحلة الأنطلاق إلى الأمام.

لقد بقي شعار ترشيد الصحوة نظريًا، ونستطيع أن نقول: إن أعداء الإسلام أفادوا من رصد حركة الصحوة، ووضع استراتيجيات المواجهة، على المستوى السياسي، والثقافي، والأمني، أكثر من أصحاب الصحوة أنفسهم، الذين عجزوا حتى الآن عن اغتنام الفرصة وحسن الإفادة منها.

لقد كانت الصحوة من بعض الوجوه فرصة لانكشاف مواقع العجز، أكثر من أن تكون زخماً عاقلاً لعملية النهوض، من هنا نرى أنه لا بد من العمليات الجراحية الجذرية لاستئصال العجز، والعدول عن المهدئات والمسكنات، التي توهم العافية ولا تقدم العلاج، والعلاج إنما يكون بالاستيعاب المعرفي للعلوم الاجتماعية والإنسانية كما أسلفنا لأن استيعابها أصبح ضرورة شرعية لازمة، لتحقيق المناط، كما يقول علماء الأصول، ولامتلاك صفة الاجتهاد، في تنزيل شرع الله على الواقع البشري، فالاجتهاد اليوم يقتضي فقهاء في الاختصاصات كلها، وإن الاقتصار على فقهاء معرفة الحكم الشرعي، دون فقهاء معرفة محل الحكم، سوف لا يحقق إلا نصف المطلوب.

إن فتح أبواب الاجتهاد، على مصراعيها، لا شك أنه سوف يأتي بالغث والسمين، لكن عصمة الأمة بعمومها عن الخطأ، وتواتر الوحي في الثوابت، التي تحمي كيان المجتمع من العبث. وطبيعة التعدد والتباين بوجهات النظر، والتدافع، يبدد الخوف، ويبقي الأصلح، وقد يكون من أهم عوامل تبديد الخوف الإدراك بأن الاجتهاد الفكري أو الفقهي هو كسب بشري، قابل للفحص والاختبار، والتصويب والتخطيء، والحوار والجدل، وليس له صفة القدسية، أو على الأقل ليس هو الدين، وإنما هو فهم الإنسان للدين، وخطأ هذا الفهم لا يعني بحال من الأحوال خطأ الدين المعصوم، لذلك قد يكون لنا بعض التحفظ على كثير من المصطلحات الموهمة أن اجتهاد فلان هو الدين، فلا قدسية لرأي ولا اجتهاد، ولا كهانة في الإسلام، ولا حملة كتاب مقدس، ينطقون باسم الله. وإنما هي فهوم بشرية لتنزيل الإسلام على واقع الناس، معرضة للخطأ كما هي معرضة للصواب. وكل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب هذا القبر، كما يقول الإمام مالك رحمه الله، لأنه مسدد بالوحي ومؤيد به، ولا شك أن كثرة الحوار حول الأمور الفكرية والفقهية المطروحة، يبلور الصواب، ويسدد الوجهة.

العقلية الذرائعية

وبما أنّا اخترنا أن يكون اهتمامنا بالأسباب الذاتية التي هيأت القابلية

للإصابة، التي لحقت بالعقل المسلم، ولم نرتض منهج الإلقاء بالتبعة على العوامل الخارجية لإعفاء النفس من مسؤولية التقصير، والتستر على الأخطاء، وتكريس حالات العجز والغياب الحضاري، فإنّنا نرى أن القضية التي عبرنا عنها بالغياب الحضاري، ليست بسبب افتقاد القيم، أو فقر الميراث الثقافي، أو عجز وقصور التجربة الحضارية التاريخية، وإنما هي بسبب خمود الفاعلية، وانطفاء شعلة الإيمان، وضلال منهج الفهم، وعدم القدرة على التعامل مع القيم الثابتة، والإفادة من الميراث الثقافي، والتجربة الحضارية التاريخية، والتحقق بـ (الشهود التاريخي) الذي يقود حكماً إلى الشهود الحضاري لتنزيل الإسلام على واقع الناس، وإيجاد الأوعية الشرعية لحركة المجتمع، من خلال فقه الدين وبصارة الواقع (فقه التدين).

من لوازم الرسالة الخاتمة

فالقرآن والسنة مصدرا القيم الثابتة للحياة الإسلامية، محفوظان بعهد الله ومواثيقه، وقد بذل المسلمون من الجهود في وسائل الحفظ ما لا يدع استزادة لمستزيد، حتى وصلنا النص القرآني، والبيان النبوي كما هو، وكأننا نعيش عصر النبوة، ونشهد نزول الوحي. ولعل من لوازم وشروط الرسالة الخاتمة: أن يكون الخطاب الإلهي والبيان النبوي سليماً، وإلا لما صح تكليف، ولما ترتبت مسؤولية.

فالمشكلة إذن بالنسبة لمسلم اليوم ليست في نص الدين، أو في عدم وجود المنهج، وإنما المشكلة هي في عدم فقه الخطاب، وتأصيل منهج التعامل معه، وكيفية تنزيله على الواقع البشري، الأمر الذي يقتضي فقه الخطاب وفقه الواقع في آن واحد، كما أسلفنا لأن الرؤية النصيفية بفهم الخطاب الإلهي دون فهم الواقع، وعدم حل المعادلة الغائبة، بين الخطاب الإلهي، والواقع البشري، سوف يبقي المسلمين في حالة الغياب الحضاري المؤرق.

ومهما كان الإسلام عظيماً ونفيساً إذا لم يتقدم به أهله لمعالجة المشكلات البشرية الواقعية، وتقديم الحل الأفضل، الذي يغري به الناس، وينقذ حياتهم، فسوف لا يكون أدى رسالته وحقق مقصده؛ فإلى أي مدىً يحسن المسلمون اليوم التعامل مع الإسلام بمصدريه، ويعيدون صياغته من خلال لغة العصر؟، وإلى أي مدى يأخذون بالاعتبار إدراك الواقع المتغير والمعقد بآلات فهم علمية ليكونوا قادرين على بسط الإسلام على حياة الناس، وتقويم سلوكهم بشرع الله؟ تلك هي المعادلة المطلوبة والمفقودة في الوقت نفسه عند مسلمي اليوم، وبدونها لا تتحقق القيادة للناس والشهادة عليهم، التي هي من وظائف وخصائص الأمة الوسط ﴿وكذلك جَعَلْنَاكُم أمّةً وسطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلى آلنَّاس﴾ (البقرة: ١٤٣).

وقد يكون من المفيد الإشارة إلى بعض الأبعاد التي يمكن أن تسهم بإلقاء أضواء ولو بسيطة على طريق حل المعادلة (فقه التدين)؛ وفي كل الأحوال يبقى الأمر مطروحاً، والحوار مفتوحاً ومباحاً لكل القادرين عليه، لا يجوز إغلاقه، لأنه مرهون بتجدد الزمن، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

افتقاد خاصية التوازن

ولعل من القضايا التي تستحق النظر، وإعادة الطرح والتفاكر والتي لا يزال العقل المسلم يخضع فيها لعملية رد الفعل والضغط الخارجي: أن كثيراً من الحلول والطروحات الفكرية، التي نشأت في تاريخ الفكر الإسلامي، من خلال موقف الدفاع عن الإسلام، وما تعرض له من تحديات، لم تستطع أن تحتفظ بخاصيّة التوازن، وضبط النسب إن صح التعبير، وإنما تجاوزت ذلك ـ وهذا من طبيعة رد الفعل وإصابات الفكر الدفاعي ـ إلى جعل العدو في كثير من الأحيان متحكماً بالنشاط الفكري للعقل المسلم ومحدداً لأبعاده، بما يلقي إليه من مشكلات، قد تحوّله عن رسالته الأصلية ومساره السليم، أو أولوياته المطلوبة؛ بل قد تضغط عليه فتخرجه عن منطقه ومنطلقه. ففي سبيل تأكيد

دور العقل في الإسلام كاد بعضنا أن يلغي الوحي، أو يحاصره بشتى السبل، ويعطل منهج النقل كليًّا، وإن لم يجاهر بذلك؛ وفي سبيل تأكيد حرية الإرادة والمسؤولية، أوشكنا على إلغاء القدر؛ وحتى نرد على موجة تأليه العقل انتهينا إلى فكر الجبر، وإسقاط العقل نهائيًّا، والانتهاء إلى لون من الانتحار الروحي، والخروج من الحياة وتكاليفها إلى مذهب التصوف السلبي، والقول بالإرجاء؛ وفي سبيل ردّ شبه اليهود في التجسيم، والنصارى في التثليث، تعسفنا في تفسير الآيات حتى انتهت فرقة إلى القول: بخلق القرآن، وهذا قد يصدق إلى حدٍ بعيد على علم الكلام الذي امتد وتجاوز حتى كاد يغادر أصوله ومنطلقاته الإسلامية. وهكذا نرى أنه لا بد ونحن بسبيل تنزيل الإسلام على الواقع، ومواجهة التحديات، أن يبقى العقل المسلم متوازناً ومراعياً لعملية ضبط النسب واعتماد أساليب المواجهة المشروعة المتسقة مع العقيدة كما وردت في الكتاب والسنة كضمانات لعدم الخروج باسم التعامل مع الواقع.

بين المبادىء والبرامج

صحيح أن القرآن إنما جاء بإرساء القيم الأساسية، والمبادىء العامة للحياة الإسلامية، وترك أمر الخطط والبرامج، والصياغة والتنزيل، للفكر البشري (الاجتهاد) لكن لا بد أيضاً لهذا الاجتهاد أن يبقى محكوماً بأبعاد العقيدة والقيم الضابطة لمسيرة العقل، والحياة الإسلامية كما وردت في الكتاب والسنة، لا يخرج عنها، فالقيم والمبادىء وحي من الله، من هنا فهي ثوابت وأسس، أما البرامج فهي اجتهادات بشرية ومتغيرات في ضوء الواقع وحاجاته، لكن الحركة الاجتهادية يجب أن تبقى ضمن إطار القيم الثابتة.

وقد تكون المشكلة التي يعاني منها العقل المسلم اليوم في اختلاط بعض الأمور أثناء التعامل مع الإسلام، وبسطه على واقع الناس؛ فآيات القرآن، ونصوص السنة الصحيحة لا شك أن لها ثباتها وقدسيتها لأنها وحي معصوم - كما أسلفنا - وبالتالي فدور العقل يتحدد في إدراك أبعادها، والاجتهاد في تحديد

مدلولاتها، ومقاصدها، أما إخضاعها لوسائل الفحص والاختبار التي تخضع لها المعارف العقلية القابلة للخطأ والصواب، فقضية خطيرة؛ ومن جانب آخر فإننا نرى المشكلة تتمثل في أن العقل المسلم في عصوره المتخلفة لم يقتصر في إعطاء صفة القدسية لنصوص الكتاب والسنة، وهما مصدرا القيم، وإنما تجاوز ذلك إلى إعطاء صفة القدسية للاجتهاد البشري غير المعصوم (الخطط والبرامج التي وضعت لنوازل المشكلات في عصور تاريخية في ضوء الكتاب والسنة) فوقع في خطأ التقليد والتجمد، وعدم القدرة على الامتداد الإسلامي، وتعدية الرؤية والاعتبار.

أما الوجه الآخر للمشكلة فهو في أن بعض أبناء المسلمين ممن فتنوا بالمذاهب العلمانية، كردّ فعل على الواقع الإسلامي البئيس وضعوا الكتاب والسنة وهما وحي معصوم في خانة التراث، والإنتاج العقلي، القابل للفحص والاختبار، ومن ثم الانتقاء والإلغاء باسم المعاصرة، لذا نرى أنه لا بد من إصلاح الخلل في هذه القضية، ونحن نحاول التفقه والتأصيل لمنهج التدين، وتصويب الخطأ الذي لحق بالعقل المسلم سواء بالنسبة لبعض من رغبوا في الإسلام أو من رغبوا عنه.

التدرج في التطبيق

وقضية أخرى: لعل من أهم مرتكزات فقه التدين، الذي يعني فيما يعني التخطيط والبرمجة لبسط الدين على واقع الحياة، وتقويم سلوك الناس بنهج الدين بعد رحلة الانسلاخ التي لا نزال نعاني من آثارها: أن العودة إلى الالتزام بالإسلام وتكييف سلوك الناس بنهجه لا يمكن أن يتم دفعة واحدة، خاصة وأن عملية الانسلاخ استغرقت زمناً طويلاً فلا بد من اعتماد سنة التدرج؛ وعملية التدرج التي تقتضي التحقق بالرؤية الإسلامية الشاملة، وهي فهم الدين، كما تقضي أيضاً التحقق برؤية عصرية للواقع وفهمه من خلال وسائل علمية، وتجاوز الأبنية الفكرية الجاهزة من عصر سابق، ثم تحديد الموقع بدقة، والقدر

الذي يجب تنزيله في هذه المرحلة ومن ثم يكون تنزيله في هذه المرحلة مقدمة وتمهيداً لتنزيل القدر التالي في مرحلة أخرى، وهكذا.

وهنا نقطة قد يكون من المفيد إيضاحها:

ونحن نتدرج بالتنزيل لا بد لنا أن نستصحب الرؤية الشاملة والأبعاد الكاملة والشاملة التي يجب أن نبلغها، ونستشعر المسؤولية عن عدم بلوغها، وأن التدرج المطروح هو التدرج في التطبيق، والتنزيل على الواقع، وليس التدرج في التشريع، لأن التشريع اكتمل، إلا إذا أردنا بالتشريع وضع النظم والقوانين والبرامج فذلك أمر من طبيعته عدم الثبات وإنما محاكاة العصر.

وفي ظننا أن التدرج في التطبيق ليس أمراً خارجاً عن الدين، كما يتوهم بعضهم، ذلك أن أمر الشارع منوط بالاستطاعة، والتكليف منوط بالطاقة قال تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ ٱللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦) ﴿فَاتَّقُوا ٱللهَ ما اسْتَطَعْتُم﴾ (التغابن: ١٦)؛ فإلى جانب الفوائد التربوية لعملية التدرج المطلوب استحضارها، لا بد أن ندرك أن التدرج هو من الدين، فالعدول عن العزيمة إلى الرخصة في حالات قد تؤدي العزيمة فيها إلى تفويت مقصد الدين، وإيقاع المكلَّف في الحرج، هو الحكم الشرعي، الذي يلائم المكلَّف في حالته التي هو عليها، «فالمشقة تجلب التيسير» «وإذا ضاق الأمر اتسع».

لذلك فليس من فقه التدين وليس من فقه الدين أيضاً مطالبة المكلَّف بالحد الأقصى للتكليف، وهو لا يطيق إلا الحد الأدنى. والمدى المطروح للتدين يتلاءم بحسب الواقع، والحال التي عليها المكلف ابتداءً من قوله تعالى: ﴿إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمانِ﴾ (النحل: ١٠٦) إلى قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُم حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لله﴾ (البقرة: ١٩٣)، تخليصاً للناس من العبودية وإزالة العوائق، وتحقيق حرية الاعتقاد، والارتقاء بالإنسان إلى مستلزمات الحد الأعلى للتكليف.

التدين منوط بالوسع

وهذا الأمر يطرح قضية أخرىٰ لا بد أن نعرض لها: وهي أن الإسلام دين واقعي، إذ لا يمكن عقلاً وبداهة إلا أن يكون واقعيًا، ذلك أن الله الذي خلق الإنسان أعلم بظروفه وطاقاته التكليفية، وقدرته على الاحتمال في كل ظرف وحال، لذلك فمن العبث الاعتقاد بأن الله يكلفه بما لا يطيق، أو يشرع ما لم يكن قابلاً للتطبيق ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٣)، وأن الحد الأعلى للتكليف لا يصنف في إطار المثالية واستحالة التطبيق وإنما هو بمقدور المكلَّف في أحسن حالات الترقي التي يمكن الانتهاء إليها؛ واستقراء التجربة التاريخية الإسلامية يؤكد أن الإسلام، دين واقعي جسّد في حياة بشر، وأثرىٰ حضارة، وأقام أمة بمؤسساتها ووظائفها، وأن من واقعيته مراعاة حالة المكلَّف وظرفه وطاقته. وما يلاحظ من نزعات مثالية تبدو مستحيلة التطبيق عند بعض المفكرين المسلمين يمكن تصنيفه ضمن إطار الأغراض التربوية، وذلك لحماية الناس من السقوط في فساد النظام الحاكم أو فساد الزمان، أما فترة النبوة مرحلة التطبيق الأمثل، ففيها الرخصة والعزيمة، والخطأ والصواب، والتدرج والتأجيل والاستثناء إلخ؛ والأمة لا يزال فيها السابق في الخيرات والمقتصد والظالم لنفسه.

وقد يؤدي عدم فقه التدين إلى لون من العبث في التعامل مع الأحكام الشرعية، وذلك بتنزيلها على غير محالّها فيلحق العنت بالفرد والأمة على حد سواء، فمن المعلوم أن من أحكام التكليف ما يقع ضمن استطاعة الفرد وفي حدود مسؤوليته، ومنها ما يناط بوجود الجماعة، ويقع ضمن إطار مسؤوليتها، كما أن هناك بعض الأحكام التكليفية محل إنفاذها وجود الحكم والقضاء الإسلامي، والحاكم المسلم، كقضايا العقوبات من حدود وتعزيرات، وعقد المعاهدات، وقضايا السلم والحرب، وسائر السياسات العامة، التي ترتبط بوجود السلطة. والأمر المطروح بإلحاح ولا بد من تحرير القول فيه ونحن بسبيل إنضاح منهج لفقه التدين: هل يصير الفرد المسلم محلاً لبعض الأحكام المنوطة

بالجماعة والسلطان في حال غيابها، يمارس المسؤولية دون أن يمتلك السلطة، وما يمكن أن يترتب على ذلك من المخاطر والفوضى؟ أو هل يعفي نفسه كليًّا من خطاب التكليف، ويدخل غرفة الانتظار حتى تتشكل السلطة المسلمة من تلقاء نفسها؟ الأمر الذي يستحيل معه أن يكون ذلك مقصد الدين وهدفه.

لذلك نرىٰ أن المشكلة قد تكون كلها في عدم فهم أبعاد الخطاب، وفهم محله معاً ذلك أن التكليف يتحدد أصلاً ضمن ما يقع تحت مقدور المكلَّف، ومقدور المكلَّف هنا ليس القيام بإنفاذ الأحكام المرتبطة بوجود السلطان والجماعة، وإنما بالقيام بالمسؤولية المنوطة به كفرد، ومن مسؤوليته الفردية أيضاً العمل على وجود السلطان الذي يناط به إنفاذ الأحكام المرتبطة به، وبذلك يكون الفرد مشمولاً بخطاب التكليف فلا يعفي نفسه من المسؤولية ويدخل ملاجىء المرجئة أو يخرج بلا فهم ولا فقه لدينه وعصره فيسيء من حيث أراد أن يحسن.

[المحرم - جمادى الأولى ١٤١٠هـ
آب (أغسطس) - كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٩]

البِناءُ الحَضاريُ

نحب أن نعلن أنه على الرغم من الواقع كله الذي نعاني منه، والذي أسميناه بالوهن الحضاري، الذي يحكم مرحلة القصعة التي نحن عليها، فإننا لسنا مع أصحاب النظرة التشاؤمية الذين وصلوا إلى مرحلة الإعياء. الـذين يرون استحالة اللحاق بقافلة الحضارة، لبعد الشقة وطـول المسافـة، وعمق الفجوة، فقعدوا عن إعداد العدة ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾.

كما أننا ـ في الوقت نفسه ـ لسنا مع أصحاب الأماني، وأحـلام اليقظة ﴿ليس بأمانيكم ولا أمـاني أهل الكتـاب، من يعمل سـوءاً يجز به﴾، الذين يقضون حياتهم في غرفة الانتظار، ينتظرون سقـوط الحضارة لمصلحتهم من خلال بعض ما يقرأون عن أمراضها دون مكابدة، ومجاهدة، وتهيؤ.

ولا مع أولئك الذين يظنون أن الموضوع كله، يمكن أن يحسم بمجرد رفع درجات التـوتر الـروحي، والتوثب الإيمـاني السلبي، بعيداً عن سـاحة المجاهدة والابتلاء، ويؤثرون الانسحاب من معركة الحضارة، على الرغم من اعتقادنا أن التوثب الروحي والوتر الإيماني، هو الشرط الضروري للتحصين، حتى لا يكون السقوط في زخرف الحضارة وزينتها أثناء المعركة والمـواجهة، لكننا نرى أنه لا بد من النزول إلى الساحة والمواجهـة، بالصـبر والمصابـرة والتعرف على الأسبـاب الموصلة، وتحـري الصواب، مـع الإخلاص وطلب التوفيق من الله.

ولا مع أولئك الذين يستغنون بالتنظير والفلسفة الباردة، عن الممارسة والتـدريب، واكتساب الخـبرة الميدانيـة، وتحديـد مواطن القصـور، ودراسة أسباب التقصير.

* * *

لعلنا لا نتجاوز الحقيقة كثيراً إذا قلنا: إن الأمة المسلمة اليوم، تعيش مرحلة (القصعة) ـ وهي مرحلة الوهن الحضاري بأبعادها كلها ـ التي أخبر عنها الصادق المصدوق بقوله: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. . قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: لا، بل أنتم كثير ولكن غثاءٌ كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن، قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت».

فمؤشرات الوهن الحضاري، ومسبباته، كما أشار إليها الحديث: حب الدنيا الذي يعني العب من متعها واللهاث وراء زينتها، واستهلاك أشيائها، والتزاحم على الحقوق. ويمكن تلخيص ذلك كله بالانتهاء إلى مرحلة الاستهلاك، وظهور الإنسان الاستهلاكي، الذي يتجاوز حقه في الأخذ، ولا يحسّ بواجبه. أما كراهية الموت الذي هو العنصر الآخر للوهن الحضاري، فيعني: انكماش فكرة الاحتساب، وغياب روح الإيثار والتضحية، وعدم استشعار الواجب، والقعود عن العمل والإنتاج، والاقتصار على الاستهلاك.

فالوهن الحضاري، في حديث الرسول ﷺ يتلخص ببروز الإنسان المستهلك الذي لا يهمه إلا حقه، وغياب الإنسان المنتج الذي لا يرى إلا واجبه.

وسوف لا يكون أي نهوض أو بناء، إلا بتصويب تلك المعادلة، والخروج من مرحلة (القصعة)، ومعالجة الإصابة بالوهن، وذلك إنما يكون بإعادة صياغة الشخصية المسلمة اليوم، والارتفاع بها إلى سوية الإنسان المنتج، وتغييب صورة الإنسان المستهلك عن ضميرها، ومناخها الثقافي، والتركيز على إنسان الواجبات، لا إنسان الحقوق. . إنسان البقاء والخلود بالعمل والإنتاج، لا إنسان الزوال والاستمتاع والاستهلاك، الذي يدرك مدلول قوله تعالى: ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ (التوبة: ٣٨).

ونرى أنه لا بد لنا بداية من التفريق بين الموت الحضاري، الذي يعني انقراض الأمم وهلاكها، وبين الوهن الحضاري الذي يعني المرض، أو الوباء الاجتماعي الذي يعتري روح الأمة، فيطفىء فعاليتها، ويقعد بها عن بلوغ أهدافها، وحمل رسالتها. فالمؤشرات الواردة في حديث الرسول ﷺ، تدل على حلول المرض وليس نزول الموت، لذلك تبقى إمكانية النهوض كامنة ومستمرة، لكن لا بد لها من معالجة صحيحة، كما لا بد للأمة ـ في مرحلة الوهن ـ من محرضات، ومنبهات حضارية، تنبعث من داخلها على يد النخبة من أبنائها الشرعيين الذين أخبر الرسول الخاتم عنهم بأنهم الطائفة القائمة على الحق التي لا يضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله.

إنها الطائفة المعافاة، التي تشكل خميرة النهوض، ووسيلة التواصل الحضاري، والتي لم تلحقها إصابة الوهن، وليست جزءاً من الاستنقاع والركود الذي لحق عموم الأمة، لكنها النخبة التي تستشعر مرحلة القصعة بآكليها، وموكليها، وتفكر في سبل الخروج..

وما أشرنا إليه، من أن الوهن الحضاري، مرض قابل للشفاء، وأنه لا يعني بحال من الأحوال الموت الميئوس منه، يؤكده استقراء التاريخ، وما فيه من أخبار الأمم السائدة والبائدة، وقراءة الواقع الذي نحن عليه، ذلك أن مواثيق الله تعالى لهذه الأمة، صاحبة الرسالة الخالدة، ومبشرات المعصوم ﷺ، يؤكدان أن قابلية النهوض كامنة، ودائمة، ومستمرة، إذا أبصرنا شروطه ومقوماته، وتحققنا بأسباب التمكين في الأرض، وأحسنّا التعامل مع السنن الجارية. فغلبة الأعداء موقوتة، وتسلطهم علينا ليس تسلط استئصال، وإنما هي عقوبات يوقعها الله علينا بسبب معاصينا السياسية، والثقافية، والفكرية والحضارية، ويبقى لهذه العقوبات دور المنبه الحضاري، والتحدي المستفز، ذلك أن الصعوبات هي في الحقيقة تحد خلاّق، لأنه يستحث الأمة ويستنفرها للرد عليه.

ولعل في حديث الرسول ﷺ، الذي يرويه (ثوبان) كبير مغزى في هذا

المجـال: يقول الـرسول ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض، فـرأيت مشارقهـا، ومغاربها، (انظر ما تمتلك الرسالة الخاتمة من رصيد حضاري وتجربة وعبرة، من لدن آدم عليه السلام إلى الرسول الخاتم ﷺ) وإن أمتي سيبلغ ملكها مازوي - جمع - لي منها. وأعطيت الكنزين، الأحمر والأبيض - معادن الأرض وثرواتها - (وهذا يفسر ما يعج به العالم الإسلامي من الثروات والمعادن والخامات) وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة - قحط شامل ومجاعة مهلكة - وألا يسلط عليهم عدواناً من سوى أنفسهم، ﴿قـل هو من عنـد أنفسكم﴾ (آل عمران: ١٦٥) فيستبيح بيضتهم.

وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاءً، فإنه لا يرد! إني أعطيتك لأمتك، ألا أهلكهم بسنة عامة! وألا أسلطِ عليهم عدواناً من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من أقطارها، أو من بين أقطارها - يعني: أهل المعمورة - حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً».

مكمن الداء

والحديث ظاهر في أن مصائبنا من عند أنفسنا، وأن تسلط العدو علينا ليس تسلط استئصـال، وأن أخطر الإصـابـات الحضـاريـة، هي التي تلحق بأنفسنا، وأرواحنا، وأخلاقنا، وبنائنا الداخلي. ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإن علاج الوهن الحضاري إنما يبحث عنه في الداخل الإسلامي، ومن المستحيل في ضوء هدي النبوة، واستقراء التاريخ، وقراءة الواقع، استيراد علاج الوهن من الخارج الإسلامي، فالاستيراد، والاستدعاء الحضاري، إنما هو معالجة للعرض، وليس لسبب المـرض، وما نـظنه ونتـظاهر بـه من وهم العافية، بسبب الاستيراد، إنما هو إخفاء وتمهيد للمرض، وليس علاجاً له.

ونحب أن نعلن أنه على الرغم من الواقع كله الذي نعاني منه، والذي أسميناه بالوهن الحضاري، الذي يحكم مرحلة القصعة التي أشرنا إليها، فإننا لسنا مع أصحاب النظرة التشاؤمية الذين وصلوا إلى مرحلة الإعيـاء. الذين

يرون استحالة اللحاق بقافلة الحضارة، لبعد الشقة وطول المسافة، وعمق الفجوة، فقعدوا عن إعداد العدة **﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾** (التوبة: ٤٦). كما أننا ـ في الوقت نفسه ـ لسنا مع أصحاب الأماني، وأحلام اليقظة **﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، من يعمل سوءا يجز به﴾** (النساء: ١٢٣)، الذين يقضون حياتهم في غرفة الانتظار، ينتظرون سقوط الحضارة لمصلحتهم من خلال بعض ما يقرأون عن أمراضها دون مكابدة، ومجاهدة، وتهيؤ.

ولا مع أولئك الذين يظنون أن الموضوع كله، يمكن أن يحسم بمجرد رفع درجات التوتر الروحي، والتوثب الإيماني السلبي، بعيداً عن ساحة المجاهدة والابتلاء، ويؤثرون الانسحاب من معركة الحضارة، على الرغم من اعتقادنا أن التوثب الروحي والوتر الإيماني، هو الشرط الضروري للتحصين، حتى لا يكون السقوط في زخرف الحضارة وزينتها أثناء المعركة والمواجهة، لكننا نرى أنه لا بد من النزول إلى الساحة والمواجهة، بالصبر والمصابرة والتعرف على الأسباب الموصلة، وتحري الصواب، مع الإخلاص وطلب التوفيق من الله.

ولا مع أولئك الذين يستغنون بالتنظير والفلسفة الباردة، عن الممارسة والتدريب، واكتساب الخبرة الميدانية، وتحديد مواطن القصور، ودراسة أسباب التقصير.

ولا مع الذين، ينظرون إلى التواصل الحضاري الوارد في حديث رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله» برؤية نصفية: من أن القيام على الحق مقتصر على الجانب العبادي الروحي السلبي، دون إدراك أن من مقتضى القيام على الحق، إدراك سنن التسخير، ومعرفة الأسباب التي تنتظم الحياة، وحسن التعامل معها. بل إننا نرى أن التفكير والملاحظة، والاختبار، والتجريب، واكتشاف قوانين التسخير، ومعرفة أسباب التمكين في الأرض، من لوازم العبادة ومقومات العبودية، والارتفاع إلى مستوى الخطاب الإسلامي الذي نلمحه في آيات القرآن الكريم التي تدعو إلى التفكير، وتؤكد على التسخير.

ولا مع الذين يتقنون فن الجلد، والتوهين لهذه الأمة؛ ولا يميزون بين الجلد والنقد البناء، والمناصحة، ويعجزون عن إثارة دوافع الخير، وعوامل النمو فيها، ويعنيهم البحث في أسباب الفرقة أكثر مما يعنيهم التأكيد على عوامل التوحد، لأنهم ومهما كانت دعاواهم عريضة، يبقون العقبة الحضارية التي لا بد من اقتحامها، حسبهم أنهم يعيشون في الخارج الإسلامي بأفكارهم، ومسالكهم ورؤيتهم في النهوض والإصلاح فأنىٰ لهم أن تقبل شهادتهم الحضارية على هذه الأمة! خاصة والمتأمل في تاريخ هذه الأمة الطويل، يرى أن حركات الانبعاث، والتجديد كلها، إنما جاءت من الداخل الإسلامي.

إن تفاؤلنا بقدرة هذه الأمة على النهوض، والبناء الحضاري، وتجاوز حالة الوهن، والهوان، التي هي عليها اليوم، لا يمثل بالنسبة لنا خياراً، بقدر ما هو دين وعقيدة، مستمدة من مواثيق الله، ومبشرات الرسول ﷺ، واستقراء التواصل الحضاري التاريخي لهذه الأمة، واستعصائها على التذويب، والتمويت والإبادة، لأنها تمتلك خميرة البقاء والنهوض، لكن ذلك لم يمنع من وقوعها في الوهن الحضاري، الذي نلمح مظاهره اليوم على أكثر من صعيد.

العجز عن استيعاب الماضي

والادعاء بأن سبب التخلف هو التشبث بالماضي، والافتخار به، يحمل في طياته الكثير من التجني. وفي اعتقادنا أن الأمة المسلمة اليوم، لو استطاعت أن تتمثل شخصيتها الحضارية التاريخية، وتستوعب إنجاز السلف على مختلف الأصعدة، لأدركت رسالتها، واستشعرت مسؤولياتها، وكان حالها على غير ما هي عليه اليوم، لكننا نرى أن انتسابنا إلى الماضي، دعوى بلا دليل، بل نستطيع أن نقول: إن الافتخار بإنجاز الأجداد، والهروب إلى ملاجئهم والاحتماء بها، دون القدرة على تعدية الرؤية وصناعة الحضارة، ضرب من التوبيخ لأنفسنا، ولون من الإصابة التي تعني أول ما تعني، أن هذه الأمة أحالت نفسها على التقاعد، وأصبحت تستهويها قصص الماضي، والذكريات

التي تستردها لتزجية الوقت وشغل أوقات الفراغ، وهي بذلك تقع خارج الزمن بأبعاده الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، وإنها لو أدركت ماضيها، واستوعبته، وكانت ابناً شرعياً له، لصنعت الحاضر، واستشرفت آفاق المستقبل.

من هنا نقول: بأن انتسابنا للماضي مشكوك فيه، إنه لون من الانحياز العاطفي الذي لا يسمن ولا يغني من جوع. فما الفرق بين من يجانب الماضي ومن ينتصر له، إذا كان الإثنان يعيشان خارج الماضي والحاضر والمستقبل؟ ولعل الكثير من معاركنا وصراعاتنا التي نعنون لها بالتراث والمعاصرة، تدور في الحقيقة خارج الماضي، وخارج الحاضر معاً، فلا التراثي استفاد من زاد التراث واستطاع توظيفه بشكل صحيح، ولا المعاصر أدرك مقتضيات العصر وأحسن التعامل معها، إنها معارك (حضارية) بغير خصومة حقيقية.

ولعل من مظاهر الوهن الحضاري أيضاً الذي تعيشه الأمة: هذا الاضطراب في الموازين، والخلط في الأوراق. فمن أبجديات المنطق الأولى، أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وأن من أبرز سمات العصر الذي نعيشه، تقسيم العمل والتخصص، بل التخصص الدقيق في فروع المعرفة الواحدة، ليكون بعد ذلك الإنجاز والإتقان، ومن ثم الوصول إلى فجائيات الإبداع. أما في أمة الوهن الحضاري، فلا يزال الرجل الملحمة الذي يدعي أنه يفهم بكل شيء هو الشخص المميز. ولا نخشى أن نقول هنا: بأن مثل هذا الادعاء في هذا العصر يعني أن صاحبه لا يفهم في شيء، فكثير من المشتغلين بالقضية العلمية التجريبية يتقحمون ساحة التخصص الشرعي الدقيق، التي لا يبلغها إلا من أفنى عمره في بحثها. وعلى الجانب الآخر نرى بعض المشتغلين بالأمور الشرعية والفقهية يصرون على اقتحام ساحات العلوم التجريبية الدقيقة، التي يقتضي إدراك بعضها، عمر فرد وعمل أفراد، ظناً منهم أنهم بذلك يحسنون أداء رسالتهم، أو الارتقاء بوسائل دعوتهم، وتحضير الأمة لممارسة دورها الحضاري المفقود. والحقيقة أن هذا الخلط، لون من الثقافة المغشوشة، والعجز عن تجاوز النزعة الفردية إلى روح الفريق والجماعة والعمل المؤسسي، والإنجاز المشترك،

لكل في ميدانه، وبذلك لا تقتصر الإصابة الحضارية على مجال دون سواه، كما أن الارتقاء الحضاري، لا يأتي إلا متكاملاً في الاجتهاد الشرعي والإنجاز العلمي على حد سواء.

غياب المثقفين

وقد يكون من مظاهر الوهن الحضاري، على مستوى الإبداع العلمي والتقني: انعدام دور المثقفين والمفكرين والأدباء، في تصميم الذهنية ورعاية القابلية، وتحضير المناخ، وتشكيل العقلية القادرة على حسن التفكير والارتقاء بالتخصص، واكتشاف قوانين التسخير، والتعرف على الأسباب الموصلة إلى التمكين في الأرض وبناء الحضارة. ونستطيع أن نقول: بأننا نعاني من غياب كامل لما يمكن أن نسميه الأدب العلمي أو الثقافة العلمية، أو الثقافة التقنية، وتكاد تكون المكتبة الإسلامية اليوم، شبه خالية من الدراسات العلمية المتخصصة التي تغري بالبحوث وتسهم بعملية النهوض الحضاري وتشكل دليلاً لها، وقد أصبحت هذه الدراسات اليوم لازمة، بعد أن تجاوزنا إلى حد ما مرحلة مواجهة التبعية وضرورة الفكر التعبوي الذي مرت بها أدبيات الحركة الإسلامية الحديثة.

خطأ التقدير

ومن مظاهر الوهن الحضاري: ما نشاهده اليوم عند الذين يحاولون تحديث مجتمعاتهم، والإفادة من تجارب الأمم الأخرى، من التوهم بأن الحضارة إنما تكون بتكديس المنتجات؛ وكيف انقلبت النتائج عندهم مقدمات، وصارت المقدمات نتائج، فلم يدركوا أن الحضارة هي التي تصنع المنتجات، وليست المنتجات هي التي تصنع حضارة، وأن الإكثار من استيراد المنتجات الحضارية، والعبّ والاستهلاك منها بدون ضوابط، يساهم بتكريس الوهن، ويقتل الفاعلية ويؤدي إلى الركود والاستنقاع الحضاري. فكثير من المنتجات الحضارية في العالم

الآخر، إنما اقتضتها الحاجة والضرورة، وانعدام اليد العاملة، وأهمية اختزال الوقت والجهد، وتوفيرهما ووضعهما في آفاق أخرى، أكثر جدوى في نظرهم؛ بينما نجد تلك المنتجات تزيد عند أمم الوهن الحضاري من مساحة وقت الفراغ، وتفتح على الإنسان سبل غواية الشيطان، وتلحق بالفرد العطالة التي تأتي بالطاقات الفائضة الكثيرة، فيكون وقته عبئاً عليه، يورثه الكآبة، والملل، والضياع، والعبث، وما إلى ذلك بحيث نعيش أمراض الحضارة، مضافة إلى أمراضنا، في الوقت الذي لا يمكننا التحقق بمنجزاتها.

وأكبر مثال على ذلك، ما نراه اليوم في بعض بلاد المسلمين، التي استطاعت من خلال إمكاناتها، إحضار منتجات الحضارة كلها، ومع ذلك لم يغن الاستيراد عن إنسانها شيئاً، بل لعل هذه المنتجات دفعته إلى لون من العطالة، والاستزادة من الاستهلاك.

ولئن أمكننا استيراد الآلات، والمصانع، والأدوات، لكن لا يمكننا أبداً استيراد البشر. من هنا نرى أنه لا بد من التفكير السليم في حل هذه المعادلة.

إن عملية الاستيراد للآلة، والفني، والعامل، سوف يُبقي إنساننا في موقعه، مهما كان التظاهر بغير ذلك. وقد لا نستغرب كثيراً عندما نرى الإنسان في عالمنا الإسلامي اليوم يجوب محلات بيع الساعات المتعددة، ويدفع الأثمان الباهظة للحصول على ساعة منضبطة، ودقيقة جداً، وبعد ذلك نجد وقته كله يمضغه الضياع، فلا قيمة له، ولا إنجاز فيه، إنه اكتفى بالساعة الضابطة، عن إدراك قيمة الوقت المنتج، ونسي أنه وضعها في اليد العاطلة! وقد يكون هذا وأمثاله، من المناظر المألوفة كثيراً في حياتنا. إن السبب كله يكمن في أننا نواجه مشاكلنا بمنطق الأشياء، لا بمنطق الأفكار، ونظن أنها تحل بالاستزادة منها، لذلك نبقى عاجزين عن التصرف في الإمكانات التي نمتلكها، وعن التبصر بها.

يضاف إلى ذلك أن لكل أمة معادلتها الاجتماعية، وعمرها الحضاري، وأولوياتها المطلوبة، الأمر الذي لا بد أن يؤخذ بالحسبان أثناء عملية الاستيراد لمنتجات الحضارة. ونحن في هذا لا ندعو إلى إلغاء الإفادة من المنتجات

الحضارية للأمم الأخرى، لأن ذلك أقرب إلى الاستحالة، وإنما ندعو إلى ترشيد الاستيراد، وتجسير العلاقة بين منتجات الحضارة، ومعادلة الأمة الاجتماعية، ذلك أن مخاطر المنتجات في عالم الاستهلاك، تختلف عن مخاطرها في عالم الإنتاج.

ومن مظاهر الوهن الحضاري، الذي تعاني منه الأمة المسلمة: غياب الحس الديني، أي غياب فكرة الثواب والعقاب، عن أجواء البحث العلمي، حتى وصل الأمر ببعض العقول الكليلة من المسلمين إلى اعتبار هذه البحوث والتخصصات، من علوم الكفار التي تصرف الإنسان عن التعبد إلى الله بطلب العلم الشرعي. لقد سيطر هذا المناخ الثقافي المغشوش على العقل الإسلامي ردحاً من الزمن، حتى فاتنا الركب، ولا تزال رواسب هذا المناخ حاضرة، في نفوس الكثير منا حتى اليوم، على الرغم من المعاناة الشديدة، والمحنة الحضارية التي نعيشها بسبب ذلك. وليس غريباً أن نرى كثيراً ممن اختاروا طريق العلوم التجريبية من المتدينين أو من الذين استدركوا أمر دينهم بعد الولوج في التخصص، يشعرون بعقدة الذنب الداخلي بسبب اختيارهم، لتوهمهم أن هذا اللون من الاختصاص، لا يقع في دائرة العبادة والفرضية، أو على الأقل هو في نظرهم خارج منطقة الكسب الديني، لذلك نجد بعضهم يتحول عن ممارسة تخصصه، أو ينقطع عنه، ويخلي مكانه للعمل في مجال الدعوة إلى الله، وكأن الكسب العلمي، الذي يؤدي إلى تمكين الأمة، والوصول بها إلى مرحلة الشهادة على الناس وقيادتهم وفق منهج الله، ليس من الدعوة!!

ولعل الأغرب من ذلك، أن يعتقد بعضنا، بأن الله جعل الكفار في خدمتنا، لذلك فهم يتولون الصناعة لاستهلاكنا! أما نحن فنتفرغ للعلوم الشرعية، وكأن معرفة الحرفة والصنعة والإنتاج، ليس من العلوم الإسلامية، والتكاليف الشرعية! وما من الأنبياء نبي إلا كانت له حرفة، وهم في موقع الأسوة والقدوة - ولا ندري كيف يفهمون قوله تعالى في بيان نعمه على سيدنا داود: **﴿وألنا له الحديد﴾**، **﴿أن اعمل سابغاتٍ﴾**، **﴿وقدر في السرد﴾**، **﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم﴾**. وكيف يقرأون قصة ذي القرنين في القرآن

الذي مكن الله له في الأرض باتباعه للأسباب: ﴿آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطراً﴾ (الكهف: ٩٦).

الوهن.. إصابة شاملة

ومن مظاهر الوهن الحضاري أيضاً: أن الإصابة لم تقتصر على العلوم التجريبية كما يتوهم بعضهم، وإنما نعتقد أن الإصابة في العلوم التجريبية كانت ثمرة للإصابة في العلوم الشرعية نفسها، التي انتهت إلى لون من التقليد والمحاكاة والشرح تارة والاختصار أخرى، مما عزل هذه العلوم عن حياة الناس، وجعل منها تجريدات ذهنية بعيدة عن الواقع، وأفقدها الكثير من أبعادها الرحبة التي لو وجدت، فلا بد أن تثمر في مجال العلوم الأخرى، كما كان الحال في فترات التألق الحضاري والثقافي الإسلامي، حيث جاء الإبداع في مختلف المجالات، كما أن التخلف اليوم يعم مختلف المجالات.

ولم يكن نصيب العلوم الاجتماعية بأحسن حالاً من العلوم التجريبية وهي ميدان هام وهام جداً في عملية الانبعاث الحضاري، فعلوم التاريخ والاجتماع والتربية والنفس والسياسة إلخ، هي من لوازم عملية الدعوة والبلاغ المبين وإعادة صياغة الإنسان وتشكيله، وإلا فكيف ندعو إلى الله ونرقى بالناس ونحن نعيش في عالم نجهل إنسانه ولا نمتلك الوسائل المدروسة لخطابه، والمعرفة الدقيقة لتاريخه ومعتقداته ولا ندرك خصائصه وكينونته البشرية؟! وإذا كان محل التكنولوجيا التي نتكلم عن ضرورة استنباتها، أو استيعابها، والإبداع فيها، هو وسائل الإنسان، فإن محل العلوم الاجتماعية هو الإنسان نفسه، الذي لا بد من إعادة بنائه وتشكيله أولاً، حيث لا فائدة لوجود العربة بدون الحصان. وإذا وجد الإنسان السوي، وجدت الحضارة. فالإنسان لا يُستورد. وما الفائدة إذا استوردنا أشياء الإنسان ووسائله، وخسرنا الإنسان نفسه، لذلك نرى أنه لا بد من إعادة النسغ الإسلامي للعلوم الاجتماعية، ووصل ما انقطع وتوقف،

واستشعار أهمية ذلك ودوره بالقدر نفسه الذي نبحث فيه قضية العلوم التقنية أو يزيد.

وقد تكون المشكلة أن إنسان التخلف لا يبصر إلا أشياء الحضارة، ويصعب عليه إبصار أفكارها.

ونعتقد أن تخلفنا في العلوم الإجتماعية اليوم لا يقل عن تخلفنا في العلوم التقنية، إن لم يكن أخطر، لذلك نرىٰ أنه لا بد أن نعود لاستئناف البحث في العلوم الاجتماعية برؤية إسلامية، أو أن نعيد العلوم الاجتماعية إلى إطارها الإسلامي، أي لا بد أن تمتد المدرسة الخلدونية وتستمر، وبذلك وحده نكون قادرين على إدراك قوانين التسخير، وميكانيكية عملها، والتفسير الحضاري لها، وخطورة أهداف ومنطلقات وحكمة تلك العلوم، ودورها الهام في تشكيل ثقافة الإنسان، وتأهيله للنهوض الحضاري من خلال رؤية إسلامية.

قضية لا بد من حسمها

ومن مظاهر الوهن الحضاري: الخلط العجيب بين المبادىء والقيم الثابتة التي وردت في الكتاب والسنة وبين البرامج والأوعية الفكرية التي تعني الاجتهاد والنظر البشري في إنزال تلك المبادىء على حياة الناس بما يتوافق مع ظروف كل عصر وبيئة والظن بأن التأثم هو في الخروج على برامج واجتهادات السابقين لما لاءم عصرهم.

إن هذا الخلط العجيب أدى إلى الانغلاق والركود، ووضع حاجزاً نفسياً أمام العقل المسلم، أقعده عن الإبداع والاجتهاد، لما يوافق عصره، كما حال بينه وبين الإفادة من تجارب الآخرين، في مجال النظم والبرامج. ونعتقد أن الإسلام أرسى القيم والمبادىء والموجهات الأساسية، التي لا بد أن تضبط السير، وتحذر من الانحراف والانزلاق. أما إبداع النظم والبرامج، فهو من اختصاص العقل الإنساني، ونعتقد أن من أهم عوامل التخلف، إن لم يكن أهمها، هو هذا الحجر وتلك المحاصرة التي أوقعناها على أنفسنا فحالت بيننا وبين

الكسب والتصرف والحركة بما يلائم عصرنا.

ونحب أن نؤكد أننا باستعراضنا لبعض مظاهر الوهن الحضاري، الذي تعيشه أمتنا، إنما أردنا لفت النظر إلى بعض جوانب المحنة التي تعاني منها في الداخل الإسلامي، لأننا نعتقد أن الحس بالمعاناة هو سبب للتأمل في الدواء، والوقوف على عتبة النهوض وأن تحسيس الأمة بالأزمة هو إدخال لها في مرحلة القلق السوي على مصيرها.

فالصعوبات التي تواجه الأمة هي في الحقيقة مبشرات، والحس بالصعوبة واستشعار أبعادها مؤشر على الدخول في همّ الكفاح، والمواجهة الحضارية، واكتشاف مواطن الخلل، لأن الصعوبات والمحن، دليل الخلل في البناء الاجتماعي، ومن شروط الاستجابة التحدي. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح﴾.

[رجب ١٤٠٩هـ - شباط (فبراير) ١٩٨٩]

قيادة البَشريّة وَالشهَادة عَليهَا .. تكليف وَتشريف

لعل الملمح الأساسي الذي يحتل الموقع المتقدم، والمتحكم في الوقت نفسه في العلاقات الدولية اليوم، ويشكل السلاح الأكثر فاعلية على ساحة البشرية هو سلاح الغذاء والرعب الذي تثيره الدول المنتجة والمصدِّرة للقمح والمواد الغذائية الأخرىٰ بشكل عام في نفوس الدول الفقيرة، وتجرها بسبب ذلك إلى سياساتها وعقائدها من أفواهها وبطونها وشهواتها، وتؤد بها اقتصاديًّا بين الحين والآخر لتزيد من تبعيتها وعمالتها، وتدفع من كرامتها ثمناً لتحقيق ما يسمى «الأمن الغذائي» ولا نزال نذكر سلاح القمح الفعَّال الذي استخدمته الولايات المتحدة ـ ولا تزال ـ ضد بعض بلدان العالم في السبعينيات، وجعلته ثمناً لهجرة اليهود السوفييت إلى فلسطين ليساهموا بالاستعمار الاستيطاني.. وكيف أن تقديم المساعدات الغذائية والعسكرية إلى الكثير من بلدان العالم الإسلامي مشروط ومرتبط بانتهاج السياسة التي ترسمها الولايات المتحدة.. وكيف أن التهديد بالجوع اليوم يفوق تهديدات السلاح.. وكيف يتم إتلاف جبال من الزبد والقمح في الدول المتخمة والغنية ليستمر الحفاظ على السعر والتحكم بعالم الفقراء... ناهيك عن التأديب الاقتصادي ـ بشكل عام ـ الذي لا يقتصر على منع تصدير الغذاء إلى عالم الفقراء، وإنما يتجاوز ذلك إلى التحكم بإنتاج دوله وفي مقدمتهم دول العالم الإسلامي النفطية وغير النفطية، والتحكم بأسعاره وفقاً لمصالح الدول الكبرى...

* * *

تشرف الأمم بشرف رسالتها، وتسمو بسموّ أهدافها وقدرتها على العطاء العالمي، وإنقاذ البشري من معاناتها، وتخليصها من شقوتها، وإلحاق الرحمة بها، ولا بد للأمة التي نيطت بها قيادة الناس والشهادة عليهم ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُم أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة: ١٤٣)، وورثت النبوة، وأخذت على عاتقها مسؤولية البلاغ المبين، وجُعِلت أوعية النقل العلمي والثقافي لميراث النبوة ورسالتها الخاتمة الخالدة، من أن تُربَى تربية خاصة تؤهلها للقيادة والشهادة، وأن تتمتع بخصائص وصفات تجعلها متميزة بسلوكها وعقيدتها إلى درجة تثير الاقتداء في النفوس، وتغري بالتزام الصراط المستقيم، وأن تتمتع بوضوح الرؤية، وسلامة الوسيلة، وإنسانية الهدف، وتمتلك المقياس والميزان الدقيق الذي يمكّنها من الشهادة للناس وعليهم، والقدرة على تحديد الحق والانحياز إليه ومناصرته، وتعرية الباطل وفضحه ومواجهته، لأنها بعقيدتها وعبادتها «الأمة المعيار».

ولا شك أنَّ هذه الخصائص والصفات التي تؤهل للقيادة والشهادة ليست منحة تتحصل من فراغ وإنما هي مكابدة واكتساب، جاء ثمرة أعباء، وتكاليف، وعبادات، وتمرس على الظروف الصعبة، ومجاهدة واحتمال وتواصٍ بالحق وتواصٍ بالصبر، تؤدي في المحصلة النهائية إلى تربية الإرادة على الالتزام، وتنمية القدرة على الاستمرار... ولعلَّ في بناء الإسلام ـ والرسول ﷺ يقول: «بُني الإسلام على خمس: شهادة ألاَّ إله إلاَّ الله وأنَّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً» ـ الذي يبتدىء بتصويب الإنسان من الداخل، وتصحيح الوجهة، وإخلاص النية، وتحديد جهة التلقي والولاء، وتحقيق العبودية لله عز وجل: بشهادة ألاَّ إله إلاَّ الله وأنَّ محمداً رسول الله؛ ومن ثم تنمية واستكمال الخصائص والصفات المؤهلة للقيادة والشهادة عن طريق العبادة وعمادها الصلاة، الحارس اليومي الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر؛ والزكاة التي تضمن الوقاية من الشحّ ونوازع الأثرة في النفس، وتدرب على الخير؛ وصوم رمضان، حيث استشعار البشرية والحاجة، وتحقيق العبودية لله تعالى، والإحساس

بالآخرين، والارتفاع عن شهوتي البطن والفرج، اللتين أذلتا العالم ولا تزالان؛ وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً...

ذلك أن لكل عبادة دورها وأداءها، بما لا تغني في ذلك عبادة عن عبادة أخرى؛ وأن البناء الإسلامي لأمة القيادة والشهادة لا بد من أن تتوفر له هذه العبادات جميعاً: كما توقفنا ـ ونحن على أبواب شهر القرآن عند مجموعة من المعالم الرئيسة التي حملتها إلينا فريضة الصيام، والمعاني الكبيرة التي كان شهر الصيام وعاءً لها، وفي مقدمتها: نزول القرآن الذي جاء هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان، وكيف أنه كان ولا يزال ملاذ هذه الأمة، وحصنها، ومناط عزتها وقوتها، وسلاح جهادها ومصدر انتصارها ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾ (الفرقان: ٥٢) ولأمر يريده الله تعالى جاءت الانتصارات الكبيرة التي شكلت منعطفات أساسية في مسيرة الأمة صوب الخير كلها في رمضان، سواء في حاضر هذه الأمة أو ماضيها...

وسوف تكون لنا ـ ونحن على مطالع هذا الشهر الكريم ـ محاولة ـ نرجو أن نوفق لها ـ لرؤية بعض الأبعاد التي يمنحنا إيَّاها شهر الصيام، والاهتداء إلى شيء من البينات، التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدى وَالْفُرْقانِ﴾ (البقرة: ١٨٥) من خلال معاناتنا المعاصرة التي تنوء بمجموعة من الإصابات بسبب من تفريغ القيم من مضمونها، وتعطيل أثر العبادة في النفس والسلوك، وانقلابها في حياة كثير إلى عادة تحكمها الآلية والتكرار، وتغيب عنها الدروس والحكم، وتتعطل ملكة الفرقان والاعتبار... والأمر الذي نعرض له هنا هو ملامح على مستوى الفرد والجماعة والأمة أوحى بها شهر الصيام الكريم.

السقوط أمام الأزمات

ولعلَّ الملمح الأساسي الذي يحتل الموقع المتقدم، والمتحكم في الوقت نفسه في العلاقات الدولية اليوم، ويشكل السلاح الأكثر فاعلية على ساحة

البشرية، هو سلاح الغذاء، والرعب الذي تثيره الدول المنتجة والمصدِّرة للقمح والمواد الغذائية الأخرى بشكل عام في نفوس الدول الفقيرة، وتجرها بسبب ذلك إلى سياساتها وعقائدها من أفواهها وبطونها وشهواتها، وتـؤدبها اقتصاديًا بين الحين والآخر لتزيد من تبعيتها وعمالتها، وتدفع من كرامتها ثمناً لتحقيق ما يسمى «الأمن الغذائي». ولا نزال نذكر سلاح القمح الفعَّال الذي استخدمته الولايات المتحدة ـ ولا تزال ـ ضد بعض بلدان العالم في السبعينيات، وجعلته ثمناً لهجرة اليهود السوفييت إلى فلسطين، ليساهموا بالاستعمار الاستيطاني، وكيف أن تقديم المساعدات الغذائية والعسكرية إلى الكثير من بلدان العالم الإسلامي مشروط ومرتبط بانتهاج السياسة التي ترسمها الولايات المتحدة، وكيف أن التهديد بالجوع اليوم يفوق تهديدات السلاح، وكيف يتم إتلاف جبال من الزبد والقمح في الدول المتخمة والغنية، ليستمر الحفاظ على السعر والتحكم بعالم الفقراء. . . ناهيك عن التأديب الاقتصادي ـ بشكل عام ـ الذي لا يقتصر على منع تصدير الغذاء إلى عالم الفقراء، وإنما يتجاوز ذلك إلى التحكم بإنتاج دوله وفي مقدمتهم دول العالم الإسلامي النفطية وغير النفطية، والتحكم بأسعاره وفقاً لمصالح الدول الكبرى. . .

ولا شك أن لقمة العيش سلاح فعَّال

والأمة التي تعجز عن إنتاج طعامها وتحقيق اكتفائها ذاتيًا تـظل مفتقرة لأبسط مقومات الاستقلال والحياة الحرة؛ ولقد واجه الإسلام المشكلة من أوّل الطريق، وأوجد لها من الأسس النفسية ـ الأمن النفسي ـ والتشريعات العملية، والتربية الجهادية على الظروف الصعبة، ما يحول دون الهشاشة التي يمكن أن تُسقط المجتمعات عند الصدمة الأولى، ذلك أن الحياة عسر ويسر، وسنوات عجاف وسنوات سمان، وسنابل خضر وأخر يابسات، فعلى مستوى كفالة الرزق وهب الإسلام للإنسان الأمن النفسي، حيث ضمن الله تعالى له الرزق، وحدّد له الأجل بشكل محسوم مبتوت فيه، فلا مجال لمناقشته، وهذا لا يعني، ولا يُفهم منه بحالٍ من الأحوال، ضروب التواكل والتفسيرات الذاتية للآيات التي سادت عالم المسلمين في عصور الانحطاط والتقهقر، وإنما السبيل إلى الفهم

والتفسير السليم هو حياة المجتمع الأول المملوءة بالفاعلية.

والحقيقة أن التربية النفسية والتشريع الملزم انصبا على وسائل الكسب ووسائل الإنفاق، وتحديد المشروع منها وغير المشروع، أي: على الوسائل؛ وسلوك السنن التي يتحصل عندها الرزق، وعوامل البركة، ومسببات الضنك والقحط، وأسباب الابتلاء بالجوع والخوف والنقص في الثمرات...

والأمر الذي لا يحتاج إلى جدل أن عبادة الصوم تأتي في مقدمة التشريعات والعبادات التي تواجه عبودية الإنسان لشهوة البطن، وتمرسه على الظروف الصعبة، لتلغي الهشاشة والرخاوة من مجتمع المسلمين وتحول بينهم وبين الانكسار والسقوط عند الصدمة الأولى، وفي مسيرة النبي ﷺ ومجتمع الصحابة رضوان الله عليهم نماذج هادية لمواجهة الشدائد والأزمات المالية والاقتصادية والنفسية، حيث كان شعارهم دائماً: إن مع العسر يسراً...

وكأننا بسلوكنا اليوم ـ البعيد عن تدريبات الإسلام وتشريعاته ـ وسقوطنا أمام الأزمات، نحكم على أنفسنا بأننا لا نمت إلى أمة الشهادة والقيادة بنسب أو انتماء، ونحكم على السيرة النبوية عمليًّا بأنها فترة تاريخية توقفت في حدود زمن معين، لأننا افتقدنا عملياً القدرة على تعدية الرؤية والاعتبار وتحقيق الاقتداء في مختلف الظروف والأحوال وإن رفضنا ذلك نظريًّا، ذلك أن سيرة خاتم النبيين ﷺ خالدة خلود الرسالة، وأن أحداثها ستبقى معالم للاهتداء لمواجهة الحالات المشابهة والمستمرة التي لا تتوقف، ولو توقفت المشابهة وانقطعت المشاركة في العلل لما كان لخلود السيرة أي معنى وأثر في حياة اليوم؛ ولكنًّا حقيقة عجزنا عن تجاوز جدار الزمان والمكان لتحقيق سمة الخلود للرسالة الإسلامية والاهتداء بها بشكل كامل وسليم، وحالنا التي نحن عليها دليل على ذلك.

من هنا يمكننا أن نؤكد ما كنَّا أشرنا إليه سابقاً من أن أسس الحياة وقضاياها الأصلية، وأزماتها البارزة والمتكررة على مدى الحياة الإنسانية لا بد أن تكون أصولها موجودة في مرحلة السيرة، ويبقى المطلوب: تحقيق القدرة على الاقتداء والاهتداء؛ وتعدية الرؤية، واستكناه قوانين الخلود حيث لا تتكرر

المشكلات بذاتها وحجمها وإنما بأساسياتها ومعالمها؛ هذا إلى جانب الاعتبار بأحوال الأمم الماضية والتبصر بعواقبها على مدار تاريخ النبوة ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيهِم وَلِلْكَافِرِينَ أمثَالُهَا﴾ (محمد: ١٠).

الحصانة ضد الترف..

نعود إلى التأكيد بأنَّ الإسلام ضمن لمجتمع المسلمين ـ لو استقاموا على نهجه وهديه من خلال تربيته النفسية وتشريعاته الملزمة، وعبادته المتعددة ـ الأمن النفسي، والأمن الغذائي؛ وحصَّنه ضد السقوط، ودرَّبه على مواجهة الأزمات، ومرَّسه على الظروف القاسية، ودعاه إلى الاخشيشان حتى لا يتحكَّم به الأعداء نتيجة استسلامه للرخاوة والدعة والرفاهية، وجعل ذلك تربية مستمرة لا تقتصر على أيَّام الأزمات، وإنما عبادة مفروضة شهراً من السنة، يتحول على مدار العام ـ صيفه وشتائه وربيعه وخريفه ـ ليكون المسلم قادراً على تحمل كل مناخ، ولا يتأثر لفوت طعام أو فاكهة أو خضروات مرتبطة بفصل معين؛ ذلك أنَّ الإعسار والمواجهات الاقتصادية، وحصار الأعداء لن يتوقف عند حدود زمان أو مكان، ولعلَّ ظروف النشأة الأولى لمجتمع المسلمين ـ وأي نهوض لمجتمع مرهون بتوفر ظروف ميلاده ـ الذي بدأ من الصحراء، وجاءت ولادته من خلال ظروفها القاسية؛ وجاءت حوادث التاريخ الإسلامي وأخبار الفتوح مصداق ذلك كانت مؤشراً وإعداداً للمسلم ليكون قادراً على العيش والمواجهة في كل الظروف: ولنا في مسيرة ذلك المجتمع الأول درس وعبرة. في مراحل الدعوة الأولى حوصر المسلمون في شعب أبي طالب ثلاث سنوات تقريباً حصاراً كاملاً لتحويلهم عن دينهم، وبلغت بهم الشدّة كل مبلغ حتى تقرحت شفاههم من أكل ورق الشجر، وأصابهم ما أصابهم، فتواصوا بالصبر على الحق، وتجاوزوا المشكلة، وانقلبت النقمة نعمة ـ بصبرهم وتحملهم ـ زادت في صلابتهم وصمودهم وعمق إيمانهم؛ وسقط أعداؤهم، وقد سبق هذه المحاصرة الاقتصادية الجماعية محاصرات على المستوى الفردي، وطورد المسلمون في أعمالهم

وأرزاقهم، كما هو واقع اليوم في أكثر من موقع على خارطة العالم الإسلامي، وكان شعار الكافرين وممارساتهم المستمرة ﴿لاَ تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا﴾ لكن مواجهة المؤمنين لذلك تمثلت في أن الرزق بيد الله تعالى، الأمر الذي أكدته نهاية الآية نفسها: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمْوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (المنافقون: ٧).

بهذه التربية حققوا الارتفاع بفوق الخوف الغذائي الذي أذلَّ البشرية، وواجهوا ذلك بالمجتمع الحصين المتكافل الذي كان من أبرز خصائصه: الانصهار في بوتقة الشدائد الواحدة لمواجهة الأزمات، أما مجتمعات الأثرة فلن تستطيع الصمود في وجه الشدائد وإن تظاهرت بمظاهر الإسلام، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الأشعريين إذا أرملوا في الغزوة، أو قلَّ طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسَّويَّة، فهم منّي وأنا منهم» بل لقد حرم بعض الصحابة على نفسه الادخار لغده في أوقات الشدة، واعتبر ذلك من الكَنْز الحرام الذي يُحمى عليه في نار جهنم، فتكوى به الجباه والجنوب إذ احتاج المسلمون إليه، وجاء التكافل وقت الشدة على مستوى التحدي والمحاصرة، يقول أبو سعيد الخدريّ رضي الله عنه فيما يرويه عن رسول الله ﷺ: «من كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له، ومن كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له. . .» ويقول أبو سعيد رضي الله عنه: فذكر رسول الله ﷺ أصنافاً من المال ـ غير الزاد والظهر ـ حتى رأينا أنه لا حقَّ لأحدنا في فضل. . . مجتمع لا حقَّ فيه لأحد في زيادة، يحرّم الادخار عند الحاجة، ويفرض المشاركة الجماعية وقت الشدة، ويتطلب الارتفاع فوق نزعة التملك واستئثارها بالنفس. . . بهذه الخصائص استجاب المجتمع الإسلامي للأزمة، وأحسن مواجهتها حتى حرّم الفرد المسلم على نفسه الادخار لغده وقت الأزمات والشدائد، اعتبر نفسه بذلك معتدياً على حقوق المسلمين الآخرين؛ إنه المجتمع الذي اشترك فيه العشرة ـ من جيش العسرة في الطريق إلى تبوك ـ في امتصاص التمرة الواحدة بعد أن نفد زاده وقلَّ طعامه: المجتمع الذي تخرَّج في مدرسة

رمضان، وأدرك أبعادها كلّها، وأمن الخوف على طعامه بما وعده الله تعالى فأسقط بذلك سلاح عدوه، وحاصر آثاره المدمرة في النفس والمجتمع . . .

مطاردة الشباب المسلم . .

ونحن لا نريد بما أتينا على ذكره من سمات المجتمع المسلم، وخصائصه التي أهَّلَته للقيادة والشهادة على النَّاس التي أوحى بها شهر رمضان أن نزيد أو نستزيد من دفقات الحماس والاندفاع العاطفي، والتوثب الروحي ـ على أهمية ذلك وضرورته كشرط لازم لإذكاء الفاعلية والارتقاء الحضاري ـ فالذي ينقصنا اليوم هو مزيد من التعقل، والتفكر، والروية، والتبصر بعواقب الأمور ومعرفة سنن انقراض الأمم، ووسائل ومقومات نهوضها، واستعادة عافيتها، وإنما الذي أردنا التأكيد عليه أن المجتمع الإسلامي الأول الذي كان لشهر رمضان مدلولاته في حياته، وللقرآن هداه وبيناته وفرقانه في سلوكه، كان مجتمعاً صلباً متماسكاً بفضل رمضان، وكانت حصانته ضد الترف والمترفين، والأثرة والمستأثرين والمستكثرين هي العامل الأقوى في صموده واستمراره، لأنه طارد الترف والمترفين، وحارب أساليبهم، واعتبرهم بذور الفناء والدمار والهلاك للبنيان والعمران، والجسور التي يمر من خلالها الأعداء لإحكام السيطرة على الأمة من خلال خضوعها لشهواتها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتَرَفِيهَا فَفَسَقُوا فيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ (الإسراء: ١٦) ولا تخفى على أحد اليوم آثار الإصابات التي لحقت بمجتمع المسلمين عقوبةً لفسق المترفين وأمراضهم النفسية والعضوية، وكيف عمَّ بسببها البلاء بعد أن كَثُر الخبث . . .

وقد يكون الأمر الأخطر في هذه القضية ـ عموم البلوى ـ تسلل الترف وأدواته، وحالة الرخاوة والدعة والهشاشة إلى شباب الأمة وجماهيرها بشكل عام حيث نرى كيف أسقط أعداء الأمة شبابها في أسر الرفاهية والترف، وأوصلوه إلى المسكرات والمخدرات، وأهدروا طاقاته، وألغوا اهتماماته؛ وعملوا على

إقصائه عن عقيدته وعبادته، وإرعابه ومطاردته تحت اسم التطرف والتعصب، فأخرجوه عن خلقه الإسلامي، إنهم يعلمون ماذا يفعلون، لكن الذي لما يدرك بعد ما يراد له تماماً بإقصائه عن عقيدته وعبادته، وعن حصانته ضد التحكم هو نحن ـ للأسف، ومن هنا يتبين لنا عظم جرائم الذين يحاربون التوجهات الإسلامية في الأمة، ويطاردون الشباب المسلم، درع هذه الأمة وعدّة صمودها. . .

الحصانة ضد الأزمات . .

إن النزوع إلى الترف والرفاهية والكماليات في غيبة من التربية الإسلامية، دفع بالكثيرين من سكان العالم العربي والإسلامي إلى هجر الأرض وترك العمل فيها، والنزوح إلى المدن والعيش على هوامشها، حيث انقلبوا من منتجين إلى مجرد مستهلكين، يستهلكون أنفسهم وطاقاتهم وكراماتهم بعيداً عن مواقعهم الأصلية، وعن مراكز الإنتاج في حقولهم ومزارعهم؛ وقد لا يكون الذنب كله ذنبهم، وإنما ذنب الذين شجعوهم على ترك الإنتاج باسم الانتصار لحقوق العمال والفلاحين ووعدهم بامتلاك وسائل الإنتاج، والنزول إلى هوامش المدينة لتوظيفهم في أغراض سياسية موقوتة، ومدفوعة الأجر؛ دون القدرة على استيعاب مدى التخريب الذي يمكن أن يصيب الأمة في سواعدها واقتصادها على المدى البعيد.

ولو صدقوا في دعواهم لعملوا على إبقاء الفلاح في أرضه وضمنوا له حقوقه وكرامته ليستمر في إنتاجه. إنَّ حالة العجز في مجال الزراعة في العالم العربي ـ نواة العالم الإسلامي ـ تزداد سنويًا، وتتراوح نسبة الاعتماد على الخارج في مجال الغذاء ما بين خمسة وخمسين بالمائة إلى تسعين بالمائة من إجمالي الحاجة، والوطن العربي كلّه تقريباً يستورد القمح بعد أن كان مخزن العالم في الغذاء، فقد بلغت واردات البلاد العربية من القمح عام ١٩٦٠م حوالي ثلاثة ملايين طن تضاعفت إلى أَحَدَ عشر مليوناً عام ١٩٧٦م ثم قفزت إلى حوالي أربعة عشر

مليوناً عام ١٩٧٩م وستصبح تسعة عشر مليون طن عام (٢٠٠٠م) والمساحة الصالحة للزراعة تعادل اثنين وعشرين بالمائة من مساحة العالم العربي بينما الأرض المستثمرة فعلاً لا تزيد على أربع بالمائة في الوقت الذي يستوعب قطاع الزراعة حوالي تسعين بالمائة من الأيدي العاملة، هذا إلى جانب تعدد وتنوع التربة والمناخ والإنتاج الذي يضمن له التكامل والاكتفاء الذاتي، فكيف لا يتحكم الأعداء بلقمة طعامنا ونحن على هذه الحال؟! لقد قال أحد الدبلوماسيين الأمريكيين: إذا كان عند العرب المواد الخام فلدينا الطعام، والمأساة اليوم حتى داخل عالم المسلمين أن يتحكم في طعامهم - إنتاجاً واستيراداً وتصديراً - أعداؤهم، ولقد وصلت هذه السيطرة في بعض بلدان العالم الإسلامي في جنوب شرقي آسيا إلى درجة يمكن معها لأعداء الإسلام المتحكمين بالطعام أن يميتوا المسلمين جوعاً إن أرادوا...

لقد سيق الفلاحون من أراضيهم لأغراض سياسية موقوتة دمرت إنتاج الأمة واقتصادها واستقلالها، ولم تعوضها عن ذلك وفرةُ الشعارات وضجيج الأصوات. كما أنَّ احتقار العامل والفلاح، وإسقاط قيمتهما الاجتماعية كانا سبباً في هربهما من الإنتاج، والرسول ﷺ يقول: «لأن يأخذ أحدكم حبله، فيأتي بحزمة من الحطب، فيبيعها، خير له من أن يسأل النَّاس أعطوه أو منعوه» وأرى أنه لا بد من إدراك الأبعاد الكاملة لسؤال النَّاس، حيث تطور التسوّل والنصب والاستهلاك في بعض بلدان العالم الإسلامي حتى أصبح ثمناً لخدمات لا وجود لها!! ولا شك أنَّ الإسلام اعتبر العمل هو الدعامة الاقتصادية الأولى، وقد يعجب الإنسان في هذا العصر عندما يطلع على المقارنة والمفاضلة التي حاول فقهاؤنا إجراءها بين الأعمال، وأيها أفضل عند الله تعالى: فاختار بعضهم الزراعة، لأنها أكثر جهداً وأعظم توكلاً على الله تعالى: بينما رأى بعضهم التجارة أو الصناعة: لكنهم جميعاً حرموا المسألة، وأن يعيش الإنسان عالة لا يأكل من كسب يده...

والمشكلة في عالم المسلمين اليوم تحوّل مجتمعهم من مجتمع واجبات وأعمال وإنتاج إلى مجتمع حقوق وعطالة واستهلاك، إنها المرحلة الغثائية التي تعني أول

ما تعني حب الدنيا (استهلاك متعها) وكراهية الموت: الأمر الذي يمكّن الأعداء من التسلط باستخدام سلاح الاستهلاك هذا.

وقد يكون من الأمور التي تلفت النظر فعلاً، أنه على الرغم من الارتفاع بمستوى العبادة والاحتساب والانتصار على الشهوات في رمضان، مع ذلك كان وعاء لجلائل الأعمال وعظائم المهام وكبرى الانتصارات، ولم يؤد رمضان إلى العطالة وضعف الإنتاج والتوجه نحو السلبية والتواكل، لذلك كان لا بد للأمة التي كُلِّفت بقيادة البشرية والشهادة عليها أن تُكلَّف بالصيام ليتم الإعداد للمهمة المنوطة بها؛ ومن هنا كان لموقع رمضان من تربيتنا النفسية ما يحقق الحصانة لمجتمعاتنا الإسلامية ضد الأزمات، ويرتفع بها عن الإذلال والخضوع لشهوتي البطن والفرج، ويمنحها القدرة على الإنتاج الذي يعتبر خير عاصم لها من السقوط لنكون شهداء على الناس، فهل نسترد دور رمضان العظيم في حياتنا لنستأنف دورنا في القيادة والشهادة؟!.

[رمضان ١٤٠٦هـ - أيار (مايو) ١٩٨٦م]

حتى لا تعود الشعوبية من جديد

إن القومية ـ أية قومية ـ هي واقع وفطرة، خلق من خلق الله تعالى وآياته. وإنه لا بد لكل قومية من عقيدة تحدد نظرتها إلى الحياة، وتنظم العلاقات بين أفرادها، وتنتظم سلوكهم، وتمنحهم المقياس الذي يعتمدونه ويتعاملون به.. من هنا لم نر تعارضاً بين الإسلام والعروبة، ذلك أن الإسلام، هو العقيدة التي حملها العرب ابتداء وغير العرب إلى العالم، ووسع العرب وغير العرب من الأجناس والعروق البشرية الأخرىٰ، وقد تكون المشكلة اليوم عند الشعوبيين الجدد في توظيف القومية واستغلال شعور العرب القومي للخروج بها عن كونها جنساً وانتساباً ولغة لكتلة بشرية ومنطقة جغرافية، لتصبح فلسفة واتجاهاً عقيدياً، وبذلك يراد لها أن تكون بديلاً عن الإسلام، فلسفة إلحادية تعتبر الإسلام حلقة تاريخية انتهى دورها، بل قد يصل التطرف وتلك الشعوبية والحقد على الإسلام باسم الانتصار للقومية إلى درجة لم يقل بها أعداء الأمة من الكفار والمستعمرين، بأن العصر الذهبي للأمة العربية هو فترة ما قبل الإسلام ـ الجاهلية ـ وإدانة الإسلام لأنه كان السبب في خروج الأمة العربية من جزيرتها، واختلاطها بالأمم الأخرى مما ألحق الأذى بصفاء عرقها ونقاء دمها.

* * *

لعلّنا لا نضيف جديداً إذا قلنا: إنَّ الإسلام دعا إلى العالمية منذ خطواته الأولى على الأرض، وجاء خطابه عالمياً كذلك **﴿يا أيُّهَا النَّاسُ﴾**، **﴿ومَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيرًا﴾** (سبأ: ٢٨) على الرغم من أنَّ مادته

الأولى كانت من العرب، وأن مسؤوليتهم في حمله أكبر ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف: ٤٤)، وأنَّ كتابه نزل بلغتهم: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ٢) وأنَّ الإنذار توجه أول ما توجه إليهم بقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤) ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ القُرىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الأنعام: ٩٢) وأنَّ دولة المدينة ـ ومن ثم دولة الجزيرة بعد الفتح ـ كان معظم عناصرها من العرب، فهم قاعدة الإسلام البشرية، وهم مادته، وبلادهم مهبط وحيه ومنطلقه الأرضي إلى العالم لتكوين الدولة العالمية، ومن نافلة القول: الإشارة إلى أن الإنسان حيثما كان هو محل دعوة الله تعالى، وأن البلاغ المبين ـ للنَّاس كافة ـ هو وسيلة الدعوة المستمرة «ليبلغ الشاهد الغائب، فربّ مُبَلَّغ أوعى من سامع».

عالمية الخطاب والاستجابة

ولقد كانت الاستجابة للدعوة الإسلامية موافقة طبيعتها، فجاءت من أول الطريق ـ وعلى مدى الزمن ـ عالمية: وليس مصادفة ولا عبثاً أن يكون من المستجيبين الأوائل لنداء الحق «بلالٌ الحبشي» رضي الله عنه الذي قدَّم من التضحيات، وتحمل من المحن الشيء الكثير، حيث لا يزال صوته بإعلان التوحيد والاستمساك به يخترق جدار الزمن ليصل صداه ورنينه إلى آذان المسلمين في كل مكان، وليكون أنموذجاً يُقتدى في التحمل والصبر على إيذاء أعداء الله.. وليس مصادفة أيضاً أن يرقى أعلى مكان في مجتمع المسلمين الأول ليؤذن في النَّاس، ويشهر عقيدة التوحيد، على الرغم من طلب المشركين إنزاله والاستهانة به، بقولهم: الغراب الأسود...

ويأتي سلمان رضي الله عنه من فارس، ومن الروم يأتي صهيب رضي الله عنه: ليكونوا جميعاً شواهد من أول الطريق على أن الإسلام للناس جميعاً، وليس لجنس أو عرق أو لون، وأن الحضارة الإسلامية ـ وروحها المساواة ـ كانت وعاءً للأجناس والألوان، ذلك أنَّ الأقوام والأجناس والألوان فوارق قسرية خَلْقِيَّة لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون مجالاً للتمايز والعلو، وإنما هي من خَلْقِ الله عزَّ وجلّ، ومن آياته: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ

﴿وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ (الروم: ٢٢) ﴿يَا أَيُّهاالنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم من ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُم عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣) ﴿لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ﴾ (الحجرات: ١٣).

جاء هذا في الوقت الذي لّما يعرف النَّاس فيه بعد البعد العالمي للثقافة والحضارة والدولة، في مجتمعات تحكمها السدود والحدود والألوان... وجاء نسيج هذه الحضارة متشابكاً، حيث كان لكل عرق ولون وقوم عبر التاريخ إسهاماته وعطاؤه الحضاري على مختلف الأصعدة: على صعيد اللغة والتفسير والحديث والتأليف والحفظ والتدوين والتاريخ السياسي والاجتماعي، بل على مستوى الميراث العلمي والثقافي بشكل عام: وكانت إسهامات غير العرب ـ ولأمر يريده الله تعالى ـ في بعض الأحيان تفوق إسهامات العرب، حتى على مستوى اللغة وعلومها. لذلك كان من التعسف والصعوبة بمكان صبغ هذه الحضارة بأيَّة صبغة غير الصبغة الإسلامية، وشدّها لتصبح عطاء قومية عربية أو فارسية أو هندية أو فرعونية أو فينيقية... ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾ (البقرة: ١٣٨) ومع ذلك فلا بد من الاعتراف هنا بأنه وجدت بعض المحاولات اليائسة على مدار التاريخ الإسلامي للخروج بهذه الحضارة عن مسارها، وحدثت فجوات من الرفض والخروج، والمروق والعقوق، والنزوع إلى العصبية الجاهلية على مستوى العرب وغيرهم من الشعوبيين، إلاَّ أنَّ المشروعية العليا في حياة الأمة كانت ـ ولا تزال ـ للعقيدة وندائها الخالد في كتاب الله تعالى وسنَّة نبيه ﷺ على الرغم من هذه الفتوق والخروق التي لا تزال تُقصد وتُعتمد لتُشكل المدخل الأساسي لمن تخصصوا بالنقاط السود تاريخيًا، ولم يتملك إعجابهم من التاريخ الإسلامي سوى ثورة القرامطة والزنج، ذلك أنَّ الغاية الحقيقية من وراء ذلك كلّه كما تبدو في المحصلة النهائية: إسقاط الحضارة الإسلامية، وإلغاء ميراثها الثقافي، كما دلَّت على ذلك شواهد التَّاريخ وانتماءات دعاتها والقائمين على أمرها.

ومن السنن الاجتماعية: أنَّ الأمم كالأفراد، تمر بحالات ضعف ومرض وركود وتخلف، كما تمر بفترات قوة وعافية ونهوض وعطاء ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠) وتكون فترات التخلف والركود باستمرار

فرصة ليقظة كل الجراثيم والطفيليات المهيَّأة للفتك بالجسم الواهن، ومحاولة القضاء عليه، الأمر الذي يدفع بالأمة من جديد لاستشعار التحدي وتجميع الطاقة والنهوض، لتبدأ على الجانب الآخر فترة الركود والكمون لأعداء الأمة المتربصين بها الدوائر بانتظار الفرص المناسبة، ذلك أن الصراع والمواجهة بين الخير والشر سنَّة هذه الحياة ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الفرقان: ٣١) والخير من لوازم الشر على كل حال، ويمكننا أن نلمح - وإلى حدٍّ بعيد - أنَّ الأصول الكاملة للمواجهات التاريخية بين الإسلام وخصومه قد غُرست في تربة المجتمع الأول، وعرض لها القرآن الكريم - كتاب الله الخالد المجرد عن حدود الزمان والمكان - لتكون رصيدَ المسلم في التجربة والبصارة، ودليله في المواجهة، ولعلَّ أسباب نزول الآيات القرآنية في هذا إنَّما تشكل وسيلة إيضاح ودليل عمل في تكوين الرؤية الإسلامية لحقيقة العداوة التاريخية، وإزالة كل غبش يمكن أن يصيبها، والتحذير من كل تهاون في مواجهتها، يُضاف إلى هذا الطريقة التي قدمتها السيرة النبوية: حيثُ إنها قدمت الأنموذج الميداني للتعامل، ليرث المسلم رصيد التجربة، ويكون على بيِّنة من أمره. ولا غرابة في ذلك، فالمجتمع الأول هو مجتمع القدوة، ومن الطبيعي أن يكون غنيًّا بالدروس الأساسية، ذات العبر الخالدة التي تشكل معالم هَدْي للحياة الإسلامية بشكل عام، وتبصّر بمواقع العداوة ومرتكزات الأعداء، ولا نضيف جديداً أيضاً إذا قررنا أن الدعوة الإسلامية قُرنت منذ اللحظات الأولى بأبجدية خاطئة، بعيدة عن روح الإسلام وطبيعته ووحيه، وقد لا نرى في القراءات المحدثة سوى أصداء وترجيعات لذلك، لكن بلغات معاصرة ومداخل أشد خبثاً ومكراً.

أزمة المثقفين

ولسنا هنا بصدد استيفاء ومناقشة التوهم الذي سيطر على العقول بادىء الأمر، والذي لا يزال يتكرر بصورة أو بأخرى: أن الهدف من الدعوة الإسلامية الوصول إلى الزعامة، أو إشباع غريزة الجنس؛ والنزوع إلى المال أو وسيلة لسيطرة الأغنياء على الفقراء، أو ثورة الفقراء على الأغنياء... وكيف قُدِّمت العروض والإغراءات للحيلولة دون الاستمرار فيها، وكان الترهيب

بعد الترغيب، والمقاطعة بعد المواصلة، والتهم الباطلة بعد الشهادة بالأمانة والعقل الراجح . . . فقد لا يكون ذلك غريباً عن الطروحات الفكرية الموجودة على الساحة اليوم، إنها الأوهام ذاتها تقريباً، بدأت مع الخطوات الإسلامية الأولى، حيث كانت باكورة التهم من المجتمع الجاهلي ـ وقد بدأ الإسلام غريباً محارباً ـ أن الذين استجابوا للدعوة هم الرعاع والأراذل وأصحاب الأزمات من غير الأسوياء ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (هود: ٢٧) وأنَّ تركيب التجمع الإسلامي الذي ضمَّ أشتات الناس وألوانهم وأجناسهم كان سبباً في أنفة أصحاب الجاه والمكانة الاجتماعية: حتى وصل الأمر بهم إلى درجة الطلب إلى رسول الله ﷺ في مرحلة من مراحل الدعوة طرد الفقراء والملونين من مجلسه كشرط لا بد منه حتى يأتوه ويستمعوا إليه، ولعلَّ الرسول ﷺ اجتهد في أن يفرد للكبراء مجلساً لإيصال الإسلام إليهم، كما اجتهد في حادثة عبدالله ابن أم مكتوم رضي الله عنه عندما أعرض عنه ليستقبل الكبراء أملاً منه في أن يتحقق بإيمانهم إيمان قبائلهم وقومهم، فجاء النص القرآني ليصوّب الأمر، ويصحح القراءة، ويحسم الموضوع، قال تعالى:

﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم من شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مَن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُون مِنَ الظَّالِمِين. وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهؤُلاَءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ. وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام: ٥٢ ـ ٥٤) فالمقياس الحاسم كان منذ اللحظة الأولى في القبول والردّ: الإيمان والكفر، وليس الغنى والفقر، والبياض والسواد، والعروبة والأعجميّة.

من هنا يمكننا أن نقول بأنَّ أيَّة قراءة تحيد عن التزام هذا المقياس، وتحاول أن تجعل الإسلام دعوة الفقراء ضد الأغنياء، أو دعوة الأغنياء ضد الفقراء سببها سوء النية، أو أزمة الفهم لدى بعض مثقفي اليوم (!!)

ولا ننكر هنا، والمجتمع الإسلامي في طور البناء والاكتمال، أن يقع مثل

هذا التمايز فيه، والناس ينزعون في فترات الضعف إلى العدول عن المقياس الإسلامي لقرب عهدهم بالجاهلية، لكن يبقى التصويب وردّ الأمور إلى نصابها الصحيح هو الأمر الحاكم، والحكم الحاسم: فعندما تلاحى بلال مع أبي ذرَ رضي الله عنهما، وقال أبو ذرٍ: مه يا بن السوداء... وعيَّره بلون بشرته، فما كان من الرسول ﷺ إلاَّ أن قال لأبي ذرَ:

«إنَّك امرؤ فيك جاهليَّة: لا فضل لابن السوداء على ابن البيضاء إلاَّ بالتَّقوى...» ذلك أنَّ التمييز الذي مارسه أبو ذرَ رضي الله عنه كان من رواسب الجاهلية التي يجب أن تنقطع صورتها بالإسلام...

وحادثة أخرى قد يكون من الفائدة الإتيان على ذكرها: لأنها تلقي ضوءاً على الكثير مما نعاني من دعاوىٰ: ففي غزوة المريسيع تزاحم غلام لعمر بن الخطاب رضي الله عنه مع رجل من الأنصار على الوصول إلى الماء، واختلفا، فما كان إلاَّ أن دعا الأنصاريُّ قومه الأنصار، وغلامُ عمر المهاجرين، وكادت أن تقع فتنة عصبية لولا أن تداركها الرسول ﷺ، وقال:

«أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟! دعوها فإنها منتنة» والمعروف أنَّ يهود كانوا دائماً يذكِّرون العرب بأيامهم الغابرة، ويثيرون جاهلياتهم كحالنا اليوم!!

لكن يبقى الفرق بيننا وبينهم أن استجابتهم للعقيدة كانت تعصمهم من الاستمرار بالجري وراء نزواتهم، فإذا ذُكِّروا ذَكَروا.

المعارك الخاطئة

وباعتقادنا أن التزوع القومي: بمعنى الانتساب إلى قوم، أمر فطري طبيعي واقعي لا مجال لإنكاره، فالله تعالى قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكرٌ لَكَ وَلِقَومِكَ﴾ لأنَّ الأقوام من خلق الله عزّ وجلّ، ومن آياته اختلاف الألسن والألوان والأقوام، فالأقوام هم المواد الخام الذين تُصنع بواسطتهم الحضارات، وتعمر بهم الأرض إذا اهتدوا إلى عقيدة تنظم لهم التعارف والتعاون، ونبذوا التعصب والتمايز بسبب الجنس أو العرق: وكأنَّ تنوع العروق والأقوام جاء فرصة

للتكامل والتعاون وليس سبيلاً للتناحر والمواجهة والتعصب، وتكاد تتلخص نظرة الإسلام إلى قضية القومية ـ التي يحاول بعض الناس إحياءها وإعادة الحياة إليها اليوم ـ بأنها أمر واقع تنحدر منه الأمم والشعوب والقبائل، لكن ميزان الكرامة في الإسلام ليس مجرد الانتساب إلى العروق والأجناس وإنما هو التقوى والعمل الصالح: وتشرف الأقوام والشعوب والقبائل بمقدار ما تقدم من خير وعطاء. .

ولا بد أن نعترف هنا بأنَّ الصراع بين العروبة والإسلام الذي افتعل لأكثر من نصف قرن، كان قتالاً في غير معركة، وتحويلاً للأمة عن أعدائها الحقيقيين، ذلك أنَّ العروبة جنس بشري، والإسلام عقيدة ونظام حياة، والسؤال الذي يحاول بعض الناس إعادة طرحه على ساحة الانتماء اليوم، في عقد مفاضلة بين العزوبة والإسلام هو مغلوط أساساً، بدليل أن معظم سكان العالم العربي هم عرب ومسلمون في الوقت نفسه دون أن يشعروا بأي تناقض، كما أن كلمة العرب مرادفة لكلمة الإسلام في معظم البلاد الإسلامية، وحتى عند أهل الثقافات الأخرى: في نظرتهم إلينا، وتعاملهم معنا، ذلك أنَّ العروبة جنس والإسلام دين، والمفاضلة إنما تكون بين جنس وجنس، وبين دين ودين، وإن كنَّا لا نرى أي معنى للمفاضلة في إطار الأمور القسرية ـ الأجناس البشرية ـ لأنَّ ذلك يدعو إلى التمييز والتعصب الذي يأباه العقلاء، ويناقض مسألة العدل ابتداءً، وإنما تَكون المفاضلة فيما يقع في دائرة كسب الإنسان واختياره. . .

والذي دعانا إلى طرح مثل هذا الأمر من جديد هو محاولة بعضهم إحياء الشعوبية من جديد واسترداد المعارك الموهومة وبعث النزعات الإقليمية العنصرية من مرقدها بعد أن فقدت قيمتها التاريخية ـ إن كان لها قيمة أصلاً ـ وكُشفت أستارها، وظهرت عوراتها، ويكفي ما نعيشه اليوم من حصيلتها ومردودها من التمزق السياسي، والصراع الفكري، والتحكم الطائفي الذي تقنَّع بالقومية، والإمعان في تكريس الإقليميات على أكثر من موقع من خارطة العالم الإسلامي الأمر الذي لم يدع استزادة لمستزيد. . .

نعود إلى القول بأنَّ القومية ـ أي قومية ـ هي واقع وفطرة، خلق من خلق الله تعالى وآياته، وإنه لا بد لكل قومية من عقيدة تحدد نظرتها إلى الحياة، وتنظم العلاقات بين أفرادها، وتنتظم سلوكهم، وتمنحهم المقياس الذي يعتمدونه ويتعاملون به.

من هنا لم نر تعارضاً بين الإسلام والعروبة، ذلك أن الإسلام هو العقيدة التي حملها العرب ابتداءً وغير العرب إلى العالم، ووسع العرب وغيرهم من الأجناس والعروق البشرية الأخرى: وقد تكون المشكلة اليوم عند الشعوبيين الجدد في توظيف القومية واستغلال شعور العرب القومي للخروج بها عن كونها جنساً وانتساباً ولغةً لكتلة بشرية ومنطقة جغرافية لتصبح فلسفة واتجاهاً عقيدياً، وبذلك يراد لها أن تكون بديلاً عن الإسلام: فلسفة إلحادية تعتبر الإسلام حلقة تاريخية انتهى دورها، بل قد يصل هذا التطرف وتلك الشعوبية والحقد على الإسلام باسم الانتصار للقومية إلى درجة لم يقل بها أعداء الأمة من الكفار والمستعمرين، بأنَّ العصر الذهبي للأمة العربية هو فترة ما قبل الإسلام ـ الجاهلية ـ وإدانة الإسلام لأنَّه كان السبب في خروج الأمة العربية من جزيرتها واختلاطها بالأمم الأخرى مما ألحق الأذى بصفاء عرقها ونقاء دمها، أو أن الدين هو علاقة بين الإنسان وربه سبحانه حسب الطريقة التي يختارها الإنسان لنفسه(!!) أو اعتبار الإسلام تراثاً ـ بما في ذلك الكتاب والسنة ـ يخضع للمعايير والمناهج نفسها التي استعيرت من الثقافة الغربية، والتي يُعرض عليها التراث في عملية فحص واختبار، أو هو طور طبيعي مرحلي من تطور الأمة العربية، وذلك بالطبع إلغاء ضمني للوحي، وترديد لقولة اليهود والنصارى الذين أنكروا الدين الجديد واعتبروه وليد العبقرية العربية، وعلى أحسن الأحوال ثمرة لعبقرية محمد ﷺ الذي أنتجته الأمة العربية (!!).

تسلل أعداء الإسلام من خلال الطرح القومي

ولسوء حظ دعاة القومية الذين اعتمدوها اتجاهاً فلسفياً عقيديًّا في مواجهة الإسلام أن روّادها الأوائل كانوا جميعهم من غير المسلمين، ومن المتأثرين بالثقافة والحضارة الغربية بشكل خاص، وأنَّ ضحاياهم الأوائل من المسلمين لم

يكن لـديهم أدنى نصيب من الثقـافـة الشرعيـة والسلوك الإســلامي والخُلق القويم. . .

أما تعريفهم للقومية التي يدعون إليها، فنستطيع القول بأنه حتى اليوم لم يستقر على قدرٍ مشترك يرضى به الجميع: ما هي البلاد التي ينتظمها التعريف؟ ومن هو الإنسان الذي يشمله؟ ولا نزال نذكر ـ تاريخيًّا ـ المجـادلات العقيمة حول إدخال مصر وشمالي إفريقيا وحتى بلاد الشام في التعريف (!!) لأنها بلاد تعرّبت بالإسلام، أما الذين كانوا أشدّ إغراقاً في النزوع القومي الذي لا ينتهي عند حدّ، فلم يروا إلاَّ القومية الفينيقية في بلاد الشام، أو الفرعونية في مصر، والبربرية في شمالي افـريقيا، وأخـرجوا مـا عدا ذلـك كلّه إمعانـاً في التمزيق والتفتيت. . . ولم تكن مأساة دعاة القومية كفلسفةٍ واتجـاه عقيدي بـديل عن الإسلام في التعريف والمعرفة بل في تحديد تلك الفلسفة أيضاً، وتقديم مضمون يتحاكمون إليه بعد تحقيق النزوع القومي، فكان لا بد لهم إما من الرجوع إلى الإسلام ومحاولة التعسف في تفسيره وتجريده من الإسهامات الإنسانية جميعها: بتفسيره تفسيراً قوميًّا بعيداً عن الحقيقة الموضوعية والتاريخية، وإسقاط النبـوة وحقيقة الوحي: وإما من الاغتراف من المصـطلحات والثقـافات الأوروبيـة، خاصة ثقافات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، والتطور معهـا، والسير في دروبها، الأمر الذي يلغي أخصّ خصائص الدعوى القومية، ويؤكد عداوتها للإسلام والعرب على حدٍّ سواء: ولا شك عندنا أن طرح فكرة القومية كرد فعل على النزعة الطورانية كان لعبة من أعداء هذا الدين، وغفلةً وعدم تبصر بالآفاق البعيدة التي يرمي لها الطرح من قبل المسلمين البسطاء، ذلك أنَّ الذين طرحوا الشعار كانوا على علم بالأبعاد كلّها التي سينتهون إليها، وليس أقلها صناعة الأحفاد الذين سيرثون «كمال أتاتورك» على الساحة الإسلاميـة، لأنهم لا يستطيعون إظهار حقائقهم من أول الطريق حتى لا تُحبط خطواتهم، فمارسوا نوعاً من النفاق الاجتماعي لتكون القومية جسرهم المرحلي لما يريدون، لأنهم في الحقيقة شعوبيـون، أعداء لـلإسلام والعـرب على حـدّ سواء: أمـا الضحايا من المسلمين فلم يخرجوا عن كونهم أدوات لا تدرك ما يُراد لها إلاَّ بعد

فوات الأوان، ذلك بأنَّ العرب معروفون بنزوعهم القومي القبلي تاريخيًّا، وكانوا كلما غابت أو غُيِّبت الإسلامية عادت العصبية القبلية لترفع عقيرتها من جديد على فترات التاريخ، ولم تتوقف المعركة عند حدود العرب وغير العرب، وإنما وصلت إلى التآكل الداخلي للعرب أنفسهم، وقامت المعارك بين القيسية واليمنية، وبدل أن يكون التصويب في تعميق العقيدة الإسلامية، وتجديد الانتماء لها والالتزام بها، عولج الانحراف الطوراني بانحراف مماثل، ما لبث أن تكشَّف عن فلسفة وعداوة للإسلام، وقناع للطائفيات تستَّرت وراءه، ووسيلة لغير المسلمين للنيل من الإسلام، ولم يعد خافياً أنَّ هذه الدعوات عمليًّا تمت على حساب وحدة الأمة وانتمائها الحضاري وميراثها الثقافي، ولم تتأخر الدعوة القومية كفلسفة بديلة عن الإسلام كثيراً في أن يُجْسَم رصيدها: إمّا لصالح الطائفيات الجديدة وأحقادها التاريخية، وإمّا لصالح الماركسية كمضمون مستورد لملء الفراغ العقيدي، أو لصالحهما معاً، وهنا بدأت موجة الشعوبية الجديدة تنقضّ على الإسلام وتفسره من جديد تفسيراً مذهبيًّا غير منهجي، وبدأت تتسقط بعض الوقائع التاريخية، وتلتقط بعض النصوص تبترها عن سياقها لتخدم بذلك دعوتها ومنهجها: خاصة بعد أن أدركت ـ بعد هذه الجولة الطويلة ـ أنَّ مواجهة الإسلام أمر مستحيل، فلا بد إذن من الإلتفاف عليه والانحراف به، والانتقاء من بعض فترات التاريخ وإسقاطها، ومحاولة التسلل إلى داخل المسلمين من خلال الإسلام نفسه، ذلك أنَّ الانتقاء في التاريخ مذهب يقصي منهج التاريخ ويعطّل مساره، ويجعله تابعاً لكل اتجاه عقيدي حديث، وقد كان هذا ثمرة لنقل التراث والفكر الغربي والشرقي ومذاهبهما: وقد تكون آفة أصحاب التفسير القومي الفلسفي هؤلاء ـ ومن ثم التفسير الماركسي للتاريخ، دعاة الشعوبية الجديدة، والانتقاء والالتقاط لكل النقاط السود، والارتكاز على فترات الخروج واعتبارها الاساس ـ أنهم يصنعون بطولاتهم في الفراغ، ويتطاولون على نصوص الإسلام وتاريخه في هذا الزمن الرديء حيث تغيب السلطة التنفيذية التي تدافع عن الإسلام، لكنهم يفتقدون الجرأة ـ ولو بكلمة واحدة ـ لنقد الواقع الذي يسوده الاستبداد السياسي والتفتت والتمزق الإقليمي والتحكم الطائفي الذي جاء ثمرة لهذه الدعوات... إنهم انتهوا إلى صورة من

«الفلكلور» العقيدي والسياسي ترفّع عن المشاركة فيها الكثير من عقلائهم بعد أن استبانت لهم النوايا، وأصيبوا بكثير من الممارسات. . .

ولسنا بسبيل التكلم عن التمزقات السياسية والفكرية والصراع الاجتماعي الذي أورثته هذه الدعوات على أرض الواقع الإسلامي، ولعلَّ في ذلك وجهاً من الخير لأنّه تحدى الناس وحملهم على العودة إلى الانتماء الإسلامي من جديد.

[شعبان ١٤٠٦هـ - نيسان (ابريل) ١٩٨٦م]

محاولة مستمرة لتعطيل روح الجهاد

قد تكون المأساة الحقيقية ـ حيث تتمركز اليوم وتظهر حول المسجد الأقصى ـ إنما هي مأساة المسجد في معظم أنحاء العالم الإسلامي، حتى ليمكننا القول: إن مأساة الأقصى هي ثمرة لمأساة المسجد في العالم الإسلامي بشكل عام وغياب دوره عن حياة المسلمين؛ ذلك أن رسالة المسجد ودور المسجد في معظم أنحاء العالم الإسلامي إمّا معطل أو محاصر.. والخطير في الأمر اليوم هو محاولة القضاء على المسجد وإجهاض دوره وتهديمه من الداخل.. فالذين يحاربون المسجد ويعطلون رسالته ليصبح مبنى بلا معنى ومتحفاً بلا حياة، لا يمكن أن يدافعوا عن المسجد الأقصى..

* * *

التحذير من عودة روح الجهاد

عملية تهويد الجيل العربي المسلم، وتغيير معالم المؤسسات الإسلامية المقدسة، وتغيير المسميات، وإعادة التشّكيل الاجتماعي والتركيب السكاني، في محاولة لطمس شخصية أصحاب الأرض المحتلة، وتحويل ولائهم، وتغيير انتمائهم، تسير بخطوات حثيثة، وعلى أكثر من مستوى؛ وتتركز جهود دولة العدو على مدينة القدس، فمنذ أن احتلتها عام ١٩٦٧م والاعتداءات الظاهرة على المسجد الأقصى تتم بأشكال متعددة، إضافة إلى الحفريات التي تجري تحته تهدد بسقوطه لإقامة الهيكل؛ وفي الماضي القريب كان يقوم بمحاولات الحرق والاحتلال والتدنيس والإساءة لمشاعر المسلمين جماعاتٌ أو أفراد بعيدون ـ

بحسب الظاهر - عن المؤسسات الرسمية الحاكمة...

لكن التطور الجديد، أو المرحلة الجديدة بعد تلك الاختبارات السابقة جميعها، هو أن عمليات الاقتحام والتحدي بدأت تقوم بها السلطات الحاكمة نفسها، فلقد حملت الأنباء مؤخراً أنّ عديداً من النواب الإسرائيليين التابعين للجنة الشؤون الداخلي، ومعظمهم أعضاء في حزب (هاتحيا) الإرهابي، ومعهم عدد من الحاخامات اقتحموا الحرم القدسي مصطحبين معهم نسخاً من التوراة لقراءة فقرات منها، وقام الحاخام «إليعازر فالدمان». بالصلاة داخل الحرم بحراسة يهودية، كما قام «شلومو هيليل» رئيس الكنيست الإسرائيلي بزيارة الحرم القدسي، وصرَّح «أهارون نحميا» عضو الكنيست أن الصلاة داخل الحرم ينبغي أن تصبح شيئاً مألوفاً بالنسبة لليهود، كما صرَّح، «آرييل شارون» بأن امتلاك اليهود للأقصى مسألة وقت، أما «شيمون بيريز» زعيم حزب العمل ورئيس الوزراء فقال: ما اتخذته الحكومات السابقة التي تعاقبت على السلطة منذ حرب ١٩٦٧م من إجراءات بشأن الأماكن المقدسة لا يزال ساري المفعول، وإنَّ سيادة إسرائيل!! على أجزاء القدس كلّها، ومن بينها الحرم، قائمة لا رجعة عنها، وأما النائبة «شولاميت ألوني» فلم تر من الحادثة إلاَّ ما يمكن أن يترتب عليها من نتائج خطيرة إذا استشعر العرب التحدّي، فقالت: نحن شهود لعملية خطيرة يُخشى أن تحوِّل الصراع بيننا وبين العرب إلى جهاد!! وهو التخوف نفسه الذي أبداه اليسار الإسرائيلي - الذي راهن عليه ولا يزال كثيرون في العالم العربي - كما نقلت صحيفة «الفيغارو» من أنَّ هذه الزيارة للبرلمانيين قد تحمل الخطر الكبير بالنسبة لإسرائيل إذا أثارت ردود فعل لا يمكن التحكم فيها في العالم الإسلامي خاصة في الوقت الذي يعكف فيه المتطرفون الدينيون على تسمية من يقتلون اليهود شهداء - إشارة إلى حادثة الجندي المصري سليمان خاطر - وهذا الاتجاه ليس جديداً على اليسار بشكل عام، واليسار الإسرائيلي بشكل خاص، فلطالما تخوّف يهود من أن تؤدي تصرفاتهم إلى إيقاظ الروح الجهادية في عالم المسلمين؛ ولا نزال نذكر كيف أن الصحافة ومؤسسات الإعلام العالمية في أعقاب نكبة عام ١٩٦٧م لم تهتم حتى بالمواقف الإنسانية تجاه

الاحتلال ومآسي التشريد والإرهاب، وإنما كان الذي يهمها، وقد أبدت تخوّفها منه: هو التحذير من عودة فكرة الجهاد المقدس إلى الجماهير المسلمة بعد الهزيمة... وكيف كرَّست الدوائر العالمية جهودها لمحاربة التوجهات الإسلامية كلها، ومحاولة اقتلاعها من جذورها بالأيدي نفسها التي ساهمت في صنع الهزيمة لتبلغ النكبة مداها.

ولا شكّ أن صمودَ الجماهير المسلمة اليوم أمام أسوار الأقصى، واستماتتها في الدفاع عن مقدساتها على الرغم من وسائلها الدفاعية البسيطة من الحجارة والعصي والأيدي المجردة، وطبيعة الشعارات التي ترفعها والنداءات التي ترسلها لتشحذ صمودها وتدفعها إلى الاستشهاد في سبيل عقيدتها مؤشرٌ واضح ومتجدد على النتائج التي يمكن أن تتحقق فيما لو عادت روح الجهاد الإسلامي إلى الجماهير المسلمة، وخُلِّيَ بينها وبين عدوها.

تشويه العقول والمعالم..

إنَّ يهود اليوم أصبحوا على دراية كافية ورصد كامل لردود الفعل، وقدرة على التحكم بالنتائج التي يمكن أن تحدث في العالم العربي، وهم أدرى أيضاً بالوسائل المعتمدة في لجم ومحاصرة التوجهات الإسلامية الجهادية... وقد يكون من الأمانة الاعتراف بالتردد الكثير قبل اختيار الكتابة في موضوع الاعتداءات الإسرائيلية المستمرة، والتحدي الكبير الذي يواجه العرب المسلمين في الأرض المحتلة، ابتداءً من عمليات المسخ والتشويه والتضليل للعقل العربي المسلم في المدارس ومؤسسات الثقافة، والقراءة اليهودية التوراتية للتاريخ والحضارة في مناهج التعليم والكتب الدراسية، وهو الأخطر، وانتهاءً بما يتعرض له المسجد الأقصى من المآسي التي لا تتوقف. ولم يكن الباعث على هذا التردد هو عدم الإيمان بأهمية الموضوع، ذلك أن تهويد مناهج التعليم، وقطع الجيل القادم عن تاريخه وعقيدته، وتغيير انتمائه وولائه يكاد يكون من أخطر القضايا ـ إن لم يكن أخطرها على الإطلاق ـ حيث يُدَرَّسُ الطالب العربي المسلم في التوراة والتاريخ والأساطير اليهودية خمسة أضعاف دراسته عن الدين الإسلامي، إضافة إلى أن

هذه الدراسة عن الإسلام وتاريخه التي تسير في طريق الاضمحلال إنما تُقدم مشوهة بعد أن عبثت بها أيدي يهود. كما أن طمس المعالم وتهديم المؤسسات الإسلامية، وتغيير الأسماء والمسميات في محاولة لإلغاء الهوية العربية والإسلامية وإعادة تشكيلها من جديد بما يتوافق ومصلحة يهود يعتبر من أهم القضايا التي لا يملك الإنسان المسلم فيها اختياراً، لأنها مسؤولية دين. كما أن الباعث على التردد لم يكن نابعاً من عدم الإيمان بجدوى الكلمة والتقليل من أهميتها وأثرها وفاعليتها، فالكلمة الطيبة كالبذرة سوف تنبت وتمتد عندما تتوفر لها الشروط الملائمة، فهي كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ممتد على الزمن؛ ومن كان يدري أن الكلمة التي قالها سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام في السجن كانت تحمل في طيّاتها كل هذه الآثار التغييرية التي ترتبت عليها؟!

ولقد تشكّلت الأمة الإسلامية، وقامت الحضارة الإسلامية من خلال كلمة، وتكوّنت من خلال كتاب؛ لكن مبعث التردد هو العزوف عن الانضمام إلى جوقة الندّابين والبكّائين، وأصحاب صناعة الحماس الكلامي، أو الذين يوبخون أنفسهم بأقوالهم التي تخالف أفعالهم؛ فلقد كثرت الكتابات وكثرت، ومضى عليها قريب من عشرين سنة، والأمور تزداد تدهوراً، ونخشى أن يصدق فينا قوله تعالى: **﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** (الجمعة: ٥).

تطبيع الهزيمة..

والمشكلة في عالمنا العربي ليست في عدم معرفة الحق، وقد لا تنقصنا المعرفة، وإنما مشكلتنا تكمن في عدم الالتزام بأخلاق هذه المعرفة والالتزام بنتائجها، والتضليل الثقافي الذي يُمارس علينا صباح مساء، وكأننا مصرّون على الاحتفاظ بالهزيمة وتهيئة الظروف للإبقاء عليها، وإسرائيل تعمل على إلغاء الاحساس بها من ضمير جيل الأرض المحتلة، كما تعمل في الوقت نفسه على تطبيع الهزيمة والاحتلال في العالم العربي، والمآسي التي نعيشها، ويتلظى بنارها

يوميًا أبناء الأرض المحتلة أصبحت بالنسبة لكثير منّا مادة لـلإعلام، ومـوسماً للاحتفالات وصناعة المؤتمرات والتنقل بـالطائـرات ونزول الفنـادق، وفرصـة للابتزاز وكسب المال وبناء الزعامات؛ ولو أنَّ ما أنفق على المؤتمرات والأسفار والاحتفالات احتجز بعضه للإعداد للجهاد، أو وضع في سبيل تربية الجيل على الإحساس بقضيته والإعداد لها وتبصيره بأبعادها حقيقةً لتغير الحال، لكن قد تكون مشكلة الأمة وجماهيرها المسلمة في بعض من يتقدمون لمعالجة القضية، ذلك أننا أصبحنا اليوم نسمع خطباً، ونقرأ كلاماً، ونطّلع على مشاريع للحلول تجاوزت كل عقل ودين ووطنية ومنطق، وهي تسير بنا من سَيىء إلى أسوأ، وهكذا فالعدّ التنازلي مستمر والتراجع متسارع، وتسويغ الهزيمة جارٍ على قدم وساق، وما كان قبل سنوات يعتبر من الخيانة العـظمى أصبح طـرحه اليـوم ومناقشته أمراً طبيعيًا!!

إنه الزمن الرديء الذي أخبر عنه الرسول ﷺ، حيث أصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً؛ والمطلوب منّا كجماهير أن نروِّض على ذلك، حيث لا يُكتفى بحالة العجز والمحاصرة التي فُرضت علينا، بل لا بد لنا أن نغير عقولنا، ونبدل قناعاتنا، فنكتب للمنكر ونصفق له، ونروّج له على أنه معروف؛ إنه الإصرار على تسويغ الواقع وفلسفة الهزيمة، وقلب القيم، والقراءة الخاطئة التي يُراد أن نعلّمها للأجيال القادمة لتتوارث العجز، وتُدْمِن الذل والهزيمة، وتنمو فيها حواس الهوان والانكسار، وتؤهل لتسويغ الواقع وقبول التضليل السياسي، وهنا مكمن الخطر.

المواجهة مع المسجد..

والناظر في الواقع العـربي الإسلامي بعـد هذه الحـال التي انتهى إليها يصعب عليه أن يقبل أو يصدق أية جديّة في مواجهة القضية والإعداد لها، بل على العكس من ذلك، فالواقع يدل، وكأنما نعد ونحضّر لتصفيتها شيئاً فشيئاً،

وتحضِّر الجماهير المسلمة لابتلاع الطُّعم على مراحل، واللغز الذي لا يزال محيِّراً على مستوى العالم العربي، وإن لم يكن كذلك على مستوى العالم: أن تُطرح اليهودية وتقبل ويحضر للتفاوض معهـا كعقيدة دينيـة معتديـة مغتصبة محتلّة، ويرفض ويحارب الإسـلام، ويُتهم شبابـه بالتـطرف والتعصب وهو في مـوقع الدفاع؛ وقد يكون في ذلك مندوحـة لغير العـرب والمسلمين، أمـا أن تنتقل العدوى للمسلمين، فهذا هو الأمر العجيب. ويغيب عن كثير منَّا أن المعاقل الحقيقية التي احتفظت بالقضية حيَّة في نفوس المسلمين، واختصَّت بحماية الجيل في الأرض المحتلة وفي غيرها من الذوبان هي المساجد وروّادها، وفي مقدمتها: المسجد الأقصى الذي يتعرض هذه الأيام للتحدي والاعتداء، وأنَّ المواجهات الحقيقية كانت ولا تزال مع المسجد، ذلك أنَّ المقاومة الحقيقيـة إنما تـربى في المساجد، وتنطلق منها، لذلك كانت المساجد في العالم الإسلامي هي خطوط الدفاع والمواجهة الأولى، وكانت على تـاريخها الـطويل مـوئلاً للعلم ومعقـلاً للجهاد ومورداً للثورات ضد المحتل والمستعمر؛ وأن أي إذلال للمساجد، أو محاولة لإلغاء رسالتها، أو طمسٍ لدورها، أو مطاردة لروّادها كان دائماً مؤشراً واضحاً على الخيانة والتبعية الفكرية عبر التاريخ؛ والذين يمارسـون ذلك هم رصيد العدو المتقدم في العالم الإسلامي علموا ذلك أم جهلوا!!

وقد تكون المأساة الحقيقيـة حيث تتمركـز اليوم وتـظهر حـول المسجد الأقصى، إنما هي مأساة المسجد في معظم أنحاء العالم الإسلامي، حتى ليمكننا القول: إنَّ مأساة الأقصى هي ثمرة لمأساة المسجد في العالم الإسلامي بشكل عام وغياب دوره عن حياة المسلمين، ذلك أن رسالة المسجـد، ودور المسجد في معظم أنحاء العالم الإسلامي إمَّا معطّل أو محاصر، والخطورة كل الخطورة أن تنقلب المساجد في كثير من بلاد المسلمين إلى مؤسسات إعلام رسمية تردّد ما يكتب لها، وتدخل في جوقة المدَّاحين فلا يصبح لوجودها معنًى عنـد جماهـير المسلمين، وما أشبه الليلة بالبارحة، فقـد يكون من المفيـد هنا أن نستشهـد بموقف من مواقف نور الدين محمود الشهيد ـ رحمه الله ـ الكثيرة بين يدي تحرير القدس من الغزو الصليبي، علّنا نفيد من أمسنا ليومنا وغدنا، وذلك في محاولته

الرائدة يومها لتوفير حرية النقد البنَّاء وحرية الرأي وهدم جدار النفاق الذي يغيب البصارة الحقيقية للأمور؛ حيث منع كل ما من شأنه بثّ روح التزلّف والتملق والنفاق للمسؤولين، من ذلك مثلاً: أنه منع خطباء المساجد الـذين يبالغون في الدعاء له، ويصفونه بالعبارات الرنّانة التي تعوّدوا أن يتقربوا بها إلى قلوب السلاطين!! فطلب إلى خالـد بن محمد بن نصر القيسراني أن يـوقف ذلك، وأن يكتب له صيغة دعاء بسيط، تطابق الواقع بأحواله وأفعاله، فكتب له: اللّهم أصلح عبدك الفقير إلى رحمتك؛ الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينـك أبا القـاسم محمود بن زنكي أمـير المؤمنين، وقرأ نور الدين ـ رحمه الله ـ نسخة الدعاء، وعلّق عليها بالعبارة التالية: مقصودي ألاَّ يُكذب على المنبر، أنا بخلاف كلّ ما يقال، أأفرح بما لا أعمل؟ قلَّة عقل عظيم، الذي كتب هو جيّد، اكتب به نسخاً حتى نسيره إلى جميع البلاد. (مرآة الزمان: ٣٢٣/٨، سبط ابن الجوزي).

والخطير في الأمر اليوم هو محاولة القضاء على المسجـد وإجهاض دوره وتهديمه من الداخل، فالذين يحاربون المسجد، ويعطلون رسـالته، ويحنـطون دوره ليصبح مبنًى بلا معنى لا يمكن أن يدافعوا عن المسجد الأقصى؛ والذين يزعجهم الأذان، ويحاولون إسكات صوت المؤذن لأنهم يرون في ذلك إقلاق راحتهم، وتعطيل نومهم لا يمكن أن يكونوا محلاًّ للدفاع عن الأقصى؛ والذين يهدمون معاني الجهاد في الأمة لا يمكن أن تصدق دعواهم بالعمل على تحرير المسجد الاقصى؛ والذين يدعون إلى إقليمية وعصبية طائفية يستبدلونها بالإسلام لا يُطمأن إلى صدقهم وحسن نواياهم، لأنهم جنود في جيش العدو، ولا يمكن أن يكونوا رجال التحرير؛ والذين يدعون إلى رفع سلاح الإسلام من المعركة، ويخدعون بطروحات العلمانية على حساب الإسلام ليسوا مؤهلين لقيادة الأمَّة؛ والذين يطاردون المصلحـين، ويحاصرون العقيـدة الإسلاميـة، ويحولـون دون عملية البلاغ المبين لا يمكن أن يُقبلوا حماة للأوطان. . .

الواقع وتصحيح المسار . .

إنَّ إسرائيل تخاف من المسجد لأنها تعرف ماذا يعني، وتخاف من عودة روح الجهاد المقدس إلى الأمة، وهي مع الأسف أقدر على الاعتبار بالدرس التاريخي، لذلك تعمل على استئصال روح الجهاد، وتهديم المساجد في الأرض المحتلة، وتمكّن لأصدقائها في العالم ليقوموا بالدور نفسه، وتذكر العرب دائماً بأيّام الجاهلية لتقوم حرب القبائل ويستمر الثأر!!

إنَّ المآسي والأحزان والمعاناة التي صنعت في بعض أنحاء عالم العرب والمسلمين أنهكتهم وجعلتهم على حالٍ ليست أحسن كثيراً من إخوانهم في الأرض المحتلّة، وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا بأنَّ ضحايا معركة واحدة من معارك حرب الخيام والقبائل التي تستنزف العالم العربي وتمكّن اليهود بشكل مباشر أو غير مباشر تكفي لتغيير صورة الواقع الذي نعاني منه.

لقد احترقت الشعارات كلّها، وأفلست القيم التي استبدلت بالإسلام، وهُزمت وعجزت عن أن تقدم شيئاً للقضية؛ كما أن المواجهة المادية للجيل المسلم ومؤسساته باءت بالفشل، وبقي الإسلام ملاذ الأمة وحصنها الأخير؛ والخطورة اليوم أن يُوظّف الإسلام من خلال بعض من يدَّعون الانتساب إليه ليكون جزءًا من صورة الحلول العاجزة؛ وتُطرح شعارات، وتُقام مؤسسات إسلامية، وتُعقد مؤتمرات إسلامية بعيدة عن أي مضمون صحيح، أو جدّية صحيحة، أو التزام صحيح بالأخلاق الإسلامية لإجهاضها وإفسادها ومحاربة الإسلام الصحيح . . . وهذا لا يقل خطورة في نظرنا عن محاربة الإسلام بشكل مباشر، إن لم يكن الأخطر حيث يُغَيَّب التحدّي الذي يوقظ شعور الأمّة ويستنفر طاقاتها ويدفعها إلى إعادة تنظيم صفها وحشد إمكاناتها ومواجهة عدوها، ويُفقد الأمة أي أمل في نهوض أو أي ثقة بقيمة أو مبدأ.

إنَّ مواجهة يهود قد لا تتحقق في هذا الجيل لسبب أو لآخر، فلا أقل من أن نكون أمناء على القضية عندما نورثها إلى الجيل القادم، فلا نورّثهم فلسفة

الهزيمة ومسوغات الواقع، وصورة البطولات التي تصنع من فراغ، ولا نـربّي فيهم حواس الذل والهوان والتضليل الثقافي.. ولا بأس أن يتم التحـرير في جيل قادم أو في أجيال قادمة تستشعر التحدي، وتصدق المواجهة، فلقد استمر الاحتلال الصليبي ما يقارب مائتي عام، ولكن المشكلة اليوم: تطبيع الهزيمة في نفوس الأبناء والأحفاد، والاستكبار وعدم الاعتراف بها وإعداد العدّة الصحيحة لها ومحاربة الانتماء للإسلام، وعدم تحدد الولاء بشكل حاسم!!

كما أنه لا بد أن تسير تربية الجيل في طريق تأكيد أن جهة الولاء الوحيدة بالنسبة للمسلم هي لله تعالى ورسوله ﷺ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُـونَ الزَّكَـاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المـائدة: ٥٥) وتعميق هذه القناعة، وبيان أبعادها، وكيف أن العدول عنها نوع من الارتداد والعياذ بالله، وقد لا يكون من الغريب أن معظم آيات الولاء في القرآن الكريم إنّما نزلت عندما انحاز المنافقون في عصر النبوّة لموالاة يهود، والتي اعتبرها القرآن الكريم ردَّةً، فقال بعد ذكر جهة الولاء: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٥٤).

وبعد: فإنَّ الواقع الذي عليه العالم العربي إذا استمر على ما هو عليه لا يرجى منه خير إلاَّ ليهود، وإذا لم يتدارك أمره ويعـدل مساره، ويغـيِّر ما في نفسه، ويتبصر الأحداث بالطريق الصحيحة. وتقترب الخبرة من موقع صناعة القرار فسوف تتوالى الكوارث والنكبات، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرونَ﴾ (الأعراف: ٢٠١).

[جمادىٰ الآخرة ١٤٠٦هـ ـ شباط (فبرائر) ١٩٨٦]

وِرَاثَةُ الأَرضِ وَالصَّلَاحُ المَطلُوب

لقد أشاع المناخ العلمي الذي جاء به القرآن، روح البحث والنظر عند سلفنا، فأنتجوا علوماً في شتى فروع المعرفة البشرية مكنتهم من تعمير الأرض وقيادة الحضارة؛ وأدرك المسلمون الأوّلون أن الكشف العلمي هو الوسيلة لتحقيق عمارة الأرض، وأن القيم الدينية هي الضابط المتحكم، والقائد إلى الهدف، والمؤشر الصحيح لمسيرة الحضارة وتحقيق أهدافها، فاجتمعت لهم القيادة العلمية والقيادة القيمية السلوكية؛ فولدت الحضارة الإنسانية التي تليق بالرسالة الخاتمة... ذلك أن عمارة الأرض بفقه قوانين التسخير، وصلاح البشر بهداية الوحي، أمران لازمان لتحقيقها، ولا يمكن بحال من الأحوال أن تتحقق بفقد أحد هذين الأمرين.

* * *

القيام بأعباء الاستخلاف، وعمارة الأرض التي ناطها الله تعالى بالإنسان في قوله جلّ وعلا: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١)، لا يمكن أن يتحقّق بعيداً عن امتلاك القدرة على اكتشاف قوانين التسخير، ومعرفة الأسباب، وعلل الأمور، والتحقق بمعرفة سنن الله التي تحكم الأنفس والآفاق، وملاحظة اطرادها، وتحديد مواطن التقصير عند تخلف هذه السنن عن تحقيق النتائج، والاستقراء الدائم والكامل للتاريخ والواقع، وإدراك حركته على مستوى الأمم والشعوب والجماعات والأفراد، وإعمال النظر والتبصر بالعواقب كثمرة للسير في الأرض الذي أمر الله به ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فانظُرُوا كَيْفَ

كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (النمل: ٦٩)، لتحقق إمكانية التفريق بين ما يمكن أن يصنَّف في إطار المحنة والابتلاء ـ وساحة ذلك الخير والشر على سواء؛ يقول تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ والْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٥)، فالمحنة وسيلة إيضاح، وأداة تمحيص وإعداد للنفوس، وتنقية للصفوف ـ وبين ما يمكن أن يقع نتيجة للتقصير والخطأ، والعجز عن الدراية وفقه قوانين الأشياء، والسنن الجارية والمطّردة التي تحكمها، وكيفية التعامل معها. . .

ذلك أن عدم التفريق بين ما يمكن أن يصنف في إطار المحنة والابتلاء وما يقع في دائرة الخطأ والتقصير والعجز عن معرفة الأسباب وحسن التعامل معها، يؤدي إلى نوع من الضلال، والمغالطة، والتدليس أحياناً لتسويغ الواقع والتهرب من المسؤولية عن الخطأ، كما يؤدي إلى الالتباس، وعدم القدرة على الإبصار، وبالتالي استمرار حالة التخلف والسقوط، وانعدام أي أمل في النهوض، حيث لا مكان في هذا الكون ـ الذي جعل الله فيه لكل شيء سبباً ـ للمصادفة والعبث: وهذا من مقتضيات العدل الإلهي الذي شرع الأسباب، وأقام الحياة على سنن، وناطها بعلل، وخلق الإنسان المكلف بتعمير الأرض، والقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني، ورُتب الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة في ضوء القدرة على التعامل مع سنن الله تعالى، وتحقيق الأهداف التي من أجلها خلق الله الحياة والأحياء. ولعل المحنة في كثير من الأحيان إنما تكون لكشف جوانب التقصير، وبيان ما تنطوي عليه النفوس، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥). ونكاد نجزم هنا أنه من الجفوة والإساءة لكتاب الله، والعقم في الفهم، والإجحاف في الإدراك، أن نقصر أبعاد مدلول الصلاح الوارد في الآية الكريمة السالفة، الذي يمكِّن من وراثة الأرض، وقيادة الحضارة، على التحقق ببعض الشروط من تهذيب النفس وتزكيتها، وأداء العبادة بمفهومها الخاص فقط، وزيادة التوثب الروحي، ومن ثم الانسحاب من الساحة، وعدم المكابدة في التعرف على قوانين الله في الكون وتسخيرها، لأن هذا الفهم القاصر مدفوع بالواقع الذي لا نُحسد عليه، ومدفوع بسير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن سار على

دربهم، حيث لم يستطيعوا تعمير الحياة، وقيادة البشرية، وإنتاج الحضارة إلاّ بالمكابدة وتحصيل العلم، والتفوق على عصرهم بما حققوا من شروط نفسية إيمانية، وما أعدّوا من مقومات مادية، وما حصلوا من أفكار ومعارف علمية؛ ذلك أن تعمير الأرض لا يمكن أن يتحقق بترديد القيم، والوصايا، والمواعظ وحدها ـ وهي شروط لا بد منها ـ بعيداً عن اكتشاف قوانين الترقي العلمي، ومعرفة السنن التي تحكم الحياة والأحياء، فكما أن للمادة قوانينها التي تحكمها، فللمجتمعات البشرية ـ وللنفس البشرية أيضاً ـ قوانينها التي تحكمها، وسنن تغييرها، وعوامل نهوضها وانقراضها. .

وهنا قد يرد اعتراض لا بد من الإجابة عليه ما أمكن، وهو أن الإمبراطوريات والأمم التي عاصرت فجر الدعوة الإسلامية، كان رصيدها من المعارف العلمية أكبر بكثير مما عند المسلمين؛ ومع ذلك تفوّق المسلمون عليها وأسقطوها. . وهذا يشكل بعض الحقيقة؛ أما الحقيقة كاملة كما تتراءى لنا فهي أن هذه الإمبراطوريات اكتفت بأنها علمت ظاهراً من الحياة الدنيا وغفلت عن الآخرة: ﴿يَعْلَمُون ظَاهِراً مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُم غَافِلُونَ﴾ (الروم: ٧)، فأصابها ما أصابها. . كانت رؤيتها نصفية كما هي حالنا اليوم.

وعمارة الأرض، وسعادة البشر، وأداء الأمانة في الاستخلاف، يتطلب دائماً الالتزام بالقيم الدينية الصحيحة وتحصيل علم الدنيا، فإذا اختلّ أحد الأمرين سقطت الحضارة.

مشكلة العقل المسلم

والأمر الذي لا بد من حسم الإجابة عليه ابتداءً ـ على الرغم من المحاولات المستمرة لتحميل آيات الله في القرآن الكريم كل جديد في موضوعات العلم كلّها ـ أن القرآن الكريم كتاب هداية؛ ومحل الخطاب الإلهي هو الإنسان، ومصدره الوحي [ولقد استخدم القرآن لغرضه في تحقيق الهداية الأدلة العقلية، والعبرة التاريخية، والحقيقة العلمية، وطلب إلى الإنسان النظر، وزوّده

بالأهلية اللازمة لذلك، ودفعه إلى السير في الأرض ، والاعتبار بالأحوال، ومقارنة الأشباه بالنظائر، وملاحظة اطّراد السنن في الأنفس والآفاق، والتعرف إلى كنهها، واستشراف آفاق المستقبل على ضوء هذا الاستقراء؛ واستنفر حواسه ـ مصادر المعرفة العقلية ـ وجعله مسؤولاً عن إهمالها، كما جعله مسؤولاً عن نتائج عدم الالتزام بإعمالها، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لك بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْـهُ مَسْؤُولاً﴾ (الإسراء: ٣٦)، كما استنفر مواهبه، وأثار وعيه للتفكر الدائب.] والذي نريد إيضاحه من هذا، أن القرآن الكريم نقل الإنسان المؤمن إلى المناخ العلمي الذي يفتح بصره، ويثير ملاحظته، وملّكه مفاتيح الكون، وطلب إليه استخدام العقل للإدراك، وتحقيق النتائج، والاهتداء بالبصر إلى البصيرة، وجعل السببية وسيلة الوجود، ودليل واجب الوجود.

لقد هيَّأ المناخ العلمي الذي دفع المسلمين الأوائل ـ الذين أدركوا حقيقة إسلامهم، وموجبات استخلافهم ـ إلى اكتساب أكبر قدر من التعرف على القوانين التي تحكم الأشياء في شتى العلوم الإنسانية والمادية على حدٍّ سواء؛ وقد تكون محاولات اكتشاف بعض الحقائق العلمية في القرآن، وتحميل آياته أحياناً ما لا تحتمل من النظريات العلمية، مظهر عجز، وعدولاً عن الموقع الصحيح . . . فالقرآن كتاب هداية قد يستخدم لتحقيق غرضه في الهداية الحقيقية العلميّة، وحسبه أنه أشاع في المسلمين مناخ تحصيل العلم، وملّكهم مفاتحه، كما أسلفنا، وهم انطلقوا بهديه إلى تحقيق عمارة الكون بالعلم الذي أنتجته عقولهم. والهداية التي حملها الوحي إلى قلوبهم؛ ولم يحتاج المسلمون الأولون الذين عاشوا هداية القرآن، وتمثلوا مناخه العلمي الدافع إلى البحث، والتجربة، والتفكير، والدراسة، إلى تحميل آياته النظريات والاكتشافات العلمية؛ الأمر الذي بدأ يتسرب إلى المسلمين مع عصور التخلف، لستر العجز عن التحقق بمناخه العلمي.

لقد أشاع المناخ العلمي الذي جاء به القرآن، روح البحث والنظر عند سلفنا، فأنتجوا علوماً في شتى فروع المعرفة البشرية، مكّنتهم من تعمير الأرض

وقيادة الحضارة؛ وأدرك المسلمون الأوّلون أن الكشف العلمي هو الوسيلة لتحقيق عمارة الأرض، وأن القيم الدينية هي الضابط المتحكم، والقائد إلى الهدف، والمؤشر الصحيح لمسيرة الحضارة، وتحقيق أهدافها، فاجتمعت لهم القيادة العلمية والقيادة القيمية السلوكية؛ فولدت الحضارة الإنسانية التي تليق بالرسالة الخاتمة... ذلك أن عمارة الأرض بفقه قوانين التسخير، وصلاح البشر بهداية الوحي، أمران لازمان لتحقيقها، ولا يمكن بحال من الأحوال أن تتحقق بفقد أحد هذين الأمرين؛ ففي الوقت الذي وضع فيه القرآن الكريم معالم الهداية، وأسس العقيدة، وأصول التربية، وتزكية النفس، وشرح لذلك تربية عملية في العبادات اليومية، أوجد مقومات المناخ العلمي الذي حرر العقل من الخرافة، ووفر للإنسان طاقاته من التبديد، وخلّص نفسه من الرعب، وأكسبه الاطمئنان، وأبعد عقله عن القلق، وأطلقه للنظر في الكون، فأنتج هذا المناخ علماء في الطب والكيمياء والرياضيات والفلك والتاريخ قادوا المسيرة العلمية العالمية إلى أهداف إنسانية على هدي من الوحي؛ ولم يفهم المسلمون الأوائل أن تزكية النفس وتأدية العبادة ـ بعيداً عن حركة العقل ـ تحقق عمارة الأرض وتقود الحضارة، وتكسب الصلاح الذي يمكِّن من وراثة الأرض.

ولا شك عندنا أن أزمة الفهم للمشكلة الثقافية والحضارية اليوم، والتفسير لآيات القرآن الكريم، والتعامل معها، والقدرة على إدراك الأبعاد الكاملة لمدلولات القيم الإسلامية، محكومة إلى حدّ بعيد بالواقع المتخلف الذي نعاني منه اليوم على مختلف الأصعدة... إننا نحمل مدلولات القيم الدينية وتفسيراتها وتطبيقاتها الكثير من واقعنا المتخلف، وإلاَّ كيف استطاعت هذه القيم على أيدي السلف أن تصنع وتشكل العناصر الصالحة التي ورثت الأرض، وقادت الحضارة، وقامت بأمانة وأعباء الاستخلاف الإنساني، وأنتجت العلماء المبدعين القادرين في كل مجال؟!

إنها مشكلة العقل الذي يقيم من تخلفه حاجزاً نفسياً يعطل فاعلية القيم وقدرتها على الدفع لارتياد الآفاق، ويحتجزها لتكون محلاً للتبرك فقط!!

العلم الشرعي.. وعلوم العصر

والكارثة التي ألمت بعالم المسلمين، ولا تزال آثارها تحكم العقل المسلم اليوم هي: التوقف عن طريق العلم، ومن ثم العجز عن توظيف الأفكار العلمية ـ إن تحققت ـ لخدمة القيم الإسلامية؛ دون أن ندري أن التوقف عن طريق العلم وتحصيله ـ حتى العلم الذي به صلاح الدنيا وتعميرها ـ هو في الحقيقة نكول عن موجبات الدين وفرائضه، وأن الانهدام الذي أصاب الحياة الإسلامية فانفصلت بسببه القيم الإسلامية عن الأفكار العلمية، وافترق به طريق العلم عن ضوابط الدين التي تعطي العلم الحياة والهدف وقسمت العلوم على ضوء ذلك إلى علوم شرعية وعلوم عصرية، أو ما يسمى بعلوم الدين وعلوم الدنيا، أسقط العالم الإسلامي في الهوة التي لّما يجد فكاكاً منها حتى اليوم...

ولا ندري كيف يمكن أن نتصور أن طريق العلم، وفقه قوانين التسخير، وإدراك سنن الله تعالى في الأنفس والآفاق، ليس من الدين، على الرغم من هذا الحشد الهائل من الآيات والأحاديث التي تحضّ عليه، ومن الممارسة العملية التي كان عليها المسلمون الأوائل!! ذلك أن تحصيل ما يسمى بـ «علوم الدنيا» يعتبر فرض كفاية بالنسبة للأمة، وأما تحصيله والنبوغ فيه لمن يتخصص به فهو فرض عين. وكلمة فرض عين تعني مدلولاً قيميًّا دينيًّا، فكيف بعد ذلك يسوغ لعاقل أن يعتبر أن تحصيل العلم الدنيوي ليس من الدين؟ وكيف يعدل كثير من مسلمي اليوم عن متابعة التحصيل العلمي المتخصص إلى الاشتغال بأمور الفقه والدعوة على غير تخصص؟! وكأنه يشعر بعقدة الذنب في دراساته لعلوم الطب والهندسة والرياضيات والزراعة...

وكثمرة للتخلف، كثيراً ما نرى اليوم مسلمين من أصحاب التخصصات العلمية العالية يعدلون عنها وعن متابعتها ليمارسوا الفتوى، والتفسير، والفقه، وشؤون الدعوة، والبحث في مشكلات الدعاة، الأمور التي تتطلب علماً وتخصصاً، في الوقت الذي نرى فيه بعضاً من فقهاء ومحدِّثين يتكلمون في الطب

والفلك والأنواء والكيمياء وكروية الأرض وإمكانية الوصول إلى القمر والفضاء الخارجي! إنه الاضطراب نتيجة التبعيض، وتمزيق الرؤية الإسلامية الشاملة الذي يولد الخزي والتخلف في الدنيا والعقاب في الآخرة ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ (البقرة: ٨٥). وباعتقادنا أن الإصابة بالعجز والتخلف وعدم القدرة على الإبداع في علوم العصر، والتبعيض الذي يحكم عالم المسلمين اليوم، والتفريق الدخيل على الفكر الإسلامي بين علوم الدين وعلوم الدنيا لم تنج منه حتى علومنا الدينية الشرعية. وما نراه اليوم من قبض العلم بموت العلماء، وعدم قدرة الأمة على تعويضهم الأمر الذي ينذر بانقراض العلم الشرعي لا سمح الله ـ وهو من أخصّ خصائص هذه الأمة ـ شيء مفزع ويمكن أن يصيب مقومات الوجود الإسلامي أصلاً، ذلك أن عجز الأمة عن التحقق والمعرفة لقوانين التسخير والإبداع في علوم العصر لا بد أن يكون نتيجة طبيعية وثمرة للإصابة المستحكمة في الفهم والنبوغ في العلوم الشرعية فلو تمكّنا من العلم الشرعي وتمثلناه حق تمثله لقادنا بالضرورة إلى النبوغ في علوم العصر.

إسلامية العلماء

لقد ولد هذا الواقع المفزع المحزن نوعاً من الضلال عن الهدف، والتداخل في الأمور عجيب حقاً، جعلنا عاجزين عن الإفادة حتى من العناصر المسلمة التي حققت النبوغ في التخصص العلمي فهجرت، وانقلبت إلى أرقام في جداول الحضارة الغربية المادية، وعقول جاهزة للتوظيف في إدارة عجلة العلوم في الحضارة المادية بعيداً عن أيّة إمكانية للإفادة منها في عالمنا الإسلامي، أو الإفادة للقضية الإسلامية هناك؛ ويقوم بعض المخلصين والغيورين اليوم بمحاولة لما يسمى: أسلمة العلوم، ظنًّا منهم بأن القضية يكفي فيها تغيير بعض المصطلحات، كاستبدال كلمة بأخرى، كوضع كلمة «الإله» مكان «الطبيعة» وبذلك تصبح العلوم مسلمة، وهو جهد مشكور ومطلوب عن كل حال؛ ذلك

أن مراجعة العلوم الإنسانية بحدّ ذاتها، وتحديد المواطن التي تجانب فيها النظرة الإسلامية لون من التحصين؛ لا بد منه في مرحلة العجز عن إنتاج هذه العلوم؛ خاصةً وأننا مضطرون لتدريسها في مدارسنا وجامعاتنا؛ فلا أقل من أن تكون لنا مقاييس نرجع إليها في القبول والرد، لكن قد لا تكون الأمور بهذه البساطة، وإذا قبلت هذه المحاولة ابتداءً فقد تكون عديمة الجدوى على المدى البعيد. ومهما عظمت جهودنا فسوف لا نستطيع اللحاق بالتقدم العلمي الهائل، ومحاولة تنقية كل ما ينتجه العقل المادي من أفكار؛ لتتوافق مع النظرة الإسلامية ولو كنا نمتلك النظرة الإسلامية حقاً لقادتنا إلى إنتاج العلوم ذات الفلسفة والهدف الإسلامي؛ ذلك أن العلوم تدين لمن أنتجها، وترتبط بحضارته وثقافته ونظرته إلى الحياة مهما قيل عن حياد العلم، وما لم نصل إلى مرحلة إنتاج أفكار علمية تجيء ثمرة لقيم ورؤية دينية ومحكومة بنظرتها، تكون كالذي يعالج العرض في المرض ويترك السبب...

إنَّ الطرح الصحيح هو إسلامية العلماء وليس أسلمة العلوم، فإذا تحقق العلماء بالقيم الإسلامية جاءت العلوم نتيجة طبيعية لذلك؛ إنَّ الكثير من علمائنا اليوم في الجامعات ومراكز الأبحاث التي انتهوا إليها خارج العالم الإسلامي هم أشبه بمعاجم في خزائن الغرب؛ يقدمون خبرتهم واكتشافاتهم العلمية لتصب في نهر الحضارة الأوروبية والأمريكية، بعيداً عن القدرة على توظيفها لقيمهم الدينية والثقافية؛ فهم من جهة عاجزون ـ بسبب منهم أو بسبب من العوامل الخارجية ـ عن إنتاج العلوم ذات الأهداف الإسلامية، ومن جهة أخرى عاجزون عن توظيف واستخدام مهاراتهم ونبوغهم للضغط والانتصار لقضايا أمتهم الإسلامية.

توظيف النبوغ العلمي..

والذي دعا إلى هذه المقدمات الطويلة ما يقرؤه الإنسان يوميًّا من أن مراكز التأثير في العالم اليوم أصبحت محتجزة للعلماء والخبراء، وكيف أن السير في

طريق التحصيل العلمي واكتساب المهارات لم يعد اختياراً؛ وإنما أصبح المطروح اليوم في الدول المتقدمة: ضرورة توفير الطاقات للتخصصات الدقيقة ذات التأثير والتحكم في السياسة والحضارة والفكر، بينما يبقى دور العالم المتخلف - ومعظم دوله من العالم الإسلامي - القيام بالخدمات وتقديم اليد العاملة، كسائق السيارة، وعامل التنظيفات، وخادم الفندق، وراصف الطرقات وما إلى ذلك... إلى درجة قد يلمح الإنسان معها أنه انتهى إلى ذهن الكبار في مؤتمرات الاتفاق - وليس الوفاق - على تقسيم العالم بشكل نهائي سياسيًّا وحضاريًّا إلى عالم متقدم متحكم وآخر يجب أن يبقى متخلفاً؛ أما أصحاب المواهب والعقول في العالم المتخلف فما عليهم إلاّ أن يلغوا انتماءهم، ويقفزوا من فوق الفجوة إن استطاعوا ليلتحقوا بذلك العالم حيث لا مكان ولا مجال ولا حياة ولا حرّية لهم في عالمهم؛ وكل الترتيبات السياسية والثقافية والمعاشية تعني ضرورة إلغائهم من هنا وإلحاقهم هناك...

وحسبنا هنا أن نأتي على ذكر بعض الأرقام للواقع العلمي في البلاد العربية مقارناً بالواقع العلمي عند يهود في دولة الاحتلال - ونحن نعتبر أنفسنا على خط المواجهة - فلعلَّ ذلك يعيد إلينا بعض وعينا المفقود، ويعيدنا إلى الاستشعار بالمسؤولية التي يُلزمنا بها إسلامنا، وقد يذهب بعضنا إلى القول بأن دولة الاحتلال هي التي ترعى البحث العلمي وتشجعه؛ على عكس الكثير من دولنا التي تخشى المعرفة وتعتمد سياسة التجهيل وتعتبر أهل الخبرة خطراً عليها، وهذا بعض من الحقيقة؛ لكن من الحقيقة أيضاً أن نقول بأنَّ اليهود وهم في طريقهم إلى بناء الدولة اعتمدوا على توظيف النبوغ العلمي في الضغط السياسيّ.

في سنة ١٩٦٧م كان في العالم العربي من العلماء الذين ينشرون بحوثاً علمية (٤٦٥) عالماً، بينما كان في إسرائيل (١٢٥) عالماً، وفي سنة ١٩٨٣م أصبح عدد العلماء العرب (٢٦٠٠) عالم، وبلغ في إسرائيل (٤٦٠٠) عالم، أما المؤسسات العلمية التي ينشر علماؤها البحوث، ففي إسرائيل منها خمس، وليس في العالم العربي مؤسسة واحدة (العربي: أكتوبر ١٩٨٥م).

ونضيف إلى ذلك أن أغلب العلماء والأساتذة المتخصصين في علوم الطب والفلك والكيمياء النووية، والآداب والفنون في الاتحاد السوفييتي من اليهود، أما أوروبا وأمريكا فلا يحتاج الأمر إلى استدلال... لقد استطاع اليهود على الرغم من قلة عددهم، وحتى قبل قيام دولتهم من التحقق بالاختصاصات العلمية النادرة التي تضمن لهم الوصول إلى مراكز التأثير في العالم وقبض الأثمان السياسية لإنجازاتهم العلمية ابتداءً من «أينشتاين» الذي حقَّق اختراعه تفوق الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية، ومروراً بعائلة «روزنبرغ» التي نقلت أسرار القنبلة الذرِّية إلى الاتحاد السوفييتي مقابل الاعتراف بالدولة والسماح بالهجرة وتأمين هجرة ستمائة وخمسين ألف يهودي من الكتلة الشرقية؛ وانتهاءً اليوم بالمساومة التي تمارس مع الولايات المتحدة كورقة ضغط على الاتحاد السوفييتي لتأمين هجرة مليوني يهودي مقابل الضغط على العلماء اليهود للانسحاب من البرنامج الأمريكي لأبحاث الفضاء المضاد للصواريخ والمعروف باسم «حرب النجوم»، لقد وضع «هامير» (ارماند هامير) وهو أحد أنجح اليهود المهاجرين من الاتحاد السوفييتي، كان والده صديق رئيس مخابرات الثورة البلشفية، تعاون مع «لينين» واشتهر بعلاقاته المميزة مع زعماء موسكو، برز دوره في الشهرين الأخيرين كمنسقٍ من وراء الستار لمؤتمر قمة «جنيف» ملف اليهود السوفييت على طاولة قمة جنيف بين الرئيس الأمريكي رونالد ريغان والزعيم السوفييتي جورباتشيف لقاء تجميد حرب النجوم بواسطة العلماء اليهود وهذا كله يعني أن اليهودية العالمية استطاعت أن تصل إلى مراكز التأثير والتحكم في العالم عامة، وتفرض نفسها على المعادلات الدولية؛ بل تتحكم بمسارها، وأصبحت تخصصاتها العلمية سلعة للمقايضة، تستخدم بالطريقة المناسبة ـ لقد خسرنا أفريقيا بعد أن ظننَّا أننا قادرون على شرائها بالمال، وسرقتها إسرائيل بجيش الخبراء والمستشارين الذين تقدمه لها ـ.

والسؤال الذي لا بد من طرحه: إلى متى تبقى الطاقات العلمية للمسلمين مطاردة تعيش في حالة من القلق والضياع، وتبقى العقول العلمية المهاجرة مبعثرة دون أي مردود؟! وقد يكون المطلوب اليوم مزيداً من المراجعة،

وعلى أكثر من مستوىً، لنعلم أن بناء الحضارة الإنسانية هو قيم دينية تعطي الحياة هدفها، وترسم لها مسارها، وتضمن لها أخلاقها؛ وعلم يسخر الكون ويرتاد الآفاق؛ وأن الاختلال في فهم مدلولات القيم الدينية سوف يعطل الحسّ السويّ بضرورة اكتساب المهارات والتخصصات العلمية، وأن العجز العلمي سوف ينعكس بالضرورة على اكتساب العلم الشرعي الإسلامي والتحقق به.

والطريق إلى إعادة التوازن للحياة الإسلامية إنما يكمن أولاً وأخيراً في استرداد منهج القرآن في التربية التي يُشيع المناخ العلمي ويحرك طاقات الإنسان الكامنة، ويلفت نظره إلى استقراء الحياة والأحياء والأشياء واكتشاف القوانين والسنن الناظمة لها، ويوجه عقله إلى المقايسة والاعتبار.

وقد يكون توفير المناخ العلمي هو الأساس الذي نشكو من فقده؛ ذلك أن الكثير من المسلمين يبدعون في أوروبا وأمريكا، ويلغى وجودهم وتُطفأ فاعليتهم في عالمنا الإسلامي، كما أنه لا بد من تصويب النظرة تجاه العلوم التجريبية عامة، وإيقاف التصادم والتقاطع المفتعل بين علوم الدين وعلوم الدنيا، وبناء الحياة الثقافية على التكامل والتوازي بين القيم الإسلامية والقوانين العلمية؛ وبذلك فقط تتحقق لنا وراثة الأرض، ونمتلك خصائص الصلاح المطلوب.

[جمادىٰ الأولى ١٤٠٦هـ - كانون الثاني (يناير) ١٩٨٦]

خاطب القرآن الكريم يهود الذين عاصروا البعثة، ونسب إليهم الجرائم والمؤامرات التي مارسها أجدادهم مع البشرية وأنبيائها وكـأنهم هم أصحاب تلك الجرائم وفاعلوها، وكأن المكر والخداع والتآمر أصبح جبِّلة وخلقاً وشيئاً عضوياً يلازمهم، ينتقل من الأجداد إلى الأحفاد، ولعل المجتمع المغلق الذي يحرصون عليه هو السبب في استقرار هذه الأخلاق المعوجة واستمرارها، وفي سيادة مناخ المكر والتآمر والمحافظة عليه وتوارثه...

والمساحة التعبيرية الكبيرة التي خصصها القرآن الكريم للكلام عن بني إسرائيل وتاريخهم وأخلاقهم وعلاقتهم بالنبوة ليست عبثاً، وتكاد تكون المحور الرئيس لمعظم سور القرآن وآياته؛ حتى يكون المسلمون على بينة من أمرهم..

* * *

الإيمان اختيار..

من الحقائق المعروفة عقلاً وواقعاً أن الإيمان بأمر من الأمور يأتي ثمرةً لقناعة تتولد من خلال البحث والاستدلال، والاستقراء والاختبار، والمعاناة والاستعداد الفطريّ، وأن موطن هذا الإيمان هو القلب ـ بالتعبير الإسلامي ـ المحلّ المنوط به الإدراك وتحقق القناعة، وهو أمر داخلي مغيب، والاستدلال عليه إنما يكون برصد سلوك صاحبه، وليس السلوك الظاهري ـ على كل حال ـ دليلاً كافياً على توفر القناعة، فقد ينافق إنسان فيُظهر غير ما يُبطن لتحقيق

مـأرب، وقد يتملق آخـر الشعور الإسـلاميَّ ليخفي حقيقة أمـره في مجتمـع المسلمين، ويبقى الإيمان مقره القلب ولا سلطان لأحد عليه إلاَّ سلطان الدليل؛ وغيـاب هذه الحقيقـة عن الساحـات الفكريـة ووسائـل العمل، والـظن بأن الإرهـاب الفكري، أو الإغـراء المادي، أو تحقيق المصـالـح يصنـع مؤمنـين بالمبادىء، مضحِّـين في سبيلها، وهمٌ خـادع لأنه يـزيد في مسـاحة المنـافقين والانتهازيين الذين لا يريدون بالأمـة خيراً، ومن التـوهّم أيضاً: الـظن بأن العقائد تنشأ بقرار رسمي، وأن الإيمان لا بد له من إذن السلطان ﴿آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ (الأعراف: ١٢٣)، لذلك قال الله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦) وخاطب الرسول القدوة ﷺ بقـوله: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ (الغاشية: ٢٢) وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩) وحدد مهمته بالبلاغ المبين: ﴿مَا عَلَى الـرَّسُولِ إِلاَّ الْبَـلاَغُ﴾ (المائدة: ٩٩) وبيَّن أن طريقة هذا البلاغ، وتحقيق القناعة للناس إنما يكون بالدعوة إلى الله سبحانه بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن؛ لأنَّ الله وحده هو الأعلم بمن ضلَّ عن سبيله، وهو أعلم بـالمهتدين، وأمـر الثواب والعقاب مردّه إلى الله في نهاية رحلة الحياة؛ وهذه قضية لا مجال فيها لجدال أو مناقشة، وغيابها عن التصور لا يعدو أن يكون جهلاً بها أو سوء فهم لها. . .

لكن المشكلة اليوم التي لا بدَّ من تحرير القول فيها، تطرح وجهاً آخر للقضية، ذلك أن الإسلام ابتداءً هو التزام وليس إلزاماً؛ والإيمان اختيار وليس إكراهاً أو إجباراً، والسؤال الذي لا بدَّ من حسم الإجابة عنه: هل ينسحب هذا الاختيار على كل جزئية وتكليف وقضاء وتشريع في الإسلام؟

أو بمعنى آخر:

هل بعد اقتناع الإنسان بالإسلام وإيمانه به، وارتحاله إليه، والتزامه به يمكنه أن يستمر ويقوم بعملية الاختيار والانتقاء من التكاليف الإسلامية لثابتة تحت شعار ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾؟

أم أن الاختيار إنما يتحدد ابتداءً في أصل القبول بالإسلام أو الرفض له، وبعد ذلك تأتي التكاليف الشرعية ثمرةً ونتيجةً طبيعية ومنطقية للاختيار الأول، وليست هي بحد ذاتها ساحة للاختيار أصلاً؟ إذ لا يمكن عقلاً أن أؤمن بأمر ثم أتنكر للنتائج التي تترتب على إيماني به، وأتوهم أن لي حق الانتقاء والاختيار حيث لا إكراه في الدين. لغير المسلم حق الاختيار، وله عدم الإكراه ابتداءً، فإذا التزم بالإسلام أُلزم بالنتائج جميعاً التي تترتب على التزامه الأول. فالإسلام يبدأ التزاماً، وينتهي إلزاماً، بمعنى: الإلزام بالنتائج المترتبة على الاختيار الأول، وإلاَّ كيف يمكن أن نتصور أن الإسلام يبني أمَّة، ويقيم مجتمعاً، ويحاسب خارجاً، ويشرع قانوناً ولا يضع لذلك مؤيّداته المادية والمعنوية؟!

من هنا فإن قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِن أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦) الذي يحسم الإجابة لا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ فقبول قضاء الله تعالى وقضاء الرسول ﷺ ثمرة للإيمان الأول، لذلك جاء قوله تعالى: ﴿لِمؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ﴾ فالإسلام بالنسبة للمسلم الذي اعتنق الإسلام وآمن به هو وجود لا خيار فيه؛ وفرصة الحرية هنا بالنسبة للمسلم إنما تكون بالتحقق وبذل الجهد والتحري في إثبات صحة التكليف الإسلامي، فإذا ثبت أنَّه تكليف من الله أو من الرسول ﷺ فلا خيار بعد ذلك للمسلم: «إن كان قد قال، فقد صدق؛ إننا نأتمنه على خبر السماء».

فهل يمكن للمسلم الذي آمن بنبوّة محمد ﷺ أن ينكر إسراءه، ويُخْضِع ذلك للاختيار، أم لا بد له منطقيًّا من ترتيب النتيجة المتحصلة على المقدمة التي آمن بها كما فعل أبو بكر رضي الله عنه؟

والذي نريد أن نخلص إليه أن الحل الإسلامي اليوم بالنسبة للمشكلات الكثيرة التي نعاني منها لا يشكل اختياراً للمسلم، وما يُطرح على الساحة الفكرية اليوم من المغالطات لون من التضليل الثقافي لا بدّ من انتشال المسلمين منه، فكلما طولب المسلمون بضرورة الالتزام بالإسلام، والتخلّق بأخلاقه،

والاحتكام إلى شرعه ارتفعت الأصوات هنا وهناك تردد قوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ولا ندري كيف يكون تصوّر الدين بتشريعاته وعقوباته وتكاليفه ومؤيداته عند هؤلاء القوم إذا كانت كل جزئية، وكل تكليف يخضع لـ ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّين﴾ ويقع في دائرة الاختيار؟! وكيف يمكن أن يُسمح في المجال الثقافي بهذه المغالطات الفكرية، واستمرار نقض الغزل من بعد القوة؟ نعلن بأننا مؤمنين، ثم نتنكر لهذا الإيمان، ونلغي نتائجه من مسيرة الحياة كلها، تحت شعار ﴿لاَ إِكْرَاه فِي الدِّين﴾؟!!

تعدية الرؤية القرآنية

بعد هذا يمكننا القول: إنه لا خيار للمسلم المدرك لأبعاد إسلامه من أن يتحقق بأبعاد الرؤية القرآنية الشاملة، وأن يبحث ويتحرى ليعرف حكم الله في كل أمر وشأن من شؤونه الخاصة والعامة، وأن يتسلح بالتقوى لتتحقق له ملكة الفرقان، فالرؤية القرآنية ليست نظريّةً فلسفية، أو معارف باردة بعيدة عن صياغة السلوك وتوجيهه؛ ولا خيار له أيضاً في القعود عن إدراك هذه الأبعاد بشكل سليم وكامل، وتلقِّي البيان من الرسول ﷺ، وفي أن يديم النظر في مرحلة التطبيق (السيرة النبوية) تلك المرحلة التاريخية التي تم فيها ميلاد المجتمع الإسلامي الأول «مجتمع القدوة»، وأن يديم النظر أيضاً في الظروف والشروط والمراحل التي تم فيها ذلك الميلاد حتى يمكنه تعدية الرؤية، والاهتداء بالماضي المعصوم «مرحلة السيرة» للنهوض بالحاضر واستشراف آفاق المستقبل.

ومن المفارقات العجيبة حقًّا في عالمنا الإسلامي، وبعد هذه الحال التي انتهى إليها، أن يستمع الإنسان إلى أصوات هنا وهناك تردّد القول بـ «الحتمية التاريخية» وتجهد نفسها في محاولة التدليل على صحة مقولتها، وقد تصل في تفسيراتها العجيبة لتاريخ البشر الذين يخطئون ويصيبون إلى درجة تزري بالعقل البشري «العلمي» نفسه.

ونحن لسنا ضد معرفة السنن في الأنفس والآفاق، والتعامل معها،

والاعتبار بحوادث التاريخ التي تحمل رصيد التجربة البشرية، وتختصر المسافة الزمنية بالنسبة لإنسان اليوم، ونعتقد أن الذي يتخلى عن ذلك إنما يتخلى عن ذاكرته وشخصيته؛ فالقرآن الكريم أوّل من اعتمد الحادثة التاريخية، ووجَّه إلى ضرورة الانتفاع بها، وطلب السير بالأرض والنظر في تاريخ الشعوب والأمم، وكيف كانت عاقبتها، وعدم الاقتصار على التاريخ الخاصّ بالأمة المسلمة، والإسلام من بعض الوجوه ثمرة للتجربة الإنسانية من لدن آدم عليه الصلاة والسلام إلى محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ (النمل: ٦٩) لكن المشكلة حقًّا بالنسبة لمسلم اليوم تجاهل ما بيَّنه القرآن الكريم من العبر والدروس الخالدة، وما قصَّه علينا من أحوال الأمم السابقة التي سادت ثم بادت، وأسباب انقراضها؛ وعدم الاعتبار بذلك وأخذ الحذر، وهو الكتاب المعصوم الذي ورد بالتواتر؛ ذلك أن آيات القرآن الكريم - في عصر السقوط والتخلف - حتى لو رفعناها شعاراً لبعض مؤتمراتنا ولقاءاتنا، وابتدأنا إذاعاتنا بقراءتها فهي في حياتنا أقرب للتبرّك من قدرتنا على استيعاب درسها، وأخذ أنفسنا بمدلولاتها، والتحقق بعبرها؛ ولقد تحولت سيرة الرسول ﷺ عند كثير منَّا إلى مناسبات وأعياد واحتفالات ومواسم وموالد تنسَجُ حولها الخرافة، وتمجَّد فيها البدعة، وتهزَم فيها الحقيقة، وتغيب عنها السيرة الصحيحية وتوليد العزمة الصادقة، وقد لا تختلف موالدنا الحديثة (اجتماعات، مناسبات، احتفالات) عن تلك الموالد الخرافية من حيث الطرب، وضياع النتيجة والأثر..

من هنا نقول، ونحن على أبواب شهر ربيع الأنور: إنَّ المطلوب من المسلمين اليوم - بعد هذا السقوط المريع على مختلف الأصعدة، وهذه العقوبات المتعاظمة التي يوقعها الله تعالى بنا على يد أشد الناس عداوة لنا؛ اليهود - فرضيَّة العودة المبصرة إلى القرآن الكريم لأخذ العبرة والدرس، وإدامة النظر في السيرة العملية للرسول ﷺ، ومع اعترافنا بعدم إمكانية استعادة التاريخ بأشخاصه وحوادثه، وملابساته ومشكلاته، واسترداده بتفاصيله كلّها لصناعة الحاضر، إلاَّ أنه بإمكاننا استشهاد التاريخ، واهتداء به، والاعتبار بدروسه، والبصارة في ضوئه، والتحقق بالسنن التي حكمته، والتي لا بدّ أنها حاكمة

للأمم والشعوب لمعرفة الحاضر وإبصار المستقبل، فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للتاريخ، فكيف يكون الموقف بالنسبة للسيرة النبوية، وهي الفترة المعصومة من التاريخ التي لا يجوز إخضاعها لمقاييس وتقويمات الحادثة التاريخية من كل وجه؟ وكيف يكون الموقف بالنسبة للقرآن الكريم وما عرض له من السنن والنماذج التطبيقية من حياة الأمم؟ وحتى لا نستمر في التجريد بعيداً عن المثال التطبيقي سوف نعرض لأنموذج من السيرة ـ إجلاء يهود بني النضير ـ بعد أن نقدّم له بمقدمات نرى أنه لا بد منها.

التآمر اليهودي لن يتوقف..

لقد بدأ الصراع مع يهود منذ اليوم الأول للبعثة النبوية، لأنهم كانوا يرون في الإسلام والنبي الجديد ﷺ تهديداً لمعتقداتهم، وكشفاً لتحريفهم كلام الله، وتاريخهم السيِّىء مع أنبيائه، وخطراً على قيادتهم الدينية للعالم، وخوفاً من انتقال هذه القيادة إلى المسلمين؛ أصحاب الرسالة الخاتمة، فالمعركة الحقيقية كانت ولا تزال معهم: **﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَـاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾** (البقرة: ٢١٧) فواجهوا ذلك بكل ما يمتلكون من حقد وكيد وتآمر وتخريب وغدر، سواء أكان ذلك مواجهة مباشرة أو من داخل الصف المسلم نفسه باصطناع النفاق والمنافقين، ومن ثم تغذية الملل والنحل الباطلة والخارجة عن الإسلام باسم الإسلام، فهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا، وهم شياطين النفاق، الذين صنعوه ورسموا دروبه...

المساحة التعبيرية الكبيرة التي خصصها القرآن الكريم للكلام عن بني إسرائيل، وتاريخهم، وأخلاقهم، وعلاقتهم بالنبوة ليست عبثاً، وتكاد تكون المحور الرئيس لمعظم سور القرآن وآياته حتى يكون المسلمون على بيِّنة من أمرهم، فلا يقعوا بما وقع به يهود، وهم الذين نيطت بهم القيادة الدينية للعالم فلم يرعوها حقَّ رعايتها؛ وليأخذوا حذرهم من جانب آخر لأنَّ التآمر اليهودي لن يتوقف حتى يرث الله الأرض ومن عليها..

خاطب القرآن الكريم يهود الذين عاصروا البعثة، ونسب إليهم الجرائم والمؤامرات التي مارسها أجدادهم مع البشرية وأنبيائها، وكأنهم هم أصحاب تلك الجرائم وفاعلوها، وكأنَّ المكر والخداع والتآمر أصبح جبلة وخُلُقاً وشيئاً عضويًّا يلازمهم، ينتقل من الأجداد إلى الأحفاد، ولعلَّ المجتمع المغلق الذي يحرصون عليه هو السبب في استقرار هذه الأخلاق المعوجّة واستمرارها، وفي سيادة مناخ المكر والتآمر والمحافظة عليه وتوارثه؛ ومع أن المسؤولية في الإسلام فرديَّة ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ (الأنعام: ١٦٤) إلاَّ أنها بالنسبة ليهود جاءت جماعية، فكان تقريع الأبناء بما فعل الآباء من الجرائم، مِن قَتْلِ الأنبياء والقول على الله غير الحق. . . إلخ.

اختبر الرسول ﷺ يهود عصره بالاعتراف لهم بالحرية الدينية، والتعامل معهم، وتوقيع الصلح والمعاهدات مع فرقهم وطوائفهم - بني قينقاع والنضير وقريظة - وأعطاهم حقّهم كاملاً غير منقوص في معاهدته لهم عندما وصل إلى المدينة المنورة، وجعلهم على قدم المساواة مع المسلمين في الدفاع عنها؛ فماذا كانت نتيجة التجربة الميدانية - تجربة الرسالة الخاتمة - معهم؟ تلك التجربة التي لا بد من الاهتداء بها وعدم القفز من فوقها في التعامل معهم كما هو واقع اليوم في عالم المسلمين؛ ولسنا الآن بصدد الكلام عن تهديدات بني قينقاع المباشرة للمسلمين في أعقاب غزوة بدر الكبرى وتهوينهم من شأن الانتصار، وقولهم: لقد لاقى محمد ﷺ في بدر قوماً أغماراً - لا علم لهم بفنون القتال - لو نازلنا لأريناه كيف يكون القتال، وخوفهم من توجّه أمر الإسلام، واعتدائهم على المرأة المسلمة في حيّهم؛ ولا عن صناعة النفاق التي هزّت الصفوف في غزوة أُحد قبل المعركة؛ حيث عاد ابن أُبيٍّ بمجموعته مخذِّلاً قوة المسلمين وهم في الطريق إلى المعركة، ثم كيف تأصَّل النفاق ليصبح ضرباً من الفرق الباطنية التي تعيش في حلق المسلمين، وتمكّن اليهود من جديد. . .

ولا عن خيانة يهود بني قريظة وتخريبها الأحزاب في غزوة الخندق، وشهادتها للكفار بأن الأوثان أهدى من إله محمد ﷺ، وإنما الأنموذج الذي نعرض له بمناسبة شهر ربيع الأنور هو: غزوة يهود بني النضير، حيث تم

إجلاؤهم في هذا الشهر الكريم، نعرض لهذا بعد أن تعاظم أمر يهود اليوم - إسرائيل - وأصبحت ذراعهم ممتدة إلى المكان الذي يختارونه في العالم الإسلامي، وبدأت بذور اليأس والإحباط والاستخذاء تتسلل إلى بعض النفوس، وخيّم مناخ الهزائم على الرؤوس إلى درجة أصبحت قريبة من الحال التي كان عليها الأمر بعد هزيمة أحد، وشيوع النفاق، وموقف يهود بني النضير من الاعتزاز بالقوة والتهديد للمسلمين..

إجلاء يهود بني النضير

ففي أعقاب غزوة أحد، وبعد الجراحات والقروح التي أصابت المسلمين، والانتكاسات النفسية التي لحقت ببعضهم بسبب مناخ الهزيمة الذي وجد فيه المنافقون - وعلى رأسهم ابن أُبيّ بن سلول - فرصتهم للنيل من الرسول ﷺ والمسلمين، ولما يمض وقت طويل على إخراج يهود بني قينقاع من المدينة المنورة، وقد كانت نفوس يهود الباقين - النضير وقريظة - معبّأة، عامرة بالحقد؛ استغلّوا الفرصة لتضخيم انتصار قريش وإظهار المسلمين بمظهر الضعف والوهن، وقالوا: (ما محمد إلاّ طالب مُلْكٍ، ما أصيب نبي هكذا قط في بدنه وأصحابه)، وهكذا بدأوا يتطاولون ويتآمرون مع المنافقين، وتناسوا العهد الذي كتبوه مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم....

خرج رسول الله ﷺ مع بعض أصحابه في شهر ربيع الأول إلى بني النضير - وكانت حصونهم على ميلين من المدينة - يستعينهم في دية الرجلين اللذين قتلهما عمرو بن أُميَّة الضمري حينما رجع من بئر معونة، تنفيذاً للعهد معهم، فلما أتاهم قالوا: نعم أبا القاسم، نعينك على ما أحببت؛ ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ قاعد إلى جنب جدار من بيوتهم - فمن يعلو هذا البيت فيلقيَ عليه صخرة، فيريحنا منه؟

فانتدب لذلك أحدهم، فصعد ليلقي الصخرة، فأتى جبريل عليه السلام

رسول الله ﷺ وأخبره بما أراد القوم، فقام ﷺ مظهراً أنه نهض ليقضي حاجته، وترك أصحابه، ورجع إلى المدينة مسرعاً... إلى آخر ما ورد مما هو معروف في مظانّه من كتب التفسير والسيرة...

وأمر الرسول ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم، وبعث رأسُ النفاق ابن أبيّ بن سلول إليهم أن اثبتوا وتمنّعوا، فإنّا لن نُسْلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم... وحاصرهم الرسول ﷺ أيّاماً، وهم قد تحصّنوا ينتظرون نصرة المنافقين دون جدوى، إلى أن أُجلوا عن المدينة المنورة، وفيهم نزلت سورة الحشر، ومن آياتها ذات الدِّلالة الكبيرة على ما نعاني اليوم، قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (الحشر: ٢).

البعد الغيبي الإيماني..

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾ الكثيرون في عالمنا الإسلامي اليوم يعيشون الإحباطات المتتالية ـ كنتيجة طبيعية لإقصاء شريعة الله وما استتبع ذلك من الهزائم المستمرة ـ ويسيطر عليهم مناخ الهزيمة ويتنفسون هواءه، فذراع «إسرائيل» تصل إلى المكان الذي تريد من أقصى المشرق العربي إلى أقصى المغرب العربي، والكتابات الكثيرة هنا وهناك تسهم بإنهاك العرب المسلمين وتحقيق هزيمتهم النفسية من حيث تدري أو لا تدري بأن إسرائيل باتت تمتلك أسلحة ذرِّية، وتطوِّر الطائرات، وتحدِّث التكنولوجيا إلى درجة بدأت معها روح التخاذل تسري إلى جماهير المسلمين، وتورث لأجيالهم، بعد أن استولت على مؤسساتهم.. وهنا مكمن الخطورة.

وتمارس «إسرائيل» الصلف والكبر والعدوان، وتوقظ النزعات الطائفية والقبلية والعنصرية والإقليمية، وقد وجدت هذه الأمور هوىً في نفوس بعضنا،

وهي التي كانت تجد هوىً دائماً في مجتمعنا العربي إذا ابتعد عن الإسلام، والحالة التي انتهينا إليها اليوم من وجود التحالفات غير المعلنة مع يهود، والنتائج الظاهرة والمنظورة لهذه التحالفات داخل مجتمع المسلمين لا يحجبها اليوم شيء... لقد وصلنا فعلاً، من الناحية النفسية، إلى مرحلة يصدق علينا فيها قوله تعالى: **﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مانِعَتُهُم حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ﴾**، لقد ألغينا الاعتبار من تجربتنا، وعجزنا عن البصارة...

وهنا قضية أخرى نرى أنه لا بد أن نعرض لها، ونحن بسبيل الاستضاءة والتحقق بالرؤية الإسلامية التي لا خيار للمسلم إزاءها، وهي أن التمزق والضياع اللذيْن نعاني منهما على مختلف الأصعدة أفقدانا التوازن المطلوب، وأضاعا علينا الجهات.

لقد أسقط الكثير من المسلمين اليوم البعدَ الغيبي عن صياغة حياتهم مما أفقدهم مجرد الأمل الدافع إلى التغيير **﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾** صحيح بأنَّ الله تعالى ناط هذا الدين بعزمات البشر، وأجراه على السنن الجارية في الإعداد والاستعداد، ولم يربطه بالخوارق والمعجزات، ونبّه المسلمين أن يأخذوا حذرهم، فينفروا ثُباتٍ وينفروا جميعاً، وأن يعدّوا ما استطاعوا من قوّة، كما بيَّن لهم أعداءهم الحقيقيين، غير أن ذلك لم يتعارض إطلاقاً مع ضرورة استحضار البعد الغيبي... وعلى الرغم من التخفيف الوارد في مواجهة الأعداء في قوله تعالى: **﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً﴾** (الأنفال: ٦٦) بقي للبعد الغيبي دوره: **﴿فَإِن يَكُن مِنْكُمْ مائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مائتين﴾**.

وقد تكون المشكلة في مسلمي اليوم أنهم يقصِّرون في استكمال عوامل النصر المادية، ويقعدون عن التحقق بشروطه المعنوية، ورغم ذلك ينتظرون النصر!! يطلبون ما يعتبرونه حقًّا لهم وينسون واجباتهم المشروطة فيهم لتحقق المعادلة المطلوبة **﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾**.

وأعتقد لو أنَّا صرفنا بعض ما كُتب عن العدو الإسرائيلي خلال نصف

قرن ـ عن انهيار مجتمعه وهجرته المضادّة، وأزماته الاقتصادية التي جعلتنا دائماً نمارس حالة الانتظار لسقوطه دون أن يكون لنا دخل في ذلك ـ لو أننا صرفنا جزءًا من ذلك لإصلاح جوانب الخلل في نفوسنا، ولإعـداد الأمة وتبصـيرها بعدوّها، وإعادة بناء مجتمعنا على أصوله الإسلامية الصحيحة، حيث لا خيار للمسلم، ولا بديل عن الحل الإسلامي الذي يجب أن نُهيِّأ مقوماته، وأن يحذر من طرحه كشعار دون التحضير لهذه المقومات، لأننا إذا طرحنا الشعار ـ الجهاد المقدَّس ـ دون أن نهيِّىء له مقدماته نكون قد افتقدنا آخر مواقعنا، والعياذ بالله وقد يكون ضروريًا أكثر من أي وقت مضى استعادة البعد الغيبي الإيماني الذي يبعث الأمل، ويشحذ الفاعلية، ويدفع إلى العمل، ويكفي أن نذكِّر بخصيصة واحدة من خصائص المجتمع الذي انتصر على يهود بإعداده ـ وقبل ذلك كلّه بتأييد الله له ـ علّها تحقق لنا الاعتبار، وتعيد إلينا بعض خصائصنا المفقودة:

لما أخذ الرسول ﷺ فيء بني النضير، قال للأنصار: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هـذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يُقسم لكم شيء من الغنيمة».

فقالوا: بل نقسم من أموالنا وديارنا، ونؤثرهم بـالغنمية ولا نشـاركهم فيها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِـرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَـوْ كَانَ بِهِمْ خَصَـاصَةٌ﴾ (الحشر: ٩) إنه الجيل الذي استكمل شروط النصر وعوامله المادية فوفَّقه الله إليه، فهل نعود إلى الحل الإسلامي من جديد؟!

[ربيع الأول ١٤٠٦هـ ـ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٥]

الغزو الثّقافي والمجْتمع الإسْلاميّ

كلما تقدمت بنا الأيام ومرّت الأحداث، أدركنا قيمة وضرورة الاستشعار المبكر في مجال الغزو الثقافي، ووسائل تحصين الثقافة الذاتية الذي كان رائده بحق: الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله، المفكر الجزائري المسلم الذي زرع بذرة الملتقيات الفكرية، ورعاها، ودعا لها بعض المفكرين والباحثين في العالم الإسلامي، بعيداً عن صورة المؤسسات الرسمية ومؤتمراتها، لإقامة جبهة فكرية ثقافية على مستوى هذا العالم، لأن المشكلة الحقيقية التي نعاني منها اليوم هي بسبب الإصابة في عالم الأفكار، والخروق والكسور التي أصابت ثقافتنا الذاتية، لذلك رأيناه يكرس حياته للمرابطة في هذا الموقع إدراكاً منه لخطورته، ولمطاردة التسلل الثقافي، وكشف وسائله، وأهدافه إلى درجة أورثته مزيداً من الحساسية في هذا الموضوع كردّ فعل على البلادة والعطالة الذهنية والسذاجة التي ابتلي بها الكثير من الباحثين والدارسين. فلم يكتف بأن يطلق صيحة النذير وصوت التحذير من مخاطر الغزو الثقافي، وإنما كان الرائد الذي لا يكذب أهله، والدليل البصير...

* * *

انعقد في ولاية «بجاية» في الجزائر، في الفترة من ٢٠ ـ ٢٨ شوال ١٤٠٥ (٨ ـ ١٦ تموز ـ يوليو ـ ١٩٨٥] ملتقى الفكر الإسلامي التاسع عشر للمناقشة والحوار وتبادل الرأي حول الغزو الثقافي والمجتمع الإسلامي وتاريخه، ليأتي طرح هذا الموضوع حلقة في سلسلة موضوعات هامة وخطيرة، عرضت لها

الملتقيات السابقة، والأخيرة منها بشكل خاص، حيث كان لا بد منطقياً من البدء في التأصيل الثقافي، وبيان مصادره وموارده من الكتاب والسنّة، كمصدرين للحياة الإسلامية وللتشريع الإسلامي، ومن ثم البحث عن وسائله وتواصله وامتداداته لتحقيق شمولية الإسلام للحياة الإنسانية، وبيان أن خلود الإسلام وقدرة المصادر الإسلامية على استيعاب أمور الحياة وما يستجدّ من تطورات وأحداث، لا يجوز معها أن يقف العقل المسلم عاجزاً سلبياً بعيداً عن الساحة، فكان الاجتهاد ـ موضوع أحد الملتقيات القريبة ـ والبحث في ضرورة استمراره لأنه يشكل النسغ الذي يضمن للحياة الإسلامية استمرار العطاء، ويحميها من العقم، كما يحمي العقل المسلم من العطالة والعجز والجمود الذي سوف لا ينفع معه أي ادعاء أو افتخار تاريخي بعطاء الأجداد، وكان من الطبيعي جداً أن يعقب ذلك، الحوارُ وتقليب وجهات النظر حول مظاهر العودة إلى تلك الينابيع الإسلامية الأولى، بعد رحلة الانسلاخ التي شهدها عالم المسلمين إثر سقوط الصورة السياسية الإسلامية، وأثرها السيىء على المجتمع الإسلامي، فخصصت بحوث وندوات وتعقيبات الملتقى الثامن عشر لطرح موضوع «الصحوة الإسلامية» ثم كان من الطبيعي أيضاً أن يأتي موضوع الملتقى التاسع عشر عن عوارض التأصيل الثقافي، وبيان الثغور المفتوحة في جبهة المسلمين الثقافية، والخروق المتعددة لثقافتنا الذاتية التي نعاني منها على الأصعدة المختلفة، ودراسة الأسباب الحقيقية للأمراض الثقافية، ومحاولة بيان سبيل العلاج، لذلك خصصت أعماله لمناقشة أسباب ووسائل ومظاهر الغزو الثقافي للمجتمع الإسلامي؛ وكان الارتكاز على الوسائل والمظاهر المعاصرة بشكل خاص وسوف نعرض هنا لبعض الهوامش والتعقيبات:

لعلَّ من الأمور الأساسية الجديرة بالتسجيل، والتي لا يجوز تجاوزها هنا: أن تكون الجزائر هي التي تحتضن مثل هذه الملتقيات، ذلك البلد الذي استهدف فيه المستعمر أوّل ما استهدف ثقافته الذاتية، واحتلال عالم أفكاره قبل احتلاله أرضه، ومحاولة مسخ شخصيته العربية المسلمة وإعادة تشكيلها على الطريقة الأوروبية الفرنسية، وكان من وراء ذلك كلّه الحملات العسكرية التي

تدمر القرى، وتحرق المزارع، وتمارس أشد ألوان العدوان والعذاب والترغيب والترهيب لتجعل من الجزائر أرضاً فرنسية؛ ودفعت الجزائر الثمن غالياً، وقدمت المليون شهيد في سبيل عروبتها وإسلامها، فكان من الطبيعي جداً أن تقدر حق التقدير قيمة العربية والإسلام في حياتها وثقافتها ومواجهتها، وهي التي عرفت عن كثب الاستعمار العسكري والغزو الثقافي، لأنها ترابط في الخندق الأول بالنسبة لعالم المسلمين في مرحلة الاستعمار الحديث؛ وبإمكاننا القول باطمئنان:

إنَّ البلد الذي دفع هذا الثمن الباهظ، وقدم هذه التضحيات الجسام ليس من السهولة عليه أن يتنازل عن عربيته ودينه مهما كانت المحاولات، ومهما كان شأن ولون المحاولين؛ فالمبادىء الإسلامية بالنسبة للمسلمين اليوم لا تشكل اختياراً، وإنما هي وجود، وقد تكون هذه الحقيقة غائبة عن كثير ممن يحاولون متابعة رسالة المستعمر والغازي في مرحلة ما بعد الاستعمار، وغيابها يؤدي إلى كثير من الانتكاسات والاضطراب في العالم الإسلامي...

الاستشعار المبكر

وكلما تقدمت بنا الأيام ومرّت الأحداث أدركنا قيمة وضرورة الاستشعار المبكر في مجال الغزو الثقافي ووسائل تحصين الثقافة الذاتية الذي كان رائده بحق: الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله، المفكر الجزائري المسلم الذي زرع بذرة الملتقيات الفكرية ورعاها ودعا لها بعض المفكرين والباحثين في العالم الإسلامي بعيداً عن صورة المؤسسات الرسمية ومؤتمراتها، لإقامة جبهة فكرية ثقافية على مستوى هذا العالم، لأن المشكلة الحقيقية التي نعاني منها اليوم هي بسبب الإصابة في عالم الأفكار، والخروق والكسور التي أصابت ثقافتنا الذاتية، لذلك رأيناه يكرس حياته للمرابطة في هذا الموقع إدراكاً منه لخطورته، ولمطاردة التسلل الثقافي وكشف وسائله وأهدافه إلى درجة أورثته مزيداً من الحساسية في هذا الموضوع كردّ فعل على البلادة والعطالة الذهنية والسذاجة التي ابتلي بها الكثير من الباحثين والدارسين؛ فلم يكتف بأن يطلق صيحة النذير وصوت

التحذير من مخاطر الغزو الثقافي، وإنما كان الرائد الذي لا يكذب أهله. والدليل البصير. . .

وتأصيل هذا المنهج الذي يشكل ـ في نظرنا على الأقل ـ حاسة الاستشعار المبكر، لا بد أن يتسلح به مسلم اليوم حتى يتوقف تكرار اللدغ الثقافي والسياسي في عالم المسلمين؛ والرسول ﷺ يقول: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين».

الإدانة . . والحوار المفتوح

ولا شك أن استمرار انعقاد وعطاء مثل هذه الملتقيات يعتبر مأثرة من مآثر وزارة الشؤون الدينية، إن لم يكن من أعظم مآثرها على مستوى العالم الإسلامي، والذي نرجوه أن يأخذ منها الجهد الأكبر تفكيراً وإعداداً وتنظيماً وتقويماً، وإن كانت مهامها كثيرة، ومسؤولياتها كبيرة، لأنها تساهم بإعادة القسمات العربية الإسلامية لمجتمع عانى من الاستعمار ما يقارب القرن ونصف القرن، بل لعلّنا نقول: إنَّ هذه الملتقيات لم تعد ملكاً للجزائر وحدها، وإن كانت تنعقد على أرضها، وبإشراف وزارة الشؤون الدينية فيها، وإنما هي ملك العالم الإسلامي بما يعرض فيها من مشكلات عالمية، وبمن يشارك فيها من العالم الإسلامي، لذلك قد تكون الاستعانة والإفادة ممن هم مظنّة الرأي والتخطيط على مستوى العالم، من طبيعة الملتقيات ومن عالميتها أيضاً. . .

والمؤتمرات والملتقيات اليوم ليست بحاجة إلى مزيد من الحماس والتوثب الروحي بقدر ما هي بحاجة إلى التخطيط والتخصص والدراية بالموضوعات المطروحة، فلا بأس بالاستعانة ولو عن طريق المراسلة بأهل الخبرة، لنحس في كل عام أكثر فأكثر بأننا استوينا على الطريق القويم؛ وكأنَّ المطلوب من وزارة الشؤون الدينية التفكير أكثر بعالمية الملتقى إعداداً وتنظيماً وتقويماً وتعميماً لأعماله ومناقشاته، وألاَّ يقتصر ذلك على مستوى دعوات الحضور والموضوعات المطروحة فقط، خاصة وأن الملتقى بدأ يقترب من بحث مشكلات المسلمين الحقيقية، ويمس بعض المظاهر الشاذة الموجودة فعلاً في بلاد المسلمين، إن اختيار مثل هذه الموضوعات الحساسة يمس الواقع الذي يعيشه عالم المسلمين في

بعض مؤسساته الرسمية في مجال الإعلام والتعليم والأسرة والمواقف السياسية والفكرية؛ فالكلام عن الصحوة بأبعادها المختلفة، ووسائل ترشيدها، ومظاهر مطاردتها، وتقديم عينات ونماذج لذلك، ومن ثم تتبع مسارب الغزو الفكري للثقافة الذاتية الإسلامية يقتضي قدراً غير قليل من الحرية وهو مع الأسف غير متوفر في كثير من بلاد المسلمين اليوم...

ولا شك أن الإقدام على طرح مثل هذه الموضوعات ومناقشتها والإتيان بالأمثلة والنماذج من واقع المسلمين، سوف يشكل إدانة وحساسية ليس من السهل تجاوزها، وإن كنّا نعتقد أنّ الحوار المفتوح حول مثل هذه الموضوعات والقضايا هو الطريق الصحيح لحلها ومعالجتها، فقد يكون الحل لكثير من قضايا العالم الإسلامي الحوار المفتوح، وليس القمع والمواجهة، وتأخير الحسم فيها، أو الانخداع بغيابها الظاهر عن الساحة... من هنا نقول: إنه لا بد من الاستمرار وبإصرار في شد الملتقى ـ سواء في مستوى الطرح، أو في اختيار الموضوعات وإدارة الحوارات ـ إلى الابتعاد عن الصور الرسمية والعلاقات الرسمية والتحكم الرسمي، وإن كنّا في الوقت نفسه نرى ضرورة المشاركة الرسمية حتى تتكامل الصورة، وتطرح وجهات النظر كلها، ولعلّ الكلام الذي عرض له وزير الإسكان أمام الملتقى عن الغزو الثقافي اليوم في الفن المعماري ومجال البناء، والأمثلة والمقارنات التي قدمها عن الخلفية الثقافية التي تقبع وراءها، أغنى وعي وحسّ الطلبة والمشاركين بنماذج لا بد منها من موقع المسؤولية والمعاناة اليومية، كما أن وقوف وزير الثقافة ليقدم وجهة نظره في بعض القضايا، واستماعه لبعض التعقيبات أمر مهم أيضاً، خاصة وأنّ الملتقى محل للحوار والمناقشة، وتبادل وجهات النظر وتداول الآراء، وتطعيم الأفكار، وسماع الرأي الآخر للوصول إلى الصيغة الثقافية الواحدة والرؤية الثقافية المشتركة، أو إلى تكوين الجبهة والقاعدة الثقافية الواحدة، وليس مكاناً لإبرام القرارات وإصدار التشريعات؛ ذلك أن التوصيات والمناقشات والبحوث سوف تتخمر في العقول، وتنمو في وجدان الأمة وتأخذ شكلها لتصبح نمطاً حياتياً وقراراً سياسياً فيما بعد...

لذلك نرى أن يستمر الملتقى في المحافظة على مقومه الأساسي كندوة فكرية مفتوحة بعيدة عن الأشكال والقيود الرسمية: وإن كان بطبيعته ليس ضد المؤسسات الرسمية، فالكثير من المؤتمرات الرسمية التي تنعقد اليوم في العالم الإسلامي هي بطبيعتها أقرب إلى مؤتمرات موظفين يقتصر دورهم على ترديد البيانات الرسمية، ولذلك لم تستطع تلك المؤتمرات أن تقدم شيئاً يذكر، كما أنها لا تستطيع أن تخرج بالمسلمين عن الصورة الواقعة في العالم الإسلامي، إن لم نقل بأنها جاءت تكرسّها وتوجد لها المسوغات. . .

هذه بعض الملاحظات التي أردنا أن نلفت النظر إليها حول إطار الملتقى بشكل عام، ونرى أنه لا بد أن نساهم بوجهة نظر أو رؤية من داخل الملتقى علّها تساهم بشيء من الارتقاء به على الرغم من النفع الكبير الذي يحققه، لكننا نطمع بالمزيد.

العالم المتخصص. .

الناظر في برنامج الملتقى، وهذا الكم الكبير من المواد الثقافية والمحاضرين، وما استتبع ذلك من المعقبين، لا بد له أن يلاحظ أننا لا نزال في العالم الإسلامي تستهوينا الحجوم والأشكال والكم أكثر بكثير من البحث عن الكيف والنوعية والحصيلة المتوخاة، خاصة إذا علمنا أن الكثير من المحاضرين، ولا نقول بعضهم، لم يعط موضوعه القدر الكافي من النظر والعناية والتخصص والمنهجية، حيث لا تزال عقلية الكثيرين في عالمنا الإسلامي بعيدة عن التزام المنهجية والتخصص، فكل كلام يصلح لكل موضوع ومناسبة، ويمكن أن تستمع للكلام نفسه أياً كان الموضوع المطروح سواء أكان في مجال الصحوة أو الاجتهاد، أو القرآن، أو الغزو الثقافي. . . إنها الخطب التي تصلح للمناسبات كلها، والتي أصبحت عبئاً على الذهن المسلم؛ تساهم بتسطيح معرفته أكثر من أن تشكل دليلاً يأخذ بيده إلى المواقع المطلوبة، حيث لا يزال حب الكلام، والمساجلات والمطارحات الكلامية، وطنين العبارة يحتل المرتبة الأولى في نفوسنا،

أضف إلى ذلك تكرار بعض المعقبين للمعاني نفسها، وتحكم شهوة الكلام ببعضهم الذي كان يحملهم إلى كتابة التعقيب قبل سماع المحاضر، ولا أزال أذكر أحد المعقبين على وزير الإسكان، وكيف أنه كتب التعقيب بمجرد أن سمع عنوان المحاضرة؛ فحبذا لو قلّت المفردات الثقافية وعدد المحاضرات، وترك المجال مفتوحاً أكثر للحوارات والندوات والاستفسارات والاجتماعات الموازية والمتخصصة؛ على الرغم من أن ذلك يشكل متعبة للقائمين على إدارة الملتقى.

ولا شك أن المحاضرين والمعقبين يخاطبون الجمهور من خارج قاعات الملتقى عن طريق وسائل الإعلام المختلفة إضافة إلى الطلبة والمشاركين، وبذلك فالملتقى مصدر للثقافة الجماهيرية المتنقلة، حيث جرت العادة أن ينعقد كل عام بولاية من ولايات القطر الجزائري، ولهذا ما له من العطاء الثقافي، وتحريك وهزّ البرك الراكدة، وتجديد ذاكرتها تجاه الإسلام، وتبصيرها بالثغر الثقافية وصور وأدوات المواجهة الثقافية؛ ولعلَّ بعض المحاضرين يؤتى من هنا، حيث يظن أحدهم أنه يشفع لتدني سوية موضوعه كونه يخاطب الجماهير من خلال وسائل الإعلام، إلاَّ أننا نرى هنا أن البساطة والتبسيط لا تعني ولا يجوز أن تعني تسطيح المعرفة وسذاجتها، أو أن تقول أي كلام؛ وإنما تعني القدرة على تقديم الأفكار الهامة بلغة وخطاب سهل، وقد يكون من المؤسف أن بعض البحوث لم تستطع أن تضيف جديداً، لا للجمهور خارج قاعات الملتقى، ولا للطلبة داخلها، ولا نغالي إذا قلنا: إنَّ بعض الطلبة قد يكون متقدماً على إدراك آفاق وأبعاد البحث المطروح أكثر من بعض المحاضرين؛ فمتى نصل إلى مرحلة أن يعتذر المدعو عن المشاركة بسبب عدم قدرته على تحضير الموضوع المطلوب، أو عدم تخصصه به، أو عدم معاناته له؛ ونتخلص من عقلية الادعاء بمعرفة كل شيء، الأمر الذي يؤدي إلى لون من الاحتراف للمؤتمرات مهما كان موضوعها؟! ذلك أن الذي يدعي أنه يعرف كل شيء لا يعرف شيئاً؛ وقد يكون المطلوب اليوم: العالم المتخصص؛ وبكل قضية أصحابها.

وهنا نقول: إنه يمكن أن تتحكم بعض الظروف والملابسات والاعتبارات بدعوة بعض الأشخاص، وحبَّذا لو كانت دعوتهم لحضور الملتقى وشهود الحوار

والمناقشات، وليس من الضروري أن يكون المدعوون كلهم من أهل الكلام، وهذا الأمر ـ وإن كنّا لم نتعود عليه بعد ـ سوف يوجد للقائمين على تنظيم أعمال الملتقى بعض الحساسيات، إلاَّ أنَّ الحسم فيه موقف لا بد منه، خاصة إذا اعتبرنا مثل هذه الملتقيات مجالاً لمعالجة بعض أمراضنا وليس لتكريسها؛ كما أن بعض المدعوين للكلام قد يكون من أهل العلم والفضل، لكنه ليس من أهل الكلام والبحث. في هذا الميدان؛ ولما كان الملتقى بعيداً بطبيعته ومضمونه عن الأشكال الرسمية، وهذه من أهم ميزاته، وكانت الدعوة إليه والحضور فيه لا يقوم على أساس التمثيل الرسمي لبلدان العالم الإسلامي، لذلك قد يكون المطلوب: الاعتذار عن الكلام للوفود التي تمثل جهات رسمية ليبقى تمثيلها شرفياً، والتي يمكن بتدخلها أن تخترق جدول أعمال الملتقى، ولا تكون مهيأة لطرح المواد المطلوبة بقدر ما تجيد عملية المجاملات الدبلوماسية التي ليس مكانها مثل هذه الملتقيات على الأقل؛ ويبقى الأمل قائماً في عزيمة القائمين على أمر الملتقى لتجنيبه مظاهر الانحياز كلها لأية جهة، رسمية كانت أو شعبية، ليبقى ويستمر كما بدأ ساحة للحوار الحر المنطلق من مفهوم الأخوّة الإسلامية الشاملة، ومنبراً للمسلمين كلهم.

الحضور الأفريقي..

وقضية أخرى لا بد أن تلفت إليها النظر، وهي ضرورة التفكير بشكل مبكر باختيار المدعوين، وأسماء المحاضرين المختارين للموضوع المطروح، وعناوين المحاضرات، ومحاور الأبحاث، واستقبال الموضوعات الرئيسة وطباعتها وتوزيعها على المدعوين والمحاضرين ليتم مناقشتها وتسجيل التعقيب عليها مسبقاً، وبذلك يتخلص القائمون على أعمال الملتقى والمدعوون جميعاً من المفاجآت والارتجال، وتأتي البحوث والتعقيبات أكثر نضجاً وأعم فائدة.

ولعلَّ من أبرز الأمور التي تميز بها الملتقى التاسع عشر لهذا العام: الحضور الأفريقي المكثف، وإتاحة الفرصة أمام المشاركين من أفريقيا للكلام

والحوار والتعقيب وتقديم الرؤية الميدانية عن وسائل وأساليب الغزو الثقافي للقارة التي تكاد تسقط فريسة للغزو الثقافي والهجمات التنصيرية المهملة من أهل الشأن من المسلمين.

فعلى الرغم من الكلام الكثير والكثير جداً على أهمية أفريقيا، وتقصير الدول الإسلامية في حمايتها من الغزو الثقافي والهجمات التنصيرية، والصراع السياسي والثقافي عليها، وتغلغل يهود فيها وتقديمهم الخبرات الفنية على مختلف الأصعدة، فنحن إلى الآن لم نقدم لها شيئاً يذكر، واكتفينا كالعادة بالكلام والانتصار العاطفي عن الفعل والممارسة؛ لذلك فإنَّ التفكير بالحضور الأفريقي والمشاركة الأفريقية قضية على غاية من الأهمية في إثارة الوعي والتبصير بأدوات ومظاهر الغزو الفكري، ووضع المفكرين من المسلمين في صورة القضية ليتحملوا مسؤوليتهم.

مرحلة ما بعد القمر الإعلامي

وتبقى المشكلة عندنا، نحن مسلمي اليوم، أننا نأتي دائماً في الزمن الأخير، يأتي إحساسنا بالمشكلة ومحاولة المعالجة بعد فوات الأوان، واستفحال المرض وإزمانه واستعصائه على العلاج؛ ولا تكون يقظتنا وصحوتنا إلاَّ بعد وصول خصومنا إلى مراحل التنفيذ، وقد نرفع الآيات القرآنية شعارات لنا ونعجز عن تمثلها، ويقتصر نصيبنا من رفعها وتلاوتها على التبرك بكلام الله تعالى دون القدرة على وضعه في المكان المطلوب من حياتنا ونفوسنا. . . ولسنا الآن بسبيل أن نذكر كثيراً من النماذج والأمثلة في إطار الأسرة وضرورة تعليم المرأة، وقضايا مناهج التعليم ووسائل الإعلام، إننا نفتقر دائماً إلى الاستشعار المبكر الذي يدعو إلى أخذ الحذر، والدفع أسهل من الرفع كما يقول الفقهاء.

وقد تكون المشكلة عندنا، كثمرة لتخلفنا وانتهائنا إلى مرحلة الغزو الثقافي الذاتي التي نعاني منها اليوم؛ وماذا بعد المؤتمرات والملتقيات؟ هل تنتهي مهمتنا بانتهاء أيامها وإصدار توصياتها؟ هل يوجد من يقوم بتحليل الأفكار، وتسجيل

الاهتمامات، ورصد ردود الأفعال لتحديد الآفاق التي يقف عندها المسلمون اليوم؟ وما هي ـ نتيجة الدراسة ـ الثُّغَرُ الثقافية التي تستدعي المرابطة؟ وما هي الانهدامات والكسور التي تعاني منها الشخصية المسلمة؟ أم أن مؤتمراتنا عامة ستبقى فرصة للمساجلات الكلامية، والمطارحات الخطابية، والمدائح السياسية، وبذلك تكون فائدة عدونا منها أكثر منا، حيث نهيىء له بإرادتنا وأموالنا المساحات الكافية التي تحقق عمليات الرصد والمسح الفكري، واستطلاع الواقع، ومن ثم تؤمِّن له مزيداً من المعرفة التي تمهد له رسم سياساته الثقافية على أصول مدروسة، تضمن له استمرار تحكمه الثقافي الذي يستدعي بالضرورة التحكم السياسي.

واليوم وقد تطورت وسائل الغزو الفكري بشكل رهيب، وبدا عصر الدولة الإعلامية الواحدة، عصر الأقمار الإعلامية والإغراق الإعلامي الذي لا مكان فيه للعجزة وأصحاب الأماني وأحلام اليقظة، لسوف يقذف عالمنا الإسلامي يومياً من خلال الأقمار الصناعية الإعلامية بما يغيّر علينا نمط حياتنا، ويختطف أبناءنا ونساءنا، ويعيد صياغة اهتماماتنا وعواطفنا، وسوف يقتحم علينا بيوتنا وحجرات نومنا، فماذا أعددنا له؟! إن الدول التي تحترم نفسها، وتقيم وزناً لثقافتها الذاتية، تفكر اليوم بوسائل التحصين الثقافي والمواجهة الإعلامية لمرحلة ما بعد الأقمار الصناعية ـ نقلت بعض الأنباء أن «كوريا» تقوم بإجراء دراسات لوضع خطط المواجهة لمرحلة ما بعد القمر الإعلامي ـ ونحن لا نزال نحاول محاربة ومواجهة الأفكار بالوسائل الساذجة، ونظن أن الجندي، أو ضابط الأمن، أو الخفير الجمركي قادر بوسائله البسيطة ـ التي لا تعدو منع كتاب، وحجر صحيفة أو مصادرة مجلة ـ على تحصيننا ثقافياً في الوقت الذي تصل فيه هذه الأمور إلى بيوتنا قبل أن نصل نحن إليها..

وبعد: فنرى أنه لا بد من التفريق بين التبادل الثقافي والغزو الثقافي، ذلك أن التخويف والحساسية الزائدة غير المدروسة والمعقولة من الغزو الثقافي توقع الفرد المسلم اليوم بشيء من التخليط بين التبادل ـ والحكمة ضالة المؤمن ـ والغزو؛ وتحمله إلى مواقف الرفض المطلب الذي يعني وجهه الآخر: القبول

المطلق. والأمم التي تفتقد ثقافتها الذاتية واقعة في منطقة الغزو شاءت أم أبت، لأنها تعاني من فراغ لا بد أن يُملأ، والأرض العالية لا بد أن تفيض على الأرض الواطئة، ولو صرفنا جهودنا لضبط المقياس، وعلّمنا المسلم المنهج الذي يعتمده في القبول والرفض، وحسن الأخذ والردّ، لاستطعنا أن نحقق الحصانة الثقافية المطلوبة، ولكان ذلك أولى من الرفض المطلق الذي سوف لا نقدر عليه؛ والله الهادي إلى الصواب.

[صفر ١٤٠٦هـ - تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٥]

المسلمون بين صواب الهدف وخطأ الوسيلة

إن لجوء علمائنا إلى المنهج التربوي للتحصين عند عدم امتلاك القدرة على التغيير الشامل، أعطى الثمار العظيمة التي ضمنت للأمة هويتها كما ضمنت لها التواصل والاستمرار، ولأعدائها الغياب والاندثار..

فأين الكثير من قادة الاستبداد السياسي، وأين تأثيرهم؟ لقد غابت صورتهم في التاريخ، وباؤوا بإتجاههم، وأحاطت بهم خطيئتهم؛ بينما المعالم الهادية في تاريخنا، كانت للعلماء العاملين، وليست للسلاطين المستبدين.. فهل من سبيل إلى المقارنة بين عطاء الإمام أحمد بن حنبل والإمام الشافعي والإمام ابن تيمية والعزّ بن عبد السلام، وغيرهم كثير، في القديم والحديث رحمهم الله، وبين سلوك المستبدين الذين حاولوا سومهم وسوم أمتهم الخسف؟!.

* * *

القلق السوي..

الهاجس الدائب الذي يؤرق المسلم، والتحدي الذي يواجهه عندما يستشعر حدود مسؤوليته وأبعاد الأمانة التي حُمِّلها بعد أن أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها، أو ما يسمى في المصطلحات الحضارية اليوم: القلق السوي، الذي يطارد الإنسان الفاعل، ويدفعه ويحرضه، وينمي شعوره بالتناقض الحاد بين واقعه المعاش، وقيمه التي يعمل على تجسيدها في حياته وحياة الناس، لإلحاق الرحمة بهم، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن

جور الأديان إلى عدل الإسلام... إن هذا الهاجس أو هذا القلق هو المهماز الحضاري، وهو أساس كل تغيير في العصور كلها، يبدأ الإحساس به داخل النفس، ومن ثم يستفيض ويمتد فيصوغ السلوك، ويكوِّن الأخلاق ويحكم علاقات الإنسان الخارجية، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ (الرعد: ١١).

فإذا ما غاب هذا القلق على مصير الناس وما انتهوا إليه وانطفأت تلك الفاعلية، وانكفأ الفرد عن ذاته، وأعجبت الأمم والجماعات بأفكارها وتاريخها واسترخت ولم تحاول الصعود، بدأت مرحلة السقوط الحضاري، وخمدت جذوة الإيمان التي تمد بالطاقة لمتابعة المسير؛ إن هذا الهاجس هو الإيمان الذي يُشعر الإنسان بالتحدي من حوله، ويهديه إلى وسيلة الدعوة الناجعة وسلاح المواجهة المؤثر، وإلى مراجعة رصيده من الأفكار والوسائل حيث لا بد من الاستجابة لسنة الله في التغيير وتطوير الوسيلة في الدعوة، وتنويع أسلحة المواجهة أيضاً طبقاً لطبيعة الظروف وطبيعة العدو والإمكانات المتوفرة.

ونسارع إلى القول: إننا لا نطلب الإتيان بالمعجزات في نطاق العالم الإسلامي، أو العاملين للإسلام، وإنما المطلوب حقاً هو حسن توظيف الإمكانات الموجودة فعلاً لتحقق أفضل مردود، وجعلها قادرة على هزّ العالم الإسلامي وتحريك بركه الراكدة، والتأصيل لسنن المدافعة في الأرض، والاستفادة من الخبرات كلها التي تحقق الحماية للمستضعفين وتستنهضهم ليؤدوا الدور المنوط بهم...

لذلك يبقى المطلوب دائماً ـ أو الهاجس الدائم كما أسلفنا ـ في المواقع المختلفة وعلى الأصعدة كلها: إعادة النظر والقيام بعمليات المراجعة لوسائل العمل وطرائق نشر الدعوة، ومستلزمات البلاغ المبين: بعد أن استقر في وجدان المسلمين أن القيم الإسلامية هي الحق المحض، وساروا أشواطاً طيبة على طريق الالتزام، وتجدد انتماؤهم للإسلام، وهو ما أطلق عليه اسم «الصحوة الإسلامية المعاصرة» والإسلام محض حق، والحق يعلو ولا يُعلى عليه، قال

تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ (النساء: ١٤١) والمنطق الطبيعي يقضي بأن ينتصر أهل الحق على أهل الباطل، والابتلاء بالهزيمة في بعض الجولات إن تحققت فيها العبرة والدرس والسداد لا تخرج في النهاية عن إطار النصر، لكن الواقع اليوم في كثير من بلدان العالم الإسلامي لا يتحقق فيه ذلك بالقدر المطلوب، أو بالمساحة المطلوبة، فالمسلمون مهيضو الجناح، والبلايا تتابع على عالمهم، والإخفاق يترافق مع حركاتهم، الأمر الذي قد يعرض القيم الإسلامية ذاتها عند بعض الناس للاهتزاز أمام هذا الاختبار الميداني الصعب: ويعرض نفوس بعضهم للإحباط والانكسار...

الإحباط.. واتهام المبادىء

وأمام هذا السيل الجارف من الفتن كان لا بد من التسليم ابتداء بأن هذا الفشل والانكسار، الذي تعاني منه بعض جوانب العمل الإسلامي اليوم إنما يتمركز في الوسائل ذاتها، التي قد تكون أصبحت غير مجدية في هذا العصر وقد تكون مخطئة في كثير من الأحيان، فكثير من المسلمات التي مضى عليها زمن طويل لم تناقش، ولم تراجع، وأقل ما يقال فيها، إنها لم تحقق الأمل المرجو منها، فهي مدفوعة بالواقع الذي نعاني منه، فالخطأ والخلل لا يمكن أن يخدم الحق ويوصل إليه.

فالسقوط والفشل والهزائم، التي هي من عند أنفسنا بسبب من وسائلنا المخطئة أو غير المجدية في نصرة ديننا لا بسبب منه، لا يجوز أن تمد لتصيب القيم ذاتها، وتنسحب عليها، وكان الأجدر بنا أن نراجع حساباتنا، ونختبر صحة وسائلنا، لنحدد مكان الخلل وصور الخطأ التي أوصلتنا إلى هذه النتائج حتى لا نقع فيها مرة أخرى، لا أن يحملنا تتابع الإحباط والانكسار إلى أن نتهم المبادىء والقيم فنلجأ إلى محاصرتها وتحنيطها باسم المعاصرة، أو تمييعها باسم الواقعية، أو إبعادها باسم أنها دعوة مثالية لا يمكن تطبيقها اليوم، أو تقييدها باسم المصلحة، أو استبدالها بحجة تَبَدُّل الأعراف وتحت عنوان: لا ينكر تبدل

الأحكام بتبدل الأزمان؛ وقد يتطاول بعضنا أكثر، فيلقي بمسؤولية فشله على القدر إن لم يجد جهة خارجية يلقي بالتبعة عليها، فالمهم ألاَّ نعترف بأخطائنا ولو أدّى بنا ذلك إلى التضحية بالقيم التي نعتقدها، ومخالفة كل منطق، ومغايرة طبائع الأمور.

فاعلية الإيمان..

ويكاد الإنسان يلمح لهذا الأمر بعض المعالم الهادية في غزوة أحد، حيث كان سبب الهزيمة: الخطأ في الوسيلة، وليس الخطأ في القيمة والمبدأ، فعلى مستوى العقيدة، والقيم والانتماء قال تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩).

أما على مستوى الوسيلة التي أخطأناها فأوصلت إلى الهزيمة وانتصار الكفر على الإيمان في هذه الجولة، فكان قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٦٥).

إن الهزيمة في أحد هزَّت القيم ذاتها عند فئة فانقلبت على أعقابها، ودعت غيرها إلى اللحاق بدينها الأول أو كادت.. كانت هذه الفئة عاجزة عن تحديد موطن الخطأ حيث إنه في الوسيلة التي كانت سبب الهزيمة (العدول عن أمر القائد والطمع في الغنيمة، وليس في نصرة العقيدة) فارتكست... وكان قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِن عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ واضحاً في تحديد موطن الخطأ، ومن ثم كان قوله تعالى: ﴿ولاَتهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾ [الاستعلاء بالإيمان] ليحمي من السقوط والإحباط والوهن والحزن والانكسار النفسي، ذلك أن الهزيمة التي حلت بالمسلمين كانت بسبب الخطأ في الوسيلة كما أسلفنا، إذ لا يمكن في تصور العقلاء ولا في تصور المؤمنين أن ينتصر الكفر على الإيمان، وما يمكن أن يحدث في هذا نتيجة الخطأ في الوسيلة إنما يكون للتربية والإعداد والتصويب والاعتبار والتدريب على تحديد موطن الخطأ واستدراكه مستقبلاً

لتسديد طريق المؤمنين، وإلاَّ كيف يمكن أن نتصور انتصار الكفر على الإيمان إذ لم نعْزُ ذلك إلى وسائلنا؟!

فإذا تحدد موطن الفعل المؤثر أو الموقع الفاعل، وتمت المراجعة المطلوبة في الدعوة والعمل الإسلامي الذي محله الوسائل والخطط أصبحت مقولة: ليس بالإمكان أفضل مما كان: مخدرة ومعطلة لنا فعلاً، وقاتلة لكل تطلع ونشاط، ومهرباً لإغلاق صفحة الماضي وعدم مناقشته وتحديد مواطن الخطأ فيه، وبذلك تمر بنا التجارب، وتتكرر النكبات، ويستمر فينا الارتكاس. فإذا لم يستبدل المسلم اليوم المعادلة، فيعتقد أنه بالإمكان دائماً الحصول على أفضل مما كان، وأفضل مما هو كائن أيضاً، ويكون ذلك هاجسه الدائم، وشعاره المستمر، فيبحث عن أسباب التقصير، فسوف لا يكون هناك نهوض، ولن يؤمل أي ارتقاء أو أي كسب للقضية الإسلامية... إنها حالة الوهن والحزن المستمر التي تغيب عندها معاني ودوافع الارتقاء والاستعلاء، والله تعالى يقول: **﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾** إنها فاعلية الإيمان التي لا تُطفأ، والنور الذي لا يدخل من أدق الثقوب فلا يمكن حبسه.

المراجعة وليس الرجوع

ونكاد نعتقد هنا أن الكثير من العاملين في حقل الدعوة الإسلامية لا يطيقون عملياً المراجعة على الرغم من رفعهم لشعاراتها، ويتهربون منها تحت شتى العناوين والمعاذير والتسويفات والمسوغات. وتكاد تكون أخطر قضية يعاني منها العاملون للإسلام، وتزيد من الارتكاس: عدم الاعتراف بخطأ الوسيلة وعدم جدواها، الأمر الذي يؤدي إلى الخلط وعدم التحديد، بين الوسائل المخطئة والأهداف المحقَّة، فيدافعون عن خطئهم في اختيار الوسيلة ويغطون فشلهم بالكلام عن صواب المبادىء والقيم، وبذلك يضعون أنفسهم في مرتبة فوق مرتبة الآدمية، وكل بني آدم خطَّاء. وقد نقرأ في دفاترهم فلا نجد اعترافاً واحداً بخطأ رغم الواقع الأليم الذي نعاني منه على الأصعدة المختلفة، حتى لو

امتد الأمر وفُسر التقصير تفسيراً ينال من القيم ذاتها، المهم ألاَّ ينال من بعض الأشخاص الذين أصبحت ذواتهم وسلوكياتهم هي المقياس، ووسائلهم هي المعصومة، وكأنَّ قدر الله تعالى هو المسؤول عن أخطائهم والعياذ بالله. . . وقد نغطي فشلنا في تحقيق الهدف بسبب من خطأ الوسيلة (والكيِّس من دان نفسه) بتتبع عورات الآخرين واتهامهم وإطلاق الأحكام التي فيها الكثير من الظلم والقليل من الحق إلى درجة أصبح ذلك يشكل اليوم منحىً خطيراً في الدعوة إلى الله، إنه محاولة لصرف الأنظار عن أخطائنا ولفتها وتوجيهها إلى ما نقوم به من تضخيم خطأ الآخرين، فبدل الاستفادة من أية تجربة لأية جهة من جهات العمل الإسلامي والدعوة إلى الله ـ حيث إن ذلك يمكن أن يعتبر رصيداً مضافاً إلى تجاربنا ـ نضخم الأخطاء إلى درجة تُستَشم منها رائحة الشماتة وبخس الناس أشياءهم علَّ ذلك يستر ويغطي ما نحن فيه.

وقد تكون المشكلة اليوم أن أعداء الإسلام الذين يخضعون أمورهم للدراسة والتحليل والتفسير ودراسة الدوافع أقدر على الاعتبار والاستفادة من تجارب العاملين في حقل الدعوة أكثر من بعض الإسلاميين أنفسهم، الذين حالت تربيتهم الخاصة وولاءاتهم الشخصية دون اعتبارهم بتجربتهم فانقلبوا إلى وسائل إيضاح تستحضر وقت اللزوم للاستدلال على فساد عهد وممارسة ظلم وقمع واستبداد سياسي.

إن أعداءنا ـ مع الأسف ـ كانوا الأقدر على الاستفادة من تجاربنا في رسم خططهم وفي محاربتنا، وكانوا الأقدر على توظيف جهودنا وجهادنا لمصلحتهم في أكثر من موقع على خارطة العالم الإسلامي، ولم يقتصر الأمر على ذلك وإنما تجاوزه إلى التأثير علينا في اختيار وسائلنا المخطئة وإلجائنا إلى ممارسات هي محل نظر من الناحية الشرعية حيث أصبحت الطرق التي رسمت لنا تملكنا ولا نملكها. . .

بين السهولة. . والاستحالة

وقد يكون الأمر المقلق حقاً أن العاملين للإسلام كانوا ولا يزالون الأقدر

على كشف مخططات وخطط الأعداء واستشعار نواياهم، لكنهم مع الأسف يصابون بالعجز عند الممارسة والقدرة على تجنب المعارك التي يفتقدون أسلحتها، بل قد ينقلبون إلى أسلحة تصفّى الحسابات بسواعدهم، ولعل مرد ذلك كله كامن في عدم تقويم التجارب السابقة وتحديد مواطن التقصير وأسباب القصور وخطأ الوسائل حتى لا تتكرر الحال، ولا بد من الاعتراف أيضاً بأن المشكلة التي يعاني منها بعض العاملين في حقل الدعوة الإسلامية اليوم هي النظر إلى شراسة الأعداء ومخططاتهم وإمكاناتهم الظاهرة ويهوِّلون الأمر إلى درجة تصاب معها الأصول النفسية الإيمانية والله تعالى يقول: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا﴾ لتصل نتيجة الحسابات التي يجريها إلى ما يسمى بحالة «ذهان المستحيل» فيصاب بالعطالة عن الفاعلية، والشلل عن الفعل، فيتوقف عن المتابعة في نشر الدعوة ويفتقد قدراته الذاتية فضلاً عن تطلعه إلى تطويرها وإنمائها، كما نرى على الجانب الآخر كيف تتحكم ببعض العاملين كذلك ذهنية السهولة والبساطة، أو «الدروشة»!! فيعتقد أن الأمر من السهولة إلى درجة لا تقتضي البحث والنظر والتخطيط والدراسة، فيجيء تصرفه عشوائياً، ونشاطه أعمى، ويظن أنه يستطيع أن يقسم الدبابة والمدفع بضربة سيف أو طعنة رمح، ويخضع العالم لأمانيه، ويفوته تأمين الشروط المطلوبة، وإعداد العوامل الضرورية، المادية والنفسية، ويعدل عن السنة الجارية المتعبد بها والتي يملكها إلى السنة الخارقة التي لا يملكها، فيجلب البلاء عليه وعلى غيره من المسلمين. . .

صحيح أن مدد الله تعالى للمؤمنين لا ينقطع ولا يتوقف، ولن ينتهي، فعلى الرغم من التخفيف في قوله تعالى: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنْكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُن مِّنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٦٦) لا تزال القلة المؤمنة تغلب الكثرة الكافرة ـ مائة يغلبون مائتين ـ لكن بشرط أن يقود صفاء الإيمان وفرقان التقوى إلى صواب الوسيلة.

عطاء العلماء. . وسلوك المستبدين

والحقيقة التي لا بد من حضورها دائماً أننا لا نزال نفتقر في دعوتها

الإسلامية إلى تحديد الموقع الفاعل المؤثر والوسيلة الشرعية المجدية من خلال الظروف المحيطة والإمكانات المتاحة، والمدى الذي نستطيع الوصول إليه من خلال مجمل الظروف المحيطة، وعلى هدي التجارب السابقة.. لقد أدرك علماؤنا الاعلام ذلك بتواضع ودون تطاول، ولم ينفصل العلم عندهم يوماً عن الجهاد في تاريخنا الإسلامي الطويل، ولم تعرف الأمة الإسلامية الجهاد الأعمى، كما أنها لم تعرف اليأس، أي: لم يقعدها عن أداء الرسالة وإعطائها ذهنية يغتالها الشعور بالمستحيل، أو ذهنية تعميها السهولة التي تقود إلى عدم الإعداد والاستعداد والتخطيط، إلاَّ في عصور التخلق... وكان العلماء طلائع الجهاد، ولو حاولنا استقراء معظم الحركات الجهادية التغييرية ضد الاستعمار لرأينا حصونها، مساجدنا ومؤسساتنا الشرعية؛ وقادتها: العلماء العاملين، فكانت القوة المبصرة للتغيير؛ وهذه السمة الواضحة في تاريخنا يغفل عنها كثيرون اليوم ـ اقتران العلم بالجهاد ـ حيث ترفع رايات الجهاد في بعض الأحيان بنظر عليل وفقه كليل يعود على الأمة بالكوارث الماحقة...

فإذا كانت الإمكانات تسمح بالتغيير، كان العلماء العاملون في مقدمة الركب المجاهد... وإذا كانت الإمكانات لا تمكِّن من التغيير والمواجهة للظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي كان الخيار البديل عن هذا التغيير هو التحصين ضد ذوبان الأمة وتأثرها بالانحراف، وضمان تماسكها وتواصلها، و﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا**﴾.

إن لجوء علمائنا إلى المنهج التربوي للتحصين عند عدم امتلاك القدرة على التغيير الشامل أعطى الثمار العظيمة التي ضمنت للأمة هويتها، كما ضمنت لها التواصل والاستمرار، ولأعدائها الغياب والاندثار: فأين الكثير من قادة الاستبداد السياسي وأين تأثيرهم؟

لقد غابت صورتهم في التاريخ وباؤوا بإثمهم وأحاطت بهم خطيئتهم، بينما المعالم الهادية في تاريخنا كانت للعلماء العاملين وليست للسلاطين المستبدين... فهل من سبيل إلى المقارنة بين عطاء الإمام أحمد بن حنبل، والإمام الشافعي، والإمام ابن تيمية، والعزّ بن عبد السلام وغيرهم كثير في

القديم والحديث رحمهم الله وبين سلوك المستبدين الذين حاولوا سومهم وسوم أمّتهم الخسف؟!

وقد تتركز المشكلة اليوم في أن الدنيا تغير من حولنا بسرعة مذهلة ونحن نصر على ألاَّ نتغير، لا في أشخاصنا، ولا في طبيعة عملنا، ولا في وسائلنا، ونعتقد أن اعترافنا بأخطائنا وتغيير وسائلنا على ضوء المتغيرات الجديدة ينال من ذواتنا، وكأنَّ المهم عندنا ألاَّ تُمس الذات ولو دمرت الجماعات والمجتمعات!!

إعادة تشكيل الصورة

لقد تغيرت صورة المجتمعات الحديثة، وتطورت شبكة العلاقات الاجتماعية وترافق مع هذا ظهور مشكلات وتحديات على أكثر من صعيد، وبرزت مؤسسات جديدة وتغيرت صورة ووظيفة الدولة الحديثة، وقدمت التكنولوجيا للسلطات السياسية ما يضاعف حواسها ومعلوماتها وإمكاناتها حتى لتكاد تكون التكنولوجيا كلها اليوم في خدمة السلطان، وبرزت مشكلات لا يمكن أن توصف إلاَّ بأنها عالمية، ودخل الإعلام مرحلة السلاح الاستراتيجي، وتراجعت الأسلحة المادية إلى الخطوط الخلفية إلى درجة أصبحت الاتصالات السلكية واللاسلكية ـ حتى الإشارات الخاصة بين الدول وسفاراتها ـ مرصودة ومقروءة بشكل مذهل، وتقدمت وسائل الاتصال، وتفجرت ثورة المعلومات ومراكز التصنت والتجسس العالمي (لقد اعترف دايان بأن الحرب الإعلامية التي خاضها مع خمسمائة صحفي أمريكي وبريطاني وفرنسي هي التي ساعدت على تثبيت الصورة الأسطورية للجيش الإسرائيلي لدى الرأي العام العالمي) وظهرت الدولة العالمية... لقد أصبح العالم كله أشبه بدولة واحدة، وما يقع في دولة يجب أن ينعكس بالضرورة على الدول الأخرى في التأثير والتأثر، وسوف لا تكون أية حركة دون رصد عالمي وتأثر عالمي؛ إن النظرات الإقليمية مهما كانت دقيقة وصائبة وصحيحة يبقى استقراؤها ناقصاً إذا لم تأخذ باعتبارها المعطيات الحديثة للصورة العالمية أو الدولة العالمية والمخططات العالمية.

لقد مرَّت الدعوة الإسلامية في تاريخها الطويل بتجارب متنوعة، وسلكت طرقاً شتى للتغيير، ومناهج متنوعة للتربية والتحصين عند العجز عن التغيير، وعلى مستوى العصر الحاضر أيضاً كانت تجاربها غنية ومتنوعة على امتداد خارطة العالم الإسلامي والعالم (كانت هناك تجارب للمعارضة السياسية أخذت أكثر من شكل، وتجارب أخرى للمواجهة السياسية، وتجارب في المشاركة السياسية، كما كانت هناك تجارب أخرى في المهادنة والمسالمة) وعلى الرغم من غنى هذه التجارب يرى الإنسان محدودية الاعتبار، لقد وصلت طروحات العاملين للإسلام في بعض البلدان إلى درجة من التساهل وتمييع المفاهيم قد تكون محل نظر من الناحية الشرعية حيث اعتبر اختيار الكفر من مقتضيات حرية الرأي ومستلزمات الديمقراطية: ومع ذلك جاءت معطيات التجربة عجيبة وغريبة، وقد يكون من الصعب استرداد الماضي وإعادة تشكيله، لأن من السهل جداً أن نتخلص ونخلِّص حقل الدعوة الإسلامية من الوسائل المخطئة ومن التحديات غير المسؤولة للشرق والغرب والشمال والجنوب التي لم تؤد إلى أيَّة نتيجة في خدمة الإسلام والمسلمين وإنما أظهرتنا على غير حقيقتنا، وأغرت بنا أعداءنا، فهل من سبيل إلى إعادة تشكيل صورتنا على ضوء واقعنا وإمكاناتنا؟!

[شعبان ١٤٠٥هـ - نيسان (أبريل) ١٩٨٥م]

حَتّىٰ يتَوقف الخِدَاع للذينَ آمنُوا

> . . . كثيرون أولئك الذين يدخلون علينا باسم الصلاح، والتقوى، والإيمان، والغيرة المفاجئة على القضية الإسلامية والمصلحة الإسلامية، وتحقيق المعاني الإسلامية الغائبة. . إنه إيمان المناسبات الذي تكرر كثيراً في حياة المسلمين ولا يزال؛ عندما يكون طرح شعار الإيمان والإسلام مناسباً للابتزاز السياسي، واقتناص شعور المسلمين البسطاء لمرحلة تقتضيها الظروف والأحوال، فيبدأ التمسح بالدين والتقرب من المتدينين لمرحلة انتخابية أو سياسية، أو بين يدي معركة عسكرية، أو لدعم كيان أو نظام يوشك على الانهيار. . ثم لا يلبث الإسلام والمسلمون أن يكونوا أول الضحايا. . .

* * *

أمّة الاستجابة. . وأمّة الدعوة

من الحقائق الأساسية التي يشهد لها التاريخ والواقع معاً أن الإسلام هو منهج الله تعالى للبشر جميعاً، وأنه ليس حكراً على جنس أو لون أو قوم أو طبقة اجتماعية أو جماعة أو حزب أو فترة تاريخية دون سواها، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ (سبأ : ٢٨)، وأنه أول من دعا إلى المواطنة العالمية ومارسها على مستوى التطبيب، وأخوة العقيدة، والدولة الإنسانية، ووضع معايير التفاضل والكرامة، وناطها بكسب الإنسان واختياره ليتحقق بذلك تكافؤ الفرص. ويؤصِّل العدل، وينتفي الظلم في الأرض، ذلك أن الألوان والأجناس والأقوام وما إليها من المرتكزات الأخرى أمور قسرية خَلْقِيَة،

لا يد للإنسان فيها، فكيف يمكن أن يكون من المقبول عقلاً وعدلاً أن تصبح معايير للفضل والكرامة على مستوى المواقع والمراتب في الدنيا، أو على مستوى الثواب والعقاب في الآخرة؟ قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

ولم تكن هذه الحقيقة التي تمثل روح الحضارة الإسلامية وخلودها محل نظر أو اجتهاد أو مساومة أو مهادنة منذ اللحظات الأولى لنزول الوحي، والخطوات الأولى للمجتمع الإسلامي، فالخطاب كان للناس جميعاً، والاستجابة كانت من الناس جميعاً، دون تمايز. ولأمر يريده الله تعالى ضم المجتمع الإسلامي الأول بلالاً الحبشي، الأسود اللون، وسلمان الفارسي الجنس، وصُهيباً الرومي الأصل، إلى جانب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم جميعاً؛ وكان الفقير بجانب الغني في العبادة وفي المجلس الواحد لتأصيل هذه الحقيقة... وعبثاً يحاول زعماء قريش ورؤساؤها وأغنياؤها ممارسة الضغوط، وليس أقلها الحط من قدر المجتمع الجديد والحكم عليه من خلال المعايير الجاهلية: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا﴾ (الأنعام: ٥٣) بنوع من الاستنكار والتوهين والتحقير، فيجيء الجواب الحاسم الجازم، ويقرر المقياس المنضبط ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَم بِالشَّاكِرِينَ﴾ (الأنعام: ٥٣) وتؤكد الآيات ذلك بشكل لا مجال معه للاجتهاد أو الاحتمال أو التأويل في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينْ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُون وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهم من شيء﴾ (الأنعام: ٥٢) إلى أن يقول جلّ وعلا: ﴿وَإِذَا جَاءكَ الَّذِين يُؤْمِنُون بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ (الأنعام: ٥٤) فالمعيار إيمان وكفر وليس غنىً وفقراً ووجاهة...

وجاء العطاء الحضاري والثقافي الإسلامي ثمرة لهذه الدعوة الإنسانية، وهذه المعايير في الكرامة والتفاضل، وشاركت فيه الأجناس والأقوام والألوان كلها إلى درجة أصبح معها نسيجاً متماسكاً، لونه إسلامي، يصعب معه التمييز والفصل في اللون أو القوم أو الجنس. والمحاولات كلها التي بذلت في هذا السبيل لجعله قومياً أو طبقياً كان مصيرها الفشل، فباب الإسلام مفتوح لكل

قادم، ومن الخطأ العقيدي والتاريخي والحضاري ربط الإسلام بجنس أو جماعة أو حزب أو قوم، بل قد يكون هذا أخطر على الإسلام والمسلمين من أعدائهم، ولا شك عندنا أنها إحدى الحفر والشُرُك التي نصبها العدو، ليُسقط فيها بعض المسلمين، فيحط من قدرهم ويوقعهم في المحاصرة.

فإذا تقرر أن مقياس الفرز الذي يعتمده الإسلام إنما هو في الاستجابة لحقائق الدين أو عدم الاستجابة، فالذين آمنوا هم الذين يتشكل منهم المجتمع المسلم. ودار الإسلام، والأمة المسلمة. أمة الاستجابة. والكفار هم الجهة التي لّما تستجب بعد، والذين يشكلون، أمة الدعوة، أي لا يزالون محلاً لنشر الإسلام ودعوتهم إليه.

دليل التعامل.. ومعيار الاختيار

وقد يكون الأمر المطروح على الساحة الإسلامية اليوم ـ ولا بد لنا من الاعتراف هنا بأنه لا يزال بحاجة إلى مزيد من النظر والاستدلال ـ والمطلوب داخل «أمة الاستجابة» نفسها والتي لا بد أن يكون وضعها سليماً، ومجتمعها متيناً. لتكون قادرة على النقل الثقافي والحضاري لـ «أمة الدعوة» وأداء رسالتها في الشهادة على الناس ـ هو التذكير بضرورة استخدام المعايير التي وضعها الإسلام. والانضباط مع هذه المعايير في تحديد مواقع الأفراد في المجتمع الإسلامي. ومدى التعامل معهم، والإمكانات والخصائص والصفات التي يمتلكونها حتى تؤهلهم لبعض المهام في الحياة الإسلامية، ذلك أن الأعمال في الحياة متفاوتة، وبالتالي فهي تتطلب مهارات وخصائص وصفات متفاوتة. ولن نخرج من عهدة التكليف بأداء الفروض الكفائية، وتحقيق الإتقان في العمل، والاقتراب من الكمال في الأداء إلاّ بحسن الاختيار للمسؤول في كل موقع ضمن المجتمع الإسلامي نفسه من خلال خصائصه وصفاته وإمكاناته وخبراته وسلوكه وكسبه وماضيه، وفي اعتقادنا أن ذلك لا يتعارض مع إيمان المؤمنين وتقوى المتقين، ذلك أن الإيمان هو الشرط الضروري الذي يتم بعده الاختيار على

الساحة الإسلامية، وكثيرة هي المؤسسات الإسلامية والأعمال الإسلامية اليوم، التي يقوم عليها رجال قد لا ينقصهم التوثب الروحي والإيمان والإخلاص والحماس، وإنما الذي يعوزهم الإمكانات والخصائص والتخصصات والخبرات، التي تجعلهم أهلاً لمثل هذه المهام، فليس مجرد الإيمان يجعل الشخص مؤهلاً للمهمات والأعمال كلها، قادراً على القيام بها وحسن أدائها؛ فالإيمان، كما قلنا، شرط لا بد منه، ثم لا بد بعد ذلك من البحث عن المؤهلات والقدرات الأخرى، فمجتمع المدينة القدوة لم يكن مجتمع فوضى وعبث وضياع وتداخل في الأعمال وبعثرة للجهود، كل إنسان فيه يدعي أنه يحسن الأعمال كلها، ويرشَّح لكل شيء، ذلك أن الذي يدعي معرفة الأشياء كلها لا يعرف شيئاً، وإنما مجتمع المدينة القدوة كان مجتمعاً اتضحت فيه خصائص ومميزات أفراده من خلال التجربة الميدانية، فكان الرسول ﷺ على ساحة المؤمنين نفسها لا يسلم الراية إلاَّ لمن يختاره من القادة، ولا يختار القادة إلاَّ من ذوي الكفاءات العالية والقدرات الخاصة، والذي يصلح لقيادة الجيش قد لا يصلح لولاية الأمر وللتفاوض وحمل الرسائل للملوك، ولم يقتصر هذا الاصطفاء على ساحة الحرب، ففي مجال الولاية مُنِع أبو ذرّ منها: عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي ثم قال: «يا أبا ذرّ إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلاَّ من أخذها بحقها، وأدّى الذي عليه فيها» [رواه مسلم وأحمد]. ولأن أبا ذر ليس مؤهلاً لها، لم يحط ذلك من قدره، أو من إيمانه، فالرسول ﷺ أخبره بأنه سَيُبْعَثُ أمةً وحده.

وفي مجال التخصصات العلمية من منّا لم يطلع على قول الرسول ﷺ في تحديد إمكانات أصحابه ومؤهلاتهم بقوله: «أقرؤكم فلان... وأفقهكم فلان... وأفرضكم فلان...»؟ وأبو بكر رضي الله عنه خليفة رسول الله ﷺ التزم معيار الاختيار للمهام على ضوء المؤهلات والبلاء في الإسلام، فاختيار زيد ابن ثابت رضي الله عنه لجمع القرآن إنما جاء للمعاني التي توفرت له دون غيره من قوة حافظته، وجلده، وعدم اتهامه في دينه، واستمراره حكماً عند الاختلاف

في القراءة على عهد عثمان رضي الله عنه، وكان سلوك الإنسان وماضيه دليلاً لأبي بكر رضي الله عنه على مؤهلاته (كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد وعياض ابن غُنم رضي الله عنهم، أن استنْفـرا من قاتـل أهل الـردَّة، ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ. ولا يغزون معكم أحد ارتدّ حتى أرى رأيي: فلم يشهد الأيام مرتد) [الطبري: ٣/٣٤٧].

كـان سلوك الإنسـان ومـاضيـه هـو دليله ـ رضي الله عنـه ـ للتعـامـل والاختيار، وقد يكون ممن تاب وحسنت توبته، لكن ذلك يبقى بينه وبين الله تعالى. وهكذا سلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه المسلك نفسه في الاختيار، وفقهه في هذا الباب دليل هادٍ. قال رضي الله عنه: (لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه) (وفرض لأهل بدر ـ عصابة الإسلام الأولىٰ ـ وفضَّلهم على غيرهم، وفرض للمسلمين على أقدارهم وتقدمهم في الإسلام). [طبقات ابن سعد: ٣/٢٩٦] (فكان الرجل وبلاؤه في الإسلام، والـرجل وقـدمه في الإسلام، والرجل وغَناؤُه في الإسلام) [الطبقات: ٢/٢٩٩] هذه الموازينَ كانت على الساحة الإسلامية، والله تعالى يقول: ﴿لاَ يَسْتَوِي مِنْكُم مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِن الَّذِينَ أَنْفقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ (الحديد: ١٠).

إيمان المناسبات. .

إنها المعالم والبدايات التي رسمها الرسول ﷺ، والتي كانت تتناسب مع تركيب المجتمع الإسلامي الأول ووظائفه في ذلك الوقت، والتزمها الأصحاب من بعده ﷺ والتي لم يستطع المسلمون بعد ذلك المواصلة فيها على المستويات والأصعدة كلها، أو لعلَّهم في عصور الانحطاط أهملوا الالـتزام بهذه المعـايير والمواصفات فاختلط عندهم الحابل بالنابل.

ويأخذ الإنسان العجب عندما يطَّلع على ما ورثناه من علماء الحديث في هذا المجال الذي أُصِّلَ له حتى أصبح الجرح والتعديل علماً له قواعده وكتبه؛

ولو قبلوا رواية كل راوٍ لمجرد إيمان الإنسان أو إخلاصه دون نظر إلى المؤهلات التي تمكنه من الرواية، من التوثيق والحفظ والعدالة والضبط وعدم النسيان، لاختلط الكثير من حديث رسول الله ﷺ بكلام الناس؛ إن الموازين الدقيقة لعلم الجرح والتعديل، والمقاييس المنضبطة التي على ضوئها يكون القبول والرد للراوي وروايته، يمكن أن تكون معالم هادية للأمة المسلمة اليوم التي افتقدت المعايير حتى عَمِيَتْ عليها الأمور، وعجزت عن إيجاد الأمور إلى أهلها؛ إنه الاختلال الذي يكون في آخر الزمن بين يدي الساعة وإحدى أماراتها حيث يوسَّد الأمر لغير أهله، لقد أصبحنا كلّنا أهلاً لكل أمر...

وهنا لا بد من إيضاح قضية قد تختلط فيها الأفهام وتتداخل الأمور، وهي أن جرح راوٍ عند علماء الحديث لا يعني دائماً الطعن في دينه، فالطعن في دينه لا يؤهله ولا يجعله محلاً للنظر أصلاً، وإنما هي صفات وإمكانات يُنظر فيها بعد توفر شرط الإيمان، فكثيرون من علماء الحديث كانوا مع اعتقادهم بصلاح فلان يردون روايته لعدم ضبطه أو لنسيانه، وحسبنا قول بعضهم، نُقَبِّلُ يده لصلاحه ولا نقبل حديثه لوهمه أو نسيانه أو عدم ضبطه... إن هذه القضية اختلطت عند المسلمين وتداخلت إلى درجة أصبح يصعب معها التمييز والاختيار، وكثيراً ما تعاني الأعمال الإسلامية من وجود أهل الثقة والإخلاص، وافتقاد أهل الخبرة والاختصاص والصواب، بدافع أن المرشح ذو دين وإخلاص، علماً بأن قضية الإخلاص قضية مُغيَّبة مردها إلى الله تعالى، لا تنضبط وليس بمقدور الإنسان الاطلاع عليها والتحقق منها، لأنها من المعاني الباطنة غير المنضبطة على رأي الفقهاء، لذلك لا يمكن اعتمادها مقياساً، وإنما يقوَّم الإنسان بعمله الظاهر وكسبه المنظور.

إن هذا الاختلال في المعايير، وهذا التداخل في الأمور على الساحة الإسلامية سمح لألوان من المخادعة والمخادعين الذين يتدثرون بثياب الوعاظ والدعاة والقادة المؤمنين المنقذين بالتسلل إلى الصفوف فزادها ذلك ارتكاساً وإحباطاً، وأوجد خروقاً في الصف الإسلامي لا يزال ينوء بحملها... فكثيرون أولئك الذين يدخلون علينا باسم الصلاح والتقوى والإيمان والغيرة

المفاجئة على القضية الإسلامية، والمصلحة الإسلامية، وتحقيق المعاني الإسلامية الغائبة، إنه إيمان المناسبات الذي تكرر كثيراً في حياة المسلمين ولا يزال؛ عندما يكون طرح شعار الإيمان والإسلام مناسباً للابتزاز السياسي، واقتناص شعور المسلمين البسطاء لمرحلة تقتضيها الظروف والأحوال، فيبدأ التمسح بالدين، والتقرب من المتدينين لمرحلة انتخابية أو سياسية، أو بين يدي معركة عسكرية، أو لدعم كيان أو نظام يوشك على الانهيار، ثم لا يلبث الإسلام والمسلمون أن يكونوا أول الضحايا... إن هذه الحالات تتكرر اليوم على أكثر من موقع على الساحة الإسلامية، وفي إطار بعض جوانب العمل الإسلامي الذي يفترض فيه أن يكون أكثر كسباً ويقظة وانضباطاً مع المعايير الإسلامية؛ لقد افتقد كثير من المسلمين المعيار السليم للأشياء فزلَّت أقدامهم، وضلَّ سعيهم، وضاعت عليهم الجهات، وكثرت الانكسارات على الطريق الإسلامي، وغابت فراسة المؤمن الذي ينظر بنور الله عزَّ وجل وفرقان المتقي، وتكرر رفع شعار؛ «من خدعنا بالله خُدعنا به». وغاب شعار: «لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين».

ظاهرة أتاتورك

وقد تكون المشكلة كامنة في الصورة التي انتهت إليها الذهنية الإسلامية اليوم من بلاء النسيان، ذلك أن الأفراد كالأمم، لهم ماضٍ يشكل تاريخهم، وهذا التاريخ يشهد لهم أو عليهم، فإلى أي مدىً نستطيع أو نمتلك إسلامياً أن نلغي أو أن نهمل تاريخ الإنسان الطويل، ونمحو صفحة سوابقه، ونتجاهل سلوكياته ولا نعتبرها دليلاً لحاضره واستقراء لمستقبله؟ إن تاريخ الإنسان هو المفتاح الأساسي الذي يشكل المدخل السليم لفهم شخصيته، وتحديد ملامح سلوكه وتصرفه المستقبلي إلى حدٍ بعيد، وإذا أردنا اليوم أن نحدد موقع أية أمة على السلم الحضاري الإنساني، ونستقرىء قدرتها على النهوض فدليلنا إلى ذلك تاريخها الذي ترتكز إليه، وعقيدتها التي تعتنقها، ومدى صلاحية هذه العقيدة للحياة الإنسانية، ونصيبها من التطبيق والممارسة في التاريخ والواقع معاً؛

والمفارقة العجيبة أننا نحن المسلمين نصر على أن ماضي الأمة هو دليلنا على صناعة مستقبلها إلى درجة سمحت لخصوم الإسلام بوصفنا بـ «التاريخيين» الذين حصروا أنفسهم بالماضي فقط، ومع ذلك فإننا أول ضحايا السقوط في الشراك والفخاخ المنصوبة لنا من الذين يخادعوننا باسم الدين ويلبسون مسوحه، وما أسهل أن ننسى ماضيهم ومواقفهم، وتختلط عندنا الأوراق بسهولة، ونوظف بعض الآيات والأحاديث لتسويغ واقعنا المتردي: بقولنا: «عفا الله عما سلف» و«الإسلام يجبُّ ما قبله» متناسين أن ذلك إنما يكون في مجال الثواب والعقاب، وأن قبول توبة العاصي موقوف على أداء حقوق العباد، إذ لا يمكن أن يرتكب الإنسان الجرائم والمعاصي، ويعتدي على الناس، ثم يتخذ من التوبة وإعلان التمسك بأهداب الدين ملجأ يفر إليه من آثار عدوانه، وقد يقفز فوراً إلى مكان القيادة؛ ومن هنا كان تفريق الفقهاء بين حقوق الله وحقوق العباد، ولعل من ذلك ما أعلنه رسول الله ﷺ عن بعض المجرمين الذين لم يقبل إعلانهم للإسلام إلغاء جرائمهم: «اقتلوهم ولو تمسكوا بأستار الكعبة» وأبو بكر رضي الله عنه عندما نهى عن الاستعانة بمن سبق له أن ارتد في جهاد عدوٍ كان يعلم بأن الإسلام يجب ما قبله من الذنوب والآثام إن حسن الإسلام. لكن ذلك لم يغب أو يلغي سلوكه الذي يعتبر دليلاً لكيفية التعامل معه... فكيف والحالة هذه يكننا نحن أن نلغي تاريخ الإنسان وسلوكه الماضي لمجرد موقف أو مظهر قد لا نكون قادرين تماماً على إدراك دوافعه... إن جراحات المسلمين ممن خادعوهم باسم الدين، ومن ثم كانوا أدوات لتكريس الإلحاد، وجسوراً لمرور العمالة السياسية والفكرية إلى العالم الإسلامي لا تزال نازفة، فظاهرة «كمال أتاتورك» الذي تمسّح بالإسلام والغيرة على المسلمين، وحمل المصحف وطاف بالجنود مشجعاً إيَّاهم على الوقوف بجانبه ليصل إلى مأربه، حتى وصل إلى درجة استعاد به بعض شعرائنا سيرة سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه، بقوله:

«يا خالد الترك جدِّد خالد العرب»

فكان في الحقيقة السيف الذي سلّط أول ما سلّط على الرقبة المسلمة وما

أكثر الذين لبسوا ويلبسون ثياب «أتاتورك» في العالم الإسلامي حيث لا تزال تتكـرر في عالمنـا هذه الـظواهر بصـور وأشكال متعـددة، ولسنا الآن بسبيـل الاستقصاء لذلك، وليس بعيداً عن ذهننا كيف أن «نابليون» الذي غزا مصر أعلن إعجابه بالإسلام، وغيَّر اسمه، وخادع بعض المسلمين، وكيف أن كثيراً من الماركسيين اليوم في العالم الإسلامي بعد أن اكتشفوا أن بوابته موصدة أمام أفكارهم راحوا يفتشون عن المداخل التي تمكنهم من الوصول إلى الشخصية الإسلامية من خلال بعض مبادىء الإسلام نفسه، ولا مانع في سبيل ذلك عند بعضهم من الظهور بالمظهر الإسلامي إذا كـان الدور الـذي نيط به يتـطلب ذلك!! فإلى متى يبقى المسلم سهل المأخذ؟!

تفسير الظواهر السلوكية..

ومع الأسف لم تنج بعض جـوانب العمل الإسـلامي من هذا التسلل الذي يتم غالباً ضمن الأنفاق المظلمة والممارسات السرية؛ وفي رأينا أن الذهنية الإسلامية بشكل عام لم تحاول بعد الدخول إلى دراسة الدوافع والأسباب التي تكمن وراء سلوك معين، وتستهدي بالتاريخ والماضي السلوكي للأشخاص، ذلك أن تحديد الدوافع. وتفسير الـظواهر السلوكيـة يفيدهـا كثيراً في تحـديد المـواقف والتعرف عـلى كيفية التعـامل، فـلا نخدع، لأن الجحـور والفخاخ المنصوبة للمسلمين عميقة القاع.

إن تحديد المواقف وتحليل الشخصيات على ضوء ماضيها وسلوكها أصبح علماً له مرتكزاته ونتائجه التي لا تكاد تخطىء، وإن كانت لا تصل إلى درجة الصرامة الرياضية، لكنها على كـل حال من أقـرب إلى الصواب وأبعـد عن الخطأ وقد يفيدنا كثيراً اليوم منهج علماء الحديث الذي يقدم الشك على اليقين أداء للأمانة الإسلامية.

لقد أصبح لكل إنسان عند الأمم المتقدمة ملف، هو أشبه بـ «صحيفة السوابق» التي تحتفظ بها سلطات الأمن، ليكـون دليلاً لتـوجهاتـه، واستقراء

لمستقبله والتنبؤ بمواقفه وتصرفاته مسبقاً، فيكون الحذر، ويكون التعامل السليم... وظواهر المخادعة باسم القيم والمبادىء موجودة في كل زمان ومكان، لكن مخاطرها تتعاظم عندما يضعف المجتمع، ويفتقد معاييره التي تشكل الأسلحة الحقيقية لحمايته، فالمجتمع الإسلامي الأول لم يخل من ظاهرة النفاق ووجود المنافقين الذين عاشوا ضمن الصف الإسلامي، ورفعوا شعائر الإسلام حتى إن زعيمهم «عبدالله بن أُبي بن سلول» ـ الذي كان يُصنع له الخرز ليتوج قبل الإسلام زعيماً على المدينة التحق بالركب الإسلامي الذي أصبح قدراً لا يمكن الخروج عليه ـ كان يصلي في الصف الأول، ويحسن الاستماع إلى الرسول ﷺ وهو يخطب، حتى وصل به الأمر إلى تعنيف كل من لا يحسن السماع، لكنه في الحقيقة هو الذي تولى كِبْر الإفك وبدأ بالتخريب من بيت الرسول ﷺ وأثار الاضطراب والعصبية الجاهلية في غزوة بني المصطلق، وانعطف من قَبْلُ بكثير من الناس ونكص على عقبيه يوم أحد؛ ولم يتورع المنافقون عن بناء مسجد الضرار ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾ (التوبة: ١٠٧) لكن قوة المجتمع الإسلامي وسلامة معاييره حالت دون سقوطه في حفر المنافقين، لقد بيَّن الله تعالى من الخصائص والصفات والأعمال والسلوكيات التي لو وعيناها لجعلتنا في مأمن من النفاق والمنافقين، لكن بشرط أن نستعملها كمقاييس تشكل أسلحة الحماية ـ كما أسلفنا ـ للأمة، فعلى الرغم من ظهور المنافقين بالصورة الإسلامية، وشدة حماسهم لها في بعض الأحيان، إلاَّ أن ذلك لم يغير من تعامل المجتمع الإسلامي معهم، ولم يوكلِ الرسول ﷺ لهم أية مهمة ذات شأن، على الرغم من ديمومة معاملتهم معاملة إسلامية، وقبل وفاته ﷺ ائتمن على أسمائهم حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ليبقى صمام أمن لمجتمع المسلمين، فلا يتسللون إلى المواقع الإسلامية الفاعلة المؤثرة.

فهل يعي المسلمون اليوم، فيأخذوا حذرهم، وتبدأ في حياتهم مرحلة استعمال المعايير الإسلامية في تقويم الأشخاص وحسن التعامل معهم في ضوء

ذلك سواء على الساحة الإسلامية ـ وهي الأهم ـ أو على الساحة العالمية بشكل عام، بشرط أن يتوقف شد هذه المعايير باتجاه المواقف الشخصية والحزبية لتبقى معايير موضوعية موصلة إلى نتائج موضوعية صادقة؟! وهل يعتصم المسلمون بهذه المعايير في الحكم على الأشخاص وكيفية التعامل معهم؟! وهل يلتزمون منهج عمر بن الخطاب رضي الله عنه بضرورة الاختبار السلوكي التعاملي لـلإنسان وعدم الاكتفاء بمظاهر العبادة وأردية التقوى؟ فتكون الحصانة وتتحقق الضمانة من المخاطر التي ما تزال تنهـك المسيرة الإسـلامية.. والله الهـادي إلى سواء السبيل.

[رجب ١٤٠٥هـ ـ آذار ـ نيسان (مارس ـ أبريل) ١٩٨٥م]

إسرائيل تستقبل الهجرة الرابعة

إن المدد الرئيس للاستعمار الاستيطاني الذي يشكل العمود الفقري للكيان الصهيوني ـ ورموزه وقياداته الأولى في فلسطين ـ كان من أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي.. ولا يزال

ولا شك أن إسرائيل ـ بدافع من مصلحتها ـ قد لا ترى هجرة بعض يهود أوروبا الغربية وأمريكا، حيث تضمن لنفسها هناك استمرار التحكم بإدارة وتوجيه تلك المجتمعات، والمشاركة في حقول التجارب والدراسات التكنولوجية المتقدمة التي تحقق ليهود نصيب الأسد فيها؛ ذلك أن اليهود يشغلون في أمريكا اليوم أعلى المنابر التعليمية وأكثرها تأثيراً في الجامعات والإعلام والصحافة، إلى جانب المساهمة بتطوير التكنولوجيا والتخصصات النادرة..

* * *

عملية موسى.. والتفسير التوراتي

من المفارقات الغريبة حقاً في عالم اليوم أن تُقبل اليهودية بوجهها الصهيوني عقيدةً دينية عنصرية معتدية غازية، ويُحارب الإسلام ويُتهم أصحابه بالتطرف، ويُرفَض عقيدةً مدافعة لرد العدوان وإعادة الحقوق المغتصبة إلى أهلها، ولو كان هذا مقتصراً على الأعداء لهان الأمر، وبدا طبيعياً نوعاً ما، لكن المشكلة أن تتسلل بعض المقولات والمغالطات إلى عالم المسلمين، فيسقط بعضهم في الفخاخ المنصوبة له، ومن ثم يحاول إقصاء العقيدة المجاهدة

والطاقات الإسلامية الفاعلة عن ساحة المعركة، بالدعوة إلى إقامة الدولة العلمانية وممارسة ذلك عملياً بمشاركة بعض أجنحة العدو الإسرائيلي في تشكيل المؤسسات المهنية أو العقيدية تحت شعار التقدمية والعالمية متجاهلاً في ذلك التاريخ والواقع معاً!!

وبذلك يساهمون بالتحضير لقبول العدو، قصدوا إلى ذلك أو وقعوا فيه ضحية لعدم القدرة على البصارة والاعتبار، والإصرار على القراءة بأبجدية مغلوطة.

إسرائيل تقوم على الرؤية الدينية التوراتية وتحاول ضبط منطلقاتها، وتفسير ممارساتها، وحمل العالم كله على التسليم بهذه الرؤية ومحاسبته على ضوء ذلك وهذا الأمر لم يعد موضع نقاش، سواء في ذلك من اعتبر الأمر نوعاً من توظيف الدين لخدمة أغراض استعمارية استيطانية إمبريالية رجعية (!!) واضطر في سبيل ذلك إلى اعتبار اليهودية كدين شيئاً، والصهيونية كنزعة استعمارية توظف اليهودية لتحقيق غاياتها شيئاً آخر؛ أو من اعتبر الصهيونية هي الوجه الآخر لليهودية المعمول بها التي قامت أصلاً على العنصرية والتعالي من خلال عقيدة الشعب المختار... فالتسميات للأماكن والمستعمرات دينية، وحفر القبور ونبش الصخور يرمي إلى هدف ديني وإثبات حق موهوم، والتهويد للتاريخ ومناهج التعليم، والتفسير التوراتي للأحداث، وإسقاط المفهومات الدينية على الحياة اليومية، ومحاولة شحذ فعّالية اليهود في بقاع الأرض كلها وربطهم بالرؤية التوراتية الدينية أمور لا تحتاج إلى استدلال، ولم يبق فيها استزادة لمستزيد، ولعل في تسمية عملية نقل يهود إثيوبيا (الفلاشا) أو ما أُسمي بحق: الهجرة الرابعة باسم «عملية موسى» تأسِّياً ومحاكاة وتشبهاً بخروج موسى عليه السلام ببني إسرائيل من ظلم فرعون ومَلَئِهِ من أفريقيا إلى آسيا، إلى الأرض المقدسة، ما يؤكد التفسير الديني التوراتي للتاريخ والواقع، والذي يرجع إلى أسماء الأماكن في الضفة الغربية (يهودا والسامرة) والجولان، وإعادة تسمية الأحياء والمستعمرات حتى الأراضي التي احتلها يهود حديثاً في جنوبي لبنان أوجدت إسرائيل لها التسميات الدينية التوراتية، وأطلقت على أعمالها العسكرية

التسميات الدينية أيضاً، وحاولت إيجاد الصيغ والأصول الدينية المشتركة مع بعض الطوائف، وبذلك تزرع الألغام الطائفية، وتوقظ الروح الإقليمية والعنصرية الضيقة، فالنصارى في لبنان يلتقون معها على «العهد القديم» ولا علاقة لهم بالعروبة والإسلام، وللدروز معها علاقة مصاهرةحيث تزوج موسى عليه السلام ابنة النبي شعيب عليه السلام!!

العنصر البشري والمواقع المؤثرة..

وهكذا تمضي «إسرائيل» في تحقيق الحلم الديني التوراتي ليهود العالم الذي ظلت تبشر به ألفي عام، وتستورد له المهاجرين من جميع أنحاء العالم بثقافاته وسلالاته وحضاراته ولغاته وعاداته المختلفة تستوردهم إلى أرض الميعاد!! وتقر ما أسمي بـ «قانون العودة» مع الخطوات الأولى لبناء الدولة اليهودية الذي يحق بموجبه لكل يهودي في العالم أن يعود إلى «إسرائيل» ويكتسب بمجرد عودته الجنسية وكامل الحقوق... وبمجرد أن طُرح التشكيك بيهودية (الفلاشا) لأنهم يعتقدون بالتوراة فقط الكتاب المقدس الأساسي ويراعون تعاليم السبت والصيام والختان، غير أن التلمود يبدو أنه لم يصل إليهم على الإطلاق بسبب عزلتهم الجغرافية أصدر «أوفاديا يوسف» زعيم السفارديم عام ١٩٧٢م إعلاناً رسمياً بأن (الفلاشا) من اليهود فعلاً، وهم بالأصل من قبيلة «دان» سكان الأرض المقدسة في منطقة «جوبلي» الواقعة الآن جنوبي الجزيرة العربية!! ثم قررت لجنة حكومية أن اليهود الإثيوبيين يخضعون لقانون العودة الإسرائيلي الذي يمنح اليهود جميعهم حق المواطنة المدنية والجنسية الإسرائيلية فور وصولهم «إسرائيل»، يقول «دافيد هارتمان» مدير معهد «شالوم للدراسات اليهودية المقدسة» في القدس:

[... لا يهم أن يكون اليهود من السود أو الصفر... لقد وصل (الفلاشا) هنا لأن الشعب اليهودي مرتبط بميثاق إبراهيم] (التايم الأمريكية يناير «كانون الثاني» ١٩٨٥م) وقال «بيريز» رئيس حكومة العدو: [... إننا أبناء

شعب واحد، ولا يمكن لأي قوة في العالم أن تبقينا منفصلين، إن أشقاءنا يهود إثيوبيا ينتظرون الهجرة إلى «إسرائيل» منذ ألفين وستمائة عام. . .].

لقد أدركت «إسرائيل» منذ اللحظات الأولى، وفي طريقها إلى إقامة الدولة، أن مشكلتها لن تحل إلاّ باجتذاب اليهود من جميع أنحاء العالم، ولعل من أوائل التشريعات على عتبة الدولة كان قانون العودة ـ كما أسلفنا ـ، ذلك أن النمو السكاني العربي في الأرض المحتلة قد يغرق «إسرائيل» في سيل بشري لا تستطيع مواجهته مستقبلاً، كما أن أحلامها في التوسع وإقامة المستعمرات وملء الأراضي المحتلة الجديدة في الضفة الغربية والجولان لا تتحقق إلاّ بالمزيد من الهجرات من جانب، ومحاولة تهجير العرب وتعقيم إنسانهم من جانب آخر. . .

إن العنصر البشري، أو الاستعمار الاستيطاني كان دائماً هو الأخطر في القضية الفلسطينية، والهجرة هي الروح المستمر الذي يضمن لـ «إسرائيل» ديمومة الحياة، فهي دماء جديدة، مهما كانت سويتها، للجسم الإسرائيلي، ذلك أن عشرات المستوطنات في الضفة الغربية والجولان لا تزال فارغة بانتظار المهاجر الجديد؛ ولا شك أن «إسرائيل» بدافع من مصلحتها قد لا ترى هجرة بعض يهود أوروبا الغربية وأمريكا وبذلك تضمن لنفسها هناك استمرار التحكم بإدارة وتوجيه تلك المجتمعات، والمشاركة في حقول التجارب والدراسات التكنولوجية المتقدمة التي تحقق ليهود نصيب الأسد فيها، ذلك أن اليهود يشغلون في أمريكا اليوم أعلى المنابر التعليمية وأكثرها تأثيراً في الجامعات والإعلام والصحافة إلى جانب المساهمة بتطوير التكنولوجيا والتخصصات النادرة. . . فكيف لا يؤثرون على المجتمع الأمريكي، وهل يُحتمل أن يؤثر عليه من لا يمتلكون من المؤهلات إلاّ قوة حناجرهم في ارتفاع أصواتهم واشتداد احتجاجاتهم!؟

الحركة الصهيونية وأسد يهوذا . .

ومن الأمور التي لا يختلف عليها اثنان أن المدد الرئيس للاستعمار الاستيطاني الذي كان يشكل العمود الفقري للكيان الصهيوني دائماً، ورموزه

وقياداته الأولى في فلسطين كان من أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي على وجه الخصوص، ولا تزال قضية هجرة اليهود من روسيا تأخذ دائماً مكان الأولوية في محادثات «الوفاق الدولي» بين روسيا وأمريكـا، في مطلع السبعينيـات عقدت صفقة وفاق بين «موسكو وواشنطن» تقضي بترحيل ثلاثين ألف يهودي سنوياً من روسيا مقابل توفير القمح وتأمين التكنولوجيا المتقدمة من الولايات المتحدة، لقد كان تقديم القمح الأمريكي رهيناً بهجرة يهود!!

ولا شك بأن الاتحاد السوفييتي مصدر الهجرات الأولى، كان من أوائل الدول التي صوتت لصـالح قـرار التقسيم عام ١٩٤٧م والدولة الثانيـة التي اعترفت بالكيان الصهيوني بعد الولايات المتحدة، الذي سوغ هذا بما جاء على لسان مندوبه بالأمم المتحدة يومذاك ووزير خارجيته اليوم «أندريه غروميكو»:

[. . . إن الدول الغربية قد أثبتت عجزها في الدفاع عن الحقوق الأولية للشعب اليهودي، وهذا ما يبرر طموح اليهود إلى إنشاء دولتهم بأنفسهم، ومن غير العدل أن لا نوافق على هذا الطموح، أو أن ننكر حق الشعب اليهودي في تحقيق ما يصبو إليه. . .].

وفي عام ١٩٤٩م صوت مرة أخرى لصالح دولة العدو عنـد احتلالهـا «النقب» ووصف الجيوش العربية التي دخلت لتساهم بتحـرير فلسـطين عام ١٩٤٨م بالعصابات المسلحة، وقد نشرت صحيفة «معـاريف» الإسرائيلية بتـاريـخ ٢٢ نـوفمـبر [تشرين الثـاني] ١٩٦٤م تصريحـاً للملحق العسكـري السوفييتي، جاء فيه قوله:

[. . . إننـا نشارك العـرب في مكافحـة الاستعمار والـرجعية، ولكن لا نشاركهم في العدوان على إسرائيل، ولقد كان موقفنا منذ البدء معارضاً أشد المعارضة للعدوان العربي الرجعي، بل نحن أعربنا عن تأييدنـا لـ «إسرائيل» بالسلاح والمال في أشد أوقات الأزمة الفلسطينية يوم كانت حركة التحرر الوطني اليهودي بأمسّ الحاجة. . .].

ثم توالت الهجرات ولم تنقطع، ففي عام ١٩٥٠م هاجر إلى «إسرائيل

ستون ألف يهودي من اليمن عبر جسر جوي بين عدن و«إسرائيل»، ومن ثم كانت الهجرة الثانية من العراق عام ١٩٥١م عن طريق قبرص، والهجرة الثالثة جاءت من شمالي أفريقيا بين عام ١٩٥٦ و١٩٦٢م عن طريق فرنسا، وكانت ستة وسبعين ألف يهودي. . . وتستقبل «إسرائيل» الآن الهجرة الرابعة: يهود (الفلاشا) من الحبشة، وعلى خلاف الصورة الظاهرة التي يخدع بها الكثيرون في عالمنا الإسلامي، فهناك علاقات تاريخية بين إثيوبيا و«إسرائيل» ابتداءً من أسد يهوذا «هيلا سلاسي» وانتهاءً بـ«هيلا مريم» بالرغم عن السياسة الماركسية المعلنة، ذلك أن امبراطور الحبشة كان يعتقد أنه ينحدر من نسل «منليك الأول» ابن سليمان وملكة سبأ، وكانت نجمة داود تزين علم الحرس الأمبراطوري، ولم ينس أنه لجأ إلى القدس عندما احتلت قوات «موسوليني» إثيوبيا، والتقى هناك بزعماء الحركة الصهيونية الذين أصبحوا فيما بعد قادة الدولة، وكانوا يقرون للامبراطور بأنه أسد يهوذا!!

و«إسرائيل» هي التي أخبرت «هيلا سلاسي» بالتمرد الذي حصل سنة ١٩٦٠م عندما كان في الأرجنتين، وبن غوريون هو الذي أمر فوراً بإعادة السلطة للامبراطور وقمع التمرد على يد المخابرات الإسرائيلية، وكان الثمن: اعتراف إثيوبيا رسمياً بإسرائيل عام ١٩٦١م وفي عام ١٩٧٣م عجز الامبراطور عن الحصول على أسلحة أمريكية لمواجهة الدولتين المسلمتين: السودان والصومال، وقمع حركات التحرير في أريتريا وأوغادين بعد أن حصلت الصومال على أسلحة سوفييتية متقدمة، عندما كان الاتحاد السوفييتي يراهن عليها في أفريقيا، وكان لليهود دور في الولايات المتحدة أدى إلى حصول الإمبراطور على الأسلحة المطلوبة.

صفقات نصرانية ماركسية . .

والمعروف أن إثيوبيا هي الدولة الوحيدة غير الإسلامية التي تطل على البحر الأحمر، ومن هنا التقت أهداف «هيلا سلاسي» و«بن غوريون» في أن لا يتحول البحر الأحمر إلى بحر عربي إسلامي، لذلك فتح «هيلا سلاسي» بلاده

للخبراء والفنيين الإسرائيليين، وتشكل البوليس الإثيوبي على النمط الإسرائيلي، كما أن الجيش الإسرائيلي تولى تدريب الجيش الإثيوبي بصورة كاملة حتى إن «منغستو هيلا مريم» نفسه تدرب في «إسرائيل».

وعند قيام الانقلاب الماركسي عام ١٩٧٤م فوجىء العالم بطلب قادة الانقلاب من «إسرائيل» زيادة عدد مشاريعها وتعزيز كميات السلاح التي تسلمها الجيش الإثيوبي لأن النزاعات في «أوغادين» و«إريتريا» تهدد وحدة إثيوبيا، مقابل السماح ليهود إثيوبيا (الفلاشا) بمغادرتها، واشترط «هيلا مريم» بقاء الصفقات سرية حتى لا يغضب الرفاق العرب وليضمن استمرار مساعداتهم المادية.

فالعلاقة بين «إسرائيل» و«إثيوبيا» ـ كما تراها إثيوبيا وإسرائيل على حدٍ سواء ـ استراتيجية تمليها المصالح المشتركة، وهذه المصالح تقضي بأن تبقى «إثيوبيا» قوية سواء أكانت نصرانية أو ماركسية أو نصرانية ماركسية، وقد صرح رئيس إثيوبيا، والأمين العام للحزب الشيوعي فيها «منغستو هيلا مريم» بأن إثيوبيا تواجه الزحف الإسلامي في أفريقيا ويجب على النصارى كلهم مساندتها. . .

كما أن نفاذ «إسرائيل» إلى أفريقيا، وحسم نزاع القرن الإفريقي أمران رئيسان في الاستراتيجية الإسرائيلية، فإغلاق باب المندب أمر قاتل لـ «إسرائيل» ومن أجله مع ـ مضائق تيران ـ كانت حرب عام ١٩٥٦م ثم حرب ١٩٦٧م، فـ«إسرائيل» سلحت «إثيوبيا» ولا تزال تسلحها بالرغم من السياسة الماركسية المعلنة، وهناك قواعد عسكرية إسرائيلية في البحر الأحمر، وقسم من هذه القواعد مقابل الساحل الإريتري منذ حوالي تسع سنوات، وهناك مزارع كاملة في «إثيوبيا» يسيطر عليها الإسرائيليون، ويسيطرون على المسالخ بكاملها، والدور الاقتصادي لشركة «انكودي» معروف منذ عهد الإمبراطور.

التدريب العسكري ودروس التوراة. .

ولسنا الآن بسبيل استقراء الخلفيات السياسية والفكرية لمواطن الهجرات

اليهودية، وقدرة يهود على المراهنة على أكثر من جواد في السباق الدولي ليكون نصيبهم متحققاً دائماً إلى جانب تبادل الأدوار وبراعتهم في ممارسة لعبة «اليمين واليسار» بينما نحن في عالمنا، لسبب أو لآخر، كان رهاننا غالباً على الجواد الخاسر!! فالعلاقات بين إسرائيل وإثيوبيا تاريخية، ولم تعوزها الرؤية الدينية والتفسير التوراتي، وعملية تهجير (الفلاشا) والإعداد لها بدأ منذ عام ١٩٧٤م عندما تأسست الجمعية الأمريكية لإنقاذ يهود الحبشة، ودخلت حيز التنفيذ عام ١٩٧٨م، وطرح موضوع (الفلاشا) المجلس الاتحادي اليهودي الذي عقد بمدينة «سان فرانسيسكو» وأثار رئيس اتحاد الطلاب الكنديين اليهود «ستيفن بومان» هذه المسألة معتبراً أنها مسألة حيوية لسلامة مجموعة منسية، وقال «ستيفن مونتانج» المسؤول عن الشبكة العالمية للأحياء:

[. . . أنا لا أحب أن يواجهني أي فلاشي بعد أربعين سنة بالسؤال الذي واجهنا به الآخرون: تُرى أين كنت عندما تعرض أهلي للمآسي؟!

وتقول مجلة «جويش برس» التي يصدرها يهود الولايات المتحدة في عددها الأخير:

[إن عدد المهاجرين وصل إلى ثمانية آلاف، وإن عملية التهجير والاستيعاب والتجنيس بقيت مستمرة خمسة وعشرين عاماً. . .] أي: من عهد «هيلا سلاسي».

أما «موسى جيلو» أحد كبار المسؤولين في وزارة الخارجية الإسرائيلية، فيقول:

[. . . كان هناك دائماً رباط يجمع بين شعبي إسرائيل وإثيوبيا، وعلى الرغم من توتر العلاقات السياسية الظاهر بين الحكومتين، فهناك تعاون بينهما على الصعيد العسكري والتكنولوجي والزراعي. . .].

ولا شك عندنا أن هؤلاء المهاجرين الجدد الذين شهدوا ظروفاً صعبة سيشكلون قوة عسكرية شرسة مستعدة للقتال حتى الموت عن البلد الذي

أنقذهم من الموت جوعاً إلى جانب ما يُشْحَنون به من رؤية توراتية دينية، وقد بدأ، فعلاً، التدريب العسكري والتدريس في التوراة جنباً إلى جنب من أول يوم لوصولهم إلى الأراضي المحتلة، وسوف يشكلون أيضاً أحزمة أمن، وأيادي عاملة للمهن الدنيا التي تتناسب مع فقر ثقافتهم وتدنِّي سويتهم الحضارية، بينما يتوفر اليهود الآخرون للصناعات الدقيقة، وسوف يملؤون المستعمرات الفارغة في الضفة والجولان التي تنتظرهم إلى جانب ما تبهر به إسرائيل العالم من أعمال خارقة ـ تبدو إنسانية في ظاهرها ـ يقف العالم أمامها مشدوهاً؛ وقد لا يكون غريباً ولا مذهلاً في العالم الإسلامي اليوم أن تبدأ عملية هجرة يهود (الفلاشا) منذ عام ١٩٧٤م وأجهزة الأمن والاستخبارات غائبة غياباً تاماً، لأن عندها ما يشغلها، فهي تستنفد جهدها في مهمات داخلية، وتأمين الحماية لأولياء نعمتها. . . وكذلك رجال السلك الدبلوماسي وسفارات بعض بلدان العالم الإسلامي فإن اهتماماتها الخاصة لا تسمح لها بوقت كاف تؤدي فيه واجبها. . .

هجرة العقول . .

والمسؤولون في العالم الإسلامي في حالة عجز كامل تجاه ذلك، بل لقد وجد بعضهم في ذلك فرصة للاتهام والابتزاز السياسي وزيادة التمزق والتشرذم، وبعضنا استعذب الاستغناء بالكلمة عن الفعل، واكتفى برفع الشعارات عن الشعور بالمسؤولية وأداء الواجب، أما بعضنا الآخر فتستغرقه الأماني ويعيش أحلام اليقظة، ويمارس حالة الانتظار والتواكل ليسقط المجتمع الإسرائيلي من تلقاء نفسه ومن خلال أمراضه وأزماته الاقتصادية وهجراته المعاكسة والفوارق الحضارية في تركيبه السكاني!! إلى درجة وصل فيها بعض الكتَّاب في العالم الإسلامي إلى الإشفاق على «إسرائيل» من هذه الكارثةِ الحضارية الجديدة!!

هذا إلى جانب الإحباط الذي لا شك في أنه أصاب كثيراً من التقدميين الذين كانوا يراهنون على حزب العمل حيث كان يتصدر المؤتمرات الدولية غير الرسمية إلى جانبهم، ويَعِدُ بأنه ضد سياسة المستعمرات واحتلال الأرض، وإذا

به يتفق مع الليكود على إنشاء ست مستوطنات جديدة في الضفة الغربية قبل الخريف القادم دون أن يدروا أن يهود اتقنوا لعبة «اليمين واليسار» وأن بعض أبناء جلدتنا ضحايا سذَّج لما يرسم لهم. . .

ولا نريد هنا أن نتكلم بالمقابل عن أسباب هجرات العقول والسواعد معاً من العالم الإسلامي إلى دول أوروبا الغربية والولايات المتحدة بسبب من الاستبداد السياسي، الأمر الذي يزيد من تخلفنا ويحرمنا خيرة أبنائنا؛ ولا عن الهجرات والغربة داخل الأوطان حيث تتعطل الطاقات ويعتمد أهل الثقة والولاء، ويطرد أهل الخبرة الأكفياء، بل نكتفي بما ذكره الأستاذ محمد الصالح عزيز في «هجرة العقول المسلمة» على الصفحة السابعة والسبعين من هذا العدد، وما أورده الدكتور محمد كامل رئيس أكاديمية البحث العلمي في مصر في المؤتمر الذي بدأ جلساته بجامعة الدول العربية عن هجرة العقول:

[. . .لقد بلغ الأمر خلال النصف الأول من السبعينيات في أمريكا على سبيل المثال: أن الأطباء والجراحين القادمين من الدول النامية (معظمها من العالم الإسلامي) يمثلون ٥٠٪ والمهندسين ٢٦٪ من مجمل القوة البشرية المضافة إلى الرصيد القومي الأمريكي، كما تشير التقارير إلى أن ثلاث دول من دول الشمال (أمريكا ـ كندا ـ بريطانيا) تستأثر بنسبة كبيرة تصل إلى ٧٥٪ من جملة التدفق في العقول المهاجرة من العالم النامي، حتى بلغ متوسط الوفر في نفقات التعليم والتدريب في أمريكا نتيجة لهجرة كفاءات الدول النامية إليها نحو بليون دولار سنوياً.

ولقد فقدت مصر وحدها أكثر من ثلاثمائة وخمسين ألف مواطن الغالبية منهم من حملة المؤهلات العلمية العالية، مثل: الماجستير والدكتوراه، ومعظمهم استقر في البلاد المتقدمة] (الأهرام ٥ يناير «كانون الثاني» ١٩٨٥م). هذا عن هجرة العقول، أما هجرة السواعد فالله أعلم بها.

ولا سبيل في هذه العجالة إلى الكلام عن معاناة المهاجرين من بعض بلدان العالم الإسلامي إلى بعضها الآخر وما يعاملون به من غياب لميزان

الكرامة الذي شرعه الإسلام ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وتجاوز لحقوق الأخوة الإسلامية. . .

إنها المقدمات التي نرى ونعيش نتائجها في واقع مجتمعاتنا اليـوم، فهل يكون لنا من عدونا درس وعبرة، فنعيد النظر بمواقفنا على مختلف الأصعدة، ونحدد الخلل أم نواصل الاصرار على السير في الطريق المسدود؟!.

[جمادىٰ الآخرة ١٤٠٥هـ - آذار (مارس) ١٩٨٥م]

هل يحقق القياصرة الجدد الحلم القديم ؟!

إن قضية أفغانستان وقضية فلسطين هما المحك الذي أسقط الكثير من الأقنعة، ذلك أن «اليسار» في العالم الإسلامي لم يستطع التخلص من التبعية السياسية، على الرغم من كل دعاواه وادعاءاته للوطنية؛ فقد كان عاجزاً حتى عن المواقف الإنسانية وعاجزاً عن الانسجام مع مقدماته، وقد تكون مشكلته أنه لا يرى إلاّ بعين واحدة ولا يستطيع أن يرى إلا عدواً واحداً، ذلك أن الذي يتحدث عن الغزو الاستعماري الشيوعي يجب أن يكون بالضرورة عميلاً أمريكياً، فالذبح والدمار في أفغانستان إنما يتم على الطريقة التقدمية بينما كان في «فيتنام» استعماراً وغزواً رجعياً، وقضية الانتصار لـ «فيتنام» عنده مقدمة على قضية المسلمين المركزية ـ فلسطين ـ أما اليوم فهو في وضع لا يحسد عليه؛ فلا مجال عنده للحديث عن الغزو السوفييتي لأفغانستان لأنه سيكون ـ حسب زعمه ـ على حساب قضية فلسطين!!

* * *

أعشاب ضارة في الحقل الإسلامي

«لا ينام الأفغاني عن الثأر، ولا يقبل أن يطأ الأجنبي أرضه، ولا يواطىء العدو على استقلال بلده، فمع أن بعض القبائل المجاورة للهند كانت شديدة الاختلاط بأحوال الإنكليز فإنها لم تواطىء الإنكليز على بلادها، ولم تمكِّن لهم من أرضها كما صنع كثير غيرها. . .» [شكيب أرسلان في حواشيه على «حاضر العالم الإسلامي»].

هذا القول يمكن أن يعتبر إلى حدٍ بعيد المفتاح الذي يُمكِّن من إدراك أبعاد المواجهة الجهادية في القضية الأفغانية تاريخياً، كما أنه يلقي الأضواء الضرورية لتفسير كثير من صور المواجهة، والقدرة على استمرار المعركة والصمود أمام أعتى صور البغي والطغيان التي تمتلك أحدث ما ابتكره العقل البشري من وسائل التدمير والفتك؛ ويمكننا القول: إن الجهاد الإسلامي في أفغانستان ـ بإيمانه الكبير ووسائله القتالية البسيطة ـ استطاع أن يدمي أنف الجيش الروسي ويمرغ وجهه في التراب، وليس من شك أن أفغانستان استعصت تاريخياً على الغزاة والمستعمرين كلهم، ولم تقبل إلاَّ الإسلام وأهله، حتى إن بريطانيا في أوج عظمتها عجزت عن الاستقرار والثبات هناك، وألحق بها الأفغانيون أفدح الخسائر حيث خسرت جيشاً كاملاً قوامه ستة عشر ألف جندي، واضطرت إلى الاعتراف لأفغانستان بالاستقلال في النهاية، ولعلَّ في هذا دليلاً وأملاً يؤكده الواقع منذ بدأ السوفييت غزو أفغانستان حيث تمكن المجاهدون من المواجهة المستمرة ـ برغم أسلحة العدو المعقدة والظروف الصعبة التي يعيشونها ـ والاحتفاظ بتسعين بالمائة من الأراضي الأفغانية، وإيقاع الهزيمة بكبرى القوى العالمية في أكثر من موقع؛ لقد دللوا بإيمانهم على أن الإنسان هو الذي يحمل السلاح، وليس السلاح هو الذي يحمل الإنسان، فهم يحملون السلاح أمَّا عدوهم فالسلاح يحمله، وأي نصر أكبر من هذا يمكن أن يتحقق، أو يمكن أن يُطلب إليهم تحقيقه!! في الوقت الذي عجزت بعض الجيوش في عالم المسلمين ـ عندما حاولت دخول المعارك ببدائل فكرية مستوردة، ورايات جاهلية عميَّة ـ عن الصمود أمام عدوها في معارك جزئية لستِّ ساعات، أو ستة أيام...

لقد أدركت الشيوعية أن بوابة العالم الإسلامي ستبقى موصدة في وجهها، فكان لا بد لها من إيجاد المداخل من خلال المسلمين أنفسهم، حيث أخضعت البعثات العسكرية والتعليمية لصناعة فكرية وتدريبية خاصة ليكون أفرادها بعد عودتهم إلى بلادهم أدوات التبعية الفكرية التي تستدعي العمالة السياسية بالضرورة؛ ومن خلال بعض المبادىء الإسلامية التي تدعو إلى التكافل والعدالة الاجتماعية تتسلل منها لتحاول خداع بسطاء المسلمين بأن

الدعوة الشيوعية ليست غريبة عن طبيعة ما دعا إليه الإسلام، ولا بد من الاعتراف بأن الماركسية استطاعت زراعة أعشاب ضارة في الحقل الإسلامي تدعو إلى ما يسمى بـ «اليسار الإسلامي» تستورد جميع الشعارات والمصطلحات الشيوعية، وتلحق بها كلمة «إسلامي»، وتمارس القراءة الانتقائية للتشريع والتاريخ الإسلامي بأبجدية ماركسية، وبذلك تقيم ركائز التبعية الفكرية والعمالة السياسية كما أسلفنا...

وحسبنا أن ندرك المخاطر المستقبلية لترحيل حوالي خمسة وعشرين ألف طفل أفغاني إلى الاتحاد السوفييتي لغسل أدمغتهم، وتنشئتهم على المبادىء الماركسية، (الزمن يغير كل شيء ففي السنوات العشر أو العشرين المقبلة سوف ينظر الجيل الأفغاني الجديد إلى وجودنا بصورة مغايرة [النيوزويك]) ونحن في العالم الإسلامي لا نزال بعد هذه السنوات من المواجهة والصمود في وضع لا نحسد عليه، نجود لكن بالمزيد من الكلام، وبعضنا قد يجود بفضلات أمواله وطعامه، ويسيطر علينا الخزي والعجز، ونحسن عملية البكاء على الأطلال التي بدأها بالأندلس أبو عبدالله الصغير ويلتزمها اليوم أحفاده كلهم وفاء وأمانة!!

فأين المدارس الابتدائية والثانوية؟ وأين الجامعات التي تفتح أبوابها لإيواء أبناء المسلمين الأفغان، تحصنهم بالثقافة الإسلامية وتحول دون تذويبهم في المبادىء الماركسية؟! إن خطوة عملية على الطريق الصحيحة لا تعدلها أنهارٌ من الدموع...

قبل أن تسرقهم الشيوعية

إن أفغانستان ـ التي تعتبر من الناحية الجغرافية والبشرية امتداداً طبيعياً للمنطقة الإسلامية التي احتلتها روسيا ـ قد استعصت على القياصرة في الماضي؛ الذين كانوا يحلمون بضمها والوصول إلى المياه الدافئة في الخليج، فجاء القياصرة الجدد باسم الشيوعية، وضموا هناك مختلف الجمهوريات الإسلامية، ذلك أن محاولاتهم واعتداءاتهم بدأت مبكرة، فقد صادروا ماشية المسلمين

المنتمين إلى قبائل «الكزاخ» عام ١٩٢٦م، واستشهد كثير من المسلمين على أيدي الشيوعيين الذين تمكنوا - فيما بعد - من الاستيلاء بالقوة على مساحة من هذه المنطقة تتجاوز ثلث مساحة الاتحاد السوفييتي، ثم كان التخطيط السوفييتي البعيد لوضع أفغانستان في فلكه، لأن مجيء البديل الإسلامي سوف يكون مصدر خطر دائم على الوجود السوفييتي، وذلك بإيقاظ الوعي الإسلامي في الجمهوريات الإسلامية التي احتلها واستعبدها. . . وقبل الغزو الروسي بعشرين عاماً كانت روسيا تعد الخطط، فأنشأت مطاراً في بطن الجبل في أفغانستان عند الحدود هو مطار «شندند» وهو أكبر مطارات آسيا، وهو الذي يدعم الاحتلال اليوم. . إنه التفريط الذي يدفع المسلمون ضريبته اليوم حيث كانت البعثات العسكرية والتعليمية التي ذهبت إلى الاتحاد السوفييتي ورُبيت على أعين الشيوعيين هي الجسر الشيوعي الذي عبرت عليه روسيا، والذراع الذي لا تزال تستخدمه تحت اسم «الحزب الشعبي الديمقراطي».

ونحب هنا أن نذكّر - لعلّ الذكرى تنفع المؤمنين - بأن حركة التحرير الجزائرية التي تعتبر الحركة «الأنموذج» لحركات التحرر الإسلامي في العصر الحديث، والتي قدمت من الشهداء ما يربو على المليون شهيد [الرقم الذي قدَّمه الجهاد الأفغاني نفسه]، والتي واجهت فرنسا زمن جبروتها الاستعماري ومن ورائها قوات حلف الأطلسي بأسلحته المتطورة - والتي تشبهها إلى حد بعيد، ومن أكثر من وجه حركة الجهاد الأفغاني - [٥٠٪ من القوات التي نواجهها الآن ليست من روسيا ولكنها من دول حلف وارسو (سياف)] بإيمانها وتضحياتها ومواجهاتها، تنبهت لخطورة الموضوع فأرسلت مجموعات من الطلبة للدراسة والتحصيل في مدارس وجامعات العالم الإسلامي، فحققت لهم الحماية الثقافية والنمو العلمي، وكثير منا لا يزال يذكر زملاء له على مقاعد الدراسة من الإخوة الجزائريين، فهل تفتح أبواب مدارسنا وجامعاتنا لأطفال المسلمين الذين تسرقهم الشيوعية وتصنعهم على عينها؟! وبذلك نقدم خطوة عملية هي جهد المقل.

الثورة من داخل الأرض

وقد تكون مشكلة المسلمين في أكثر من منطقة في العالم أن اليقظة والصحوة تجيء متأخرة - على مستوى الأفراد والجماعات - في مرحلة التنفيذ لكل المخططات المبيتة للعالم الإسلامي، ولسنا بحاجة إلى الشواهد على مستوى الأفراد والجماعات فهي أكثر من أن تحصر، وكثيرون في عالمنا الذين يتجرعون آلامهم، ويفرغون طاقاتهم في البكاء على فرص كان بالإمكان اغتنامها، وسلطات كان بالإمكان استخدامها في أكثر من موقع من مواقع العمل الفاعل؛ لقد التهمت روسيا الجمهوريات الإسلامية وسامت المسلمين هناك الخسف والهوان، وصلت طلائع النازحين والمهاجرين إلى معظم أنحاء العالم الإسلامي ليكونوا نذير خطر، لكن العالم الإسلامي استمر في غطيطه دون أن تكون عنده القدرة على استشراف آفاق المستقبل والإعداد لها، وقضمت أطرافه الواحد بعد الآخر، واليوم تتكرر المشكلة نفسها في أكثر من بقعة في العالم الإسلامي، في فلسطين وأفغانستان والقرن الافريقي... (لقد أهمل آباؤنا وأجدادنا أمر الجهاد في بخارى وسمرقند، وكان الواجب يقتضيهم أن يخرجوا للقاء العدو خارج أسوارهم). (على جميع المسلمين اليوم، الذين يعيشون في المناطق القريبة، أن يواجهوا عدوهم في أفغانستان لأنه يقف الآن وراء أبوابهم وخارج قراهم وإلاَّ فاجأهم داخل حدودهم وعلى فرشهم) [عبد رب الرسول سياف].

لقد كان في احتلال السوفييت للجمهوريات الإسلامية عبرة ودرس لأولي الأبصار، ولا تزال - للأسف - تتحقق فينا نحن المسلمين مقولة: (أُكلت يوم أُكل الثور الأبيض) (إن معظم المهاجرين الأفغان هم من البخاريين الذين سبق لهم أن تركوا بلادهم إلى أفغانستان بعد الاحتلال السوفييتي لأرضهم، وتركوا القتال في بخارى، والآن يتركون القتال في أفغانستان) [جلال الدين حقاني نائب القائد العام] لقد أدرك المجاهدون الأفغان أهمية الثورة على الأرض نفسها (نطلب إلى المهاجرين الأفغان الموجودين في أوروبا وإيران وباكستان والسعودية ودول الخليج العودة إلى البلاد وعدم اختيار الحياة خارج الأرض) [حقاني].

توظيف تضحيات المسلمين

ولا شك أن روسيا خلال سنوات الغزو مارست الوسائل القذرة كلها، فعلى المستوى العسكري استعملت جميع أنواع الأسلحة الكيماوية الحارقة والسامة على حد سواء، وكانت تظن في البدء أن بإمكانها إنهاء القضية خلال ستة أشهر أو سنة على الأكثر، واستعانت لذلك بقيادات من الذين اشتركوا في عملية اقتحام تشيكوسلوڤاكيا والمجر، ومن المانيا الشرقية... كما أنها سعت ابتداءً إلى وضع شخصيات شيوعية في السلطة بأسماء ومظاهر إسلامية، وعندما فشلت في هذه الخطة ولم تتحقق سيطرتها عن بعد ـ كما هو حاصل في بلاد أخرى كثيرة ـ قامت بالغزو المباشر بمائتي ألف جندي أو يزيد، وهي في سبيل تحقيق أهدافها في السيطرة على أفغانستان تحاول اختراق صفوف المجاهدين بوسائل مختلفة، وعن طريق طرح حلول خادعة، ولقد مارس «أندروبوف» رجل المخابرات العريق إثارة الفتنة ـ على طريقة المخابرات دائماً ـ ضمن صفوف الشعب الأفغاني، وحاول إقامة واجهات إسلامية لإجهاض حركة الجهاد، كما أنه أشار على حكومة «كابل» بتشكيل بعض الجمعيات الدينية والاحتفال ببعض المظاهر الإسلامية وبناء بعض المساجد، ولما أعيتهم الحيلة، ونفق رجل المخابرات «أندروبوف» عادوا إلى اعتماد الحل العسكري و«سياسة الأرض المحروقة»، ذلك أن «تشيرنينكو» الرئيس الجديد للاتحاد السوفييتي واحد من الذين كانوا وراء قرار الغزو العسكري لأفغانستان، لذلك يحاول الروس الآن ضرب القرى وتدميرها لإجبار الناس على الهجرة إلى داخل المدن، وبذلك يزداد العبء على المجاهدين ويفتقدون الملجأ والمأوى، كما أن الروس يقومون الآن بحرق الغابات لتنكشف أمامهم مواقع المجاهدين...

لقد فقدت روسيا وحلفاؤها إلى الآن حوالي مائة ألف جندي أو يزيد خلال سنوات الحرب رغم هجماتها العسكرية الشرسة، لذا فهي تفكر ببدائل جديدة لإحكام سيطرتها على أفغانستان بعد أن أعيتها الحيلة، ومن هذه البدائل:

- انسحاب القوات السوفييتية إلى الشمال قرب الحدود السوفييتية، واحتلال الشمال فقط، ثم التحرك منه إلى داخل أفغانستان بالتدريج بعد فصل الشمال عن الجنوب.
- تقسيم أفغانستان تقسيماً عرقياً، وإلحاق قسم بالهند، وقطع الطريق على باكستان إلى البحر.
- تقسيم أفغانستان ـ حسب اللغة ـ بين لسان «البشتو» واللسان «الفارسي».
- تقسيم أفغانستان حسب التوزعات والانقسامات الحزبية والقبلية.
- تهجير الأطفال إلى روسيا وتربيتهم هناك وفق المبادىء الشيوعية.
- محاولة اختراق صفوف المجاهدين عن طريق العمالة والتجسس. . .

إلاَّ أن المجاهدين باتوا يدركون طبيعة الروس، فإذا قالوا: إنهم يعملون للمفاوضات والحل السياسي، فهم مخادعون وغير صادقين، ولقد عاش الشعب الأفغاني أكثر من مرة خداعهم، فقد سبق أن وعد «لينين» بالاعتراف باستقلال «خيوة وبخارى» بشرط أن يخرج الأفغان من ساحة الجهاد لتحرير الجمهوريات الإسلامية آنذاك، ثم كانت الاتفاقية حبراً على ورق!!

ومن الحقائق التي لا يعوزها الدليل أن بلاد المسلمين عامة مرشحة دائماً لتصفية الحسابات الدولية ودفع ثمن الوفاق الدولي، فهل يتحصل ذلك لأن بعض مسلمي اليوم يمتلكون التضحية ويفتقدون البصارة الكافية، لذلك توظف تضحياتهم وتستغل دماؤهم في أكثر من موقع على المستوى الإقليمي والعالمي؟! حيث لم يكن غزو روسيا لأفغانستان بعيداً عن الوفاق الدولي، بل لعلَّه يكون من أوضح صوره، ذلك أن الصحوة الإسلامية التي بدأت طلائعها هنا وهناك بعد سنوات القهر والاحتلال والغربة الطويلة، لا بد من محاصرتها وقص أجنحتها من الخارج ومحاولة احتوائها والانحراف بها من الداخل، ومن المسلمات أن ندرك أن روسيا وأمريكا على حد سواء متفقتان على وجوب التصدي للبديل الإسلامي الذي ينتظره الشعب في أفغانستان وفي غيرها من بلدان العالم الإسلامي، لذلك لا يستطيع أحد أن يدَّعي أن غزو روسيا لأفغانستان كان بعيداً عن الوفاق الدولي، أو كان في غيبة أمريكا، ولا شك أن أمريكا تشارك

في جني أعظم ثماره، إنها تحقق من وراء ذلك عدة أغراض: فهي ترمي روسيا في منطقة من أشد مناطق العالم كفاحاً وجهاداً، والواقع دلـل على أن ورطـة روسيا وضحاياها في أفغانستان لم يضعها أحد في الحسبان، ولا نظنهـا كانت بعيدة عن علم أمريكا التي تعرف الكثير عن هذا الشعب، وتعلم أن روسيا لا يمكنها هضم القبائل الأفغانية، فلقد قال الرئيس الأمريكي الأسبق «نيكسون» معلقاً على غزو روسيا لأفغانستان: (القبائل الأفغانية أظهرت شجاعة مدهشة، ولا شك أن موسكـو ستدرك أن هضم أفغـانستان عمليـة صعبة، وقـد سبق للأفغان أن ألحقوا الهزيمة بالبريطانيين ثلاث مرات في القرن التـاسع عشر في وقت كانت فيه بريطانيـا أقوى دول العـالم، ولن يتمكن السوفييت أبـداً من السيطرة على هذه القبائل بشكل كـامل!! وستـظل هناك معـارضة دائمـة في الجبال. . .).

إنها لقمة الزقوم التي تقدمها أمريكا وتحاول روسيا اليوم ابتلاعها.

سقوط الأقنعة. .

والحقيقة أن المجاهدين الأفغان أدموا أنف الجيش الروسي فعلاً، وأوقعوا فيه القتل والأسر، وتجاوز أمرهم وتأثيرهم أفغانستان إلى الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفييتي، هذا من جانب، ومن الجانب الآخر تكون روسيا بغزوها أفغانستان قد حالت دون البديل الإسلامي الصحيح الذي تحاربه الولايـات المتحدة وروسيا على حد سواء، وقد تكون الأسلحة الفردية التي يحصل عليها المجاهدون في الحرب هي وسيلتهم الوحيدة، أما المساعدات التي تقدم إليهم ـ ظاهراً ـ فهي محكومة بحـدود لا تسمح لهم بـإنهاء الاحتلال السـوفييتي وإنما تضمن استمرار إنهاكه. .

ولا شك أن الشعوب الإسلامية تمتلك من عوامل المـواجهة والصمـود والنهوض ورفض كل أشكال الاحتلال والتبعيـة ما تفتقـده كثير من شعـوب العالم، لذلـك كان لا بـد ـ استكمالاً للوفـاق الدولي، والكفـر ملة واحدة ـ

لمواجهتها من إقامة مفارز حراسة، وأنظمة قمع، وجيوش ـ لحماية تلك الأنظمة وليس لحماية الوطن ـ غريبة عن جسم الأمة بعقائدها وشعاراتها، يوكل إليها تعقب المسلمين ودعاة الإسلام حتى يستمر التحكم الأجنبي في بلاد المسلمين، ويحال بينهم وبين استعادة مكانتهم؛ والحقيقة أن هذه الوسيلة المكشوفة أخفقت في أفغانستان أيما إخفاق، فقد عجز نظام «كابل» المدعوم دولياً عن تحقيق أي تقدم خلال هذه السنوات، بل على العكس من ذلك فإن كثيراً من الضباط والجنود التحقوا بصفوف المجاهدين بمجرد أن أُتيحت لهم الفرصة.

والصعوبة الكبرى التي يواجهها السوفييت حالياً هي مع جنود الجيش الأفغاني، فإذا كانت موسكو لا تزال قادرة على ضبط قواتها وتسويغ وفاة أكثر من عشرة آلاف جندي سوفييتي أمام ذويهم، فإن الوضع يختلف تماماً حيال موقف القوات الحكومية الأفغانية، فقد لمست القيادة السوفييتية في أفغانستان أن قوات «كارمل» خفَّ حماسها في التعاون مع الغزاة السوفييت، وسجلت في الآونة الأخيرة عمليات هروب بالجملة من الجيش الأفغاني، وانضمام عدد من النفور والتشنج حتى إنهم امتنعوا عن تسليحهم وإمدادهم بالذخائر الحيَّة خلال التدريبات خوفاً من أن يلجأ بعض هؤلاء إلى استعمالها ضدهم...

والحقيقة أن قضية أفغانستان وقضية فلسطين هما المحك الذي أسقط الكثير من الأقنعة، ذلك أن «اليسار» في العالم الإسلامي لم يستطع التخلص من التبعية السياسية، وعلى الرغم من كل دعاواه وادعاءاته للوطنية فقد كان عاجزاً حتى عن المواقف الإنسانية، وعاجزاً عن الانسجام مع مقدماته، وقد تكون مشكلته التي يعاني منها أنه لا يرى إلاً بعين واحدة، ولا يستطيع أن يرى إلاَّ عدواً واحداً، ذلك أن الذي يتحدث عن الغزو الاستعماري الشيوعي يجب أن يكون بالضرورة عميلاً أمريكياً!! فالذبح والدماء في أفغانستان إنما يتم على الطريقة التقدمية، بينما كان في «فيتنام» استعماراً وغزواً رجعياً!

لقد استطاع اليسار في دول أوروبا ـ وهو أكثر تحرراً ـ أن يقف مع الجهاد الأفغاني، ويدين الغزو الشيوعي لأفغانستان كما أدان الغزو الأمريكي لـ«فيتنام»

والغزو الشيوعي لـ «يوغوسلافيا» و«بولندا»، أما اليسار في العالم الإسلامي فقد كانت قضية الانتصار لـ «فيتنام» عنده مقدمة على قضية المسلمين المركزية ـ فلسطين ـ وأما اليوم فهو في وضع لا يحسد عليه؛ فلا مجال عنده للحديث عن الغزو السوفييتي لأفغانستان المسلمة لأنه سيكون ـ حسب زعمه ـ على حساب قضية فلسطين!! أما مساهماته التاريخية في تمييع مفاهيم القضية الفلسطينية وتضييع هويتها وترويض أهلها على القبول بوجود عدوهم فلنا معه حديث آخر إن شاء الله.

نعود إلى القول: إن أفغانستان التي لم يستطع أحد زحزحتها عن إسلامها تاريخياً، لا يمكن أن تتنازل عنه، وإن هذه السنوات من الصمود أمام كبرى القوى العالمية يمكن أن يستمر خمسين سنة أخرى أو يزيد، ما دام العدو موجوداً، وعلى الرغم من استخدام أشد الأسلحة فتكاً وتدميراً، وأقذر الوسائل لاختراق صفوف المجاهدين، وتقديم مليون شهيد، فقد وطّن المجاهدون النفس على الحرب الطويلة. إن صور الاطمئنان التي يراها الإنسان على وجوه المجاهدين على اختلاف أعمارهم، وتحملهم الظروف القاسية بكل الرضى، وبناءهم المعاهد العلمية والمؤسسات التعليمية بالوسائل البسيطة التي تعني فيما تعني الاستعداد للمواجهة طويلة الأمد، لأعظم دليل على ذلك...

إن هذه المنطقة التي أنجبت الكثير من الأئمة الفقهاء والمحدِّثين، وساهمت في إثراء العلوم والثقافة الإسلامية ليس من السهل اختراقها والقضاء عليها بسبب من العملاء أو بغزو من الدخلاء، والمجاهدون مؤمنون بأن النتائج موكولة إلى الله، وأن المسلم مكلَّف بأن يتقن المقدمات من خلال الإمكانات المتاحة، ويبصر الظروف المحيطة، ويستفيد من الدرس التاريخي، ويستحضر البعد الغيبي كعامل من عوامل الصمود والنهوض، ولينصرنَّ الله من ينصره.

[جمادى الأولى ١٤٠٥هـ ـ شباط (فبراير) ١٩٨٥م]

المعَادَلَة الصَّعْبَة

. . . إن وسائل الإعلام العالمية تحاول باستماتة تهوين القضية الإسلامية، والتقليل من شأن الأهداف الإسلامية وقطعها عن محورها العقيدي وخلفيتها التاريخية وصفتها الجماهيرية، ومحاولة حصرها في إطار فئة أو تنظيم أو جماعة تسعى لتشويه صورتها وبذلك تعزلها عن حياة الأمة وأهدافها وتاريخها. . ومن ثم يكون التقليل من شأنها وتصويرها بأن تشكل خطراً على السلطة السياسية لا بد من مواجهته وإبادته، والإغراء بسهولة ضربها والقضاء عليها. . وهذا قد يكون من أخطر أسباب الصدام.

* * *

البدائل الفكرية وأسباب الصراع

من الحقائق البادهة أن مشكلة العالم الإسلامي الرئيسة وسقوطه في وهدة التخلف، وتكريس هذا التخلف إلى درجة أصبح معها وكأنه ضربة لازب لا سبيل معها إلى خروج، واستمرار العد التنازلي والعجز عن الإبداع الحضاري على مختلف المستويات، الثقافية والسياسية والاجتماعية والعسكرية، ليس مردها عدم وجود الكفاءات المبدعة، وقلة الإمكانات المتوفرة، وإنما هي في ذلك الصدام الرعيب بين بعض القيادات السياسية والعاملين في الحقل الإسلامي وما يستتبع ذلك من شيوع مناخ الاستبداد السياسي، وغياب الشورى الحقيقية في الحكم والعدل الاجتماعي في الحياة، واعتماد الولاءات ومطاردة الكفاءات في أكثر من موقع على خريطة العالم الإسلامي. . . وهذا ليس وليد ظرف طارىء، أو مجيء شخص عابر، وإنما هو النفق الطويل المظلم الذي أدخلت فيه الحياة

الإسلامية حتى كادت تفتقد معه سلامة الحواس، فكان ما كـان من الواقـع المأساوي الذي نعيش آثاره، ونتنفس جراثيمه، وتستوطن في نفوسنا أمراضه، ولسوف نظل نراوح في مكاننا، ونستهلك أنفسنا، ونبدد طاقاتنا، ونتوهم أننا قطعنا أشواطاً صوب تحقيق أهدافنا دون أن ندري أننا نعاني من حالة استنقاع تزيد في بؤسنا، وتساهم بالمزيد من عجزنا ما لم تحل المعضلة الرئيسة، أو المعادلة الصعبة، ويصلح الخلل الذي يحكم حياتنا ويتحكم بتصرفاتنا، ونضـع حداً لحرب الاستنزاف هذه بين الثقافة والسياسة، أو لانفصال السلطان عن القرآن ـ إن صح التعبير ـ في عالمنا العربي والإسلامي. . .

ولسنا هنا بسبيل استقصاء ودراسة أسباب الظاهرة وتقديم الحلول لها، فقد لا يكون الحل الذي نراه في متناول يدنا، بقدر ما نساهم بتقديم بعض البصائر لمن يمتلكون المقود، ويقدرون على الحل، وإنما الذي ينقصهم: العزمة الصادقة والرؤية المبصرة.

ولا شك عندنا أن الذين اختاروا الانتماء للإسلام والالتزام بقيمه حقاً هم الوليد الشرعي والتاريخي لحضارة هذه الأمة وثقافتها، والامتداد الطبيعي لأصالتها وذاتيتها، والحارس الأمين لشخصيتها الاستقلالية ورسالتها الإنسانية، وحمايتها من كل ألوان التبعية السياسية والثقافية. . . ولا ينكر ذلك ويتنكر له إلاَّ معاند أو جاحد.

ولا شك عندنا أيضاً ـ والأدلـة تملأ عـلى الناس حـواسهم ـ أنهم خيرة شباب الأمة ونخبتها المفكرة، حيث دلت التجـارب على أنهم أصـدق الناس قولاً، وأرقاهم خُلُقـاً، وأبصرهم بوسـائل الاستعـمار، وأقدرهم عـلى جهاده ومواجهته، وأكثر الناس وطنية، فهم وقود معارك الجهاد لنيل الاستقلال، وعدة الأمة للبناء، وفي مقدمة الناس نبوغاً وتخصصاً، قد حفظ الله عليهم طاقاتهم من التبديد، وأخلاقهم من الانحلال؛ وهـم الخطر الدائب على مصالح الأجنبي الذي لا يكل ولا يمل من تشويه صورتهم والإغـراء بمطاردتهم والتهـويل من خطورتهم. . . من هنا يمكن أن نلمح فداحة الخطب وخطورة الصراع وآثـاره

المدمرة على الأمة ومستقبلها، ونحن لا نريد أن نحمل مسؤولية ذلك طرفاً دون آخر، بل قد يكون الاشتراك في تحمل المسؤولية عن هذا الصدام هو الحقيقة التي لا بد من إدراكها، ومن ثم مراجعتها ومعالجتها.

ومن الأمور المستيقنة أيضاً أن القيم الإسلامية هي التي حركت جماهير العالم الإسلامي، وعبأت طاقاتها لمواجهة الاحتلال وصناعة الاستقلال، وكانت مانعة لها من الذوبان أيام الغلبة والشدة، وكانت دافعة لها للانتصار والنهوض من جديد في أيام القوة وتجديد الالتزام، تشحذ همها وتوقظ شعورها وتشعرها بالتحدي، وهذه الحقيقة لا يحتاج إدراكها إلى مزيد عناء، ولقد أحسن العدو إدراكها، فكان همه الدائب وخططه الدائمة، محاولة طمسها وإقصاء المسلمين عنها، وتقديم البدائل الفكرية التي لا تمت إلى عقيدة الأمة بصلة، والتي ما زادتها إلاّ إنهاكاً وتخلفاً، وكانت من أهم أسباب الصراع...

الإسلام هو الدافع وهو الهدف

إن معارك التحرير وثورات التحرر ومواجهة المستعمر في مشرق العالم الإسلامي ومغربه حتى في العصر الحديث، لم تحركها إلاّ الأهداف الإسلامية، إن الشعارات الإسلامية هي التي حركت جماهير ثورة الريف في المغرب بقيادة الشيخ عبد الكريم الخطابي وجعلت من علماء القرويين قادة الثورة حيث لم ينفصل العلم عن الجهاد في تاريخنا يوماً من الأيام، فيكون التحرك الأعمى وتكون الراية العمية، وكان الاستشهاد في سبيل الله منطلق مسلم التحرير، وهذا لم يقتصر على منطقة دون أخرى، وليست ثورة الأمير عبد القادر في الجزائر في مواجهة الاستعمار الاستيطاني، وفتاوى جمعية العلماء بتحريم التجنس بالفرنسية والحكم على فاعله بالارتداد وتحريم دفنه في مقابر المسلمين عنا ببعيد، حتى الأهداف التي أعلنتها جبهة التحرير الجزائرية، وقدم الشعب الجزائري المسلم في سبيل تحقيقها مليون شهيد لم تكن إلاّ أهدافاً إسلامية. ولو اتسع المجال للاستشهاد لأتينا على ذكر الكثير من الأقوال والخطب والتصريحات، إنها

الحقائق التي ما تزال حاضرة في وجدان الجيل ولا يحتاج معها إلى دليل، فهو شاهدها ودليلها. وإذا عدنا إلى مشرق العالم الإسلامي لنتعرف على حركات التحرير وأهدافها وشعاراتها رأينا الإسلام هو محركها، وهو هدفها، وهو شعيرتها، ابتداءً من ثورة الشيخ حسن الخراط في سورية ضد الفرنسيين إلى ثورة الشيخ عز الدين القسام في فلسطين إلى مصطفى كامل في مصر، حتى الجنرال مصطفى كمال أتاتورك الذي يمكن أن يمثل الخرق الأول، ويبوء بإثمه، ويحمل وزر كل خرق على مدى التاريخ الحديث في هذا المجال، في الصدام بين القيادة السياسية والقيادة الإسلامية ـ عندما أراد تعبئة الأتراك للقتال ضد اليونانيين، حمل القرآن وطاف بالجنود معلناً أن العدو يريد أن يقضي على دينهم وعلى قرآنهم، فهبوا للجهاد والاستشهاد في سبيل الله، ثم كان ما كان...

وفي حروبنا الحديثة مع يهود، ما هي الدوافع التي حركت الجنود في حرب رمضان في كل من سورية ومصر؟ وما هي الشعارات التي سادت جو المعركة وشحذت همم الجنود وحققت النصر؟

وبماذا خاطب القادة والرؤساء الجنود بين يدي المعركة وأثناءها حيث خوطبوا بأحفاد أبي بكر وعمر وصلاح الدين؟ إن البدائل الفكرية والشعارات المستوردة انهزمت على أيدي أصحابها قبل غيرهم، ولم تستطع أن تحقق شيئاً في أوقات الأزمات والشدائد، وإن الشعوب التي قدمت الملايين من أبنائها للشهادة في سبيل الله تاريخياً ليس من السهولة حملها على التنكر لأهدافها أو تحويل مسارها إلى أهداف باهتة أو بدائل مستوردة تقضي على ثمرة جهادها، وتجعل جهادها ضد المستعمر وكأنه لا معنى له، فهل جاهدت ابتداء إلاً لهذا؟ لذلك فأي عدول عنها أو تجاهل لها أو طرح بديل عنها موقع في الصدام والنزاع وبالتالي موصل إلى ذهاب الريح.

﴿واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾ ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

المنهج التربوي الواقع المفروض

والحقيقة التي لا بد من إيضاحها أيضاً أن هذه الأهداف والتوجهات هي أهداف جماهير المسلمين عامة، تقف الأمة بمجموعها من ورائها، وليست أهدافاً محصورة في فئة أو تنظيم أو جماعة أو إقليم أو جيل مهما أُريد لها ذلك، وأنه من الخطأ العقيدي والتاريخي والثقافي والاستراتيجي اعتقاد ذلك والعمل لـه... صحيح أن الأفراد والجماعات والجمعيات يتفاوتون فيما يحققون من كسب للقضية الإسلامية، ويرجو كل إنسان أو جماعة أن تكون أكثر كسباً، وإثارة للاقتداء، وقدرة على إيقاظ الوعي الإسلامي وتجديد ذاكرة المسلمين وشحذ فاعليتهم واستنهاض هممهم للدفاع عن القضية الإسلامية والتضحية في سبيلها، ليشرفون بدور الريادة والدلالة على الخير، لكن ذلك لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون وسيلة للحد من شمولية هذه الأهداف وجماهيريتها، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا في الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ...﴾. إنها أهداف الأمة قاطبة لا بد من رواد وقادة وجهود منظمة لتأكيدها وبيانها وضمان تواصلها، وتحقيق النقل الثقافي لها، وكشف أعدائها والحيلولة دون اغتيالها والاعتداء عليها.

إن أعداء الإسلام ووسائل إعلامهم العالمية التي وصلت مرحلة من النفاذ والتأثير تحاول معها إعادة صياغة الإنسان وزرع اهتماماته، وتركه أسيراً لما يُلقى إليه حيث تقتحم عليه بيته وفراشه وطعامه وشرابه وفترات راحته وتسليته... إن وسائل الإعلام العالمية تحاول باستماتة تهميش القضية الإسلامية والتقليل من شأن الأهداف الإسلامية وقطعها عن محورها العقيدي وخلفيتها التاريخية وصفتها الجماهيرية، ومحاولة حصرها في إطار فئة أو تنظيم أو جماعة تسعى لتشويه صورتها، وبذلك تعزلها عن حياة الأمة وأهدافها وتاريخها، ومن ثم يكون التقليل من شأنها وتصويرها بأن تشكل خطراً على السلطة السياسية لا بد من مواجهته ومن إبادته، والإغراء بسهولة ضربها والقضاء عليها، وهذا قد يكون من أخطر أسباب الصدام.. إن الأمة المسلمة لم تتخل عن أهدافها طيلة

رحلتها التاريخية الطويلة، وفترات السكون عن المواجهة الساخنة والمباشرة مع الاستعمار، أو مع السلاطين الظلمة من الخارجين على عقيدتها، إنما هو سكون العاجز عن التغيير وهو الرافض للواقع المفروض، فالإسلام لا يقر الاستعمار، ولا يقر الاستبداد والظلم، والأمة لا تجتمع على ضلالة؛ لذلك كان لا بد من صورة للمواجهة، فكان التحول إلى العمل التربوي كلون من التحصين للأمة حتى لا ينالها الذوبان، وحتى تحاصر بذلك الآثار السيئة المتحصلة من انفصال السلطان عن القرآن حتى تتاح فرص التغيير.

من هنا لم يكن المنهج التربوي الذي أخذ المساحة الأكبر من حياة المسلمين حالة سلبية وهروباً من الساحة، بقدر ما كان لوناً من التحرف للمواجهة في الموقع الفاعل، إنه الخندق الآخر في المواجهة، لذلك يمكننا القول: إن الصراع لم يتوقف طيلة الفترات التي تشعر معها الأمة المسلمة بأن السلطان السياسي ـ سواء أكان مرده الاستعمار، أو كان مرده الطغيان الجائر ـ يحاول اغتيال أهدافها أو تحريفها عن مقوماتها، أو احتواءها، وإن كانت هذه المواجهة أخذت أشكالاً متعددة، ولا سبيل إلى إيقاف الصراع إلاَّ بالاعتراف الحقيقي لأهداف الأمة والعمل على تحقيقها، واستلهام شخصيتها الحضارية ومتابعة مسارها التاريخي، والخطورة كل الخطورة من الذين يرفعون شعارات الأمة المسلمة ويعلنون أهدافها لمرحلة، لكسب سياسي، أو نشاط انتخابي، ومن ثم يتنكرون لها ويسعون في وأدها... إن حصاد الأمة المسلمة التاريخي من هؤلاء كان مراً، ابتداءً من اعتناق نابليون بونابرت القائد العسكري الفرنسي الذي غزا مصر لاستعمارها، الإسلام، واستمراراً في سلسلة لا نهاية لها.

تغيير الخصم من الداخل؟

وهنا لا نريد أن نكمل المسؤولية لطرف واحد في هذه المعادلة الصعبة، والتي تبدو أنها صعبة إلى حد بعيد، ذلك أن الإلقاء بالتبعة على الآخرين دون نقد الذات ومحاسبتها عما كان من التفريط وعدم القدرة على دراسة الأسباب

وحساب النتائج والاحتمالات، يعني أننا دون سوية التعامل مع الصورة والقدرة على التأثير فيها، وبذلك فلا يبقى معنى لوجودنا.

إن قضية الصدام بين القيادة السياسية والعاملين في الحقل الإسلامي في أكثر من موقع على خريطة العالم الإسلامي إنما هو نتيجة لعوامل كثيرة... من هنا كان من حق الذين يغارون على هذه الأمة أن يبادروا إلى دراسة المقدمات والأسباب التي أوصلت القضية إلى ما وصلت إليه؛ أما الذين ينتفعون بالأزمات، ويتاجرون بالدماء، ويحققون مصالح ما كان لها أن تتحقق في الظروف والشروط الطبيعية فلهم شأن آخر؛ لا بد من دراسة المقدمات بدقة وتحديد العوامل الداخلية والخارجية ومحاولة تفادي الصدام الذي ما يزال يقتل الأجنة قبل ميلادها، ويعيق الأمة عن أداء رسالتها.

وقد يكون ما يخصنا من الموضوع هنا، وعلى مستوى العمل في الحقل الإسلامي والدعوة أن نعلم أن المطلوب إسلامياً ليس هو القضاء على الخصم وإنهاء حياته وشرخ رأسه، إنما استنقاذه من الكفر والجهل وإلحاق الرحمة به وتغييره من الداخل.

إن معرفة هذه الحقيقة بعيداً عن ردود الفعل والنظرة الجزئية المتعسفة والضيقة للأمور... سوف تكون لها انعكاسات خطيرة وهامة وسوف تترتب عليها نتائج كبيرة على مستوى العمل الإسلامي ومستوى نسبة الأداء في مجال الدعوة إلى الله أيضاً... والذي يلمحه الإنسان ابتداءً أن الغاية من البعثة إنما هو إلحاق الرحمة بالناس وتغيير مواقفهم وتحويلهم من الكفر إلى الإيمان، وأن مما أعطيه الرسول ﷺ وامتازت به رسالته عدم تعجيل العقوبة للظالم والمخطيء حتى تتحقق فرصة التوبة، وأنه ليست من طبيعة النبوة والدعوة الإكراه والإجبار ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ...﴾ ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ...﴾ ولو عدنا إلى شيء من السيرة لوجدنا أن موقف الرسول ﷺ بعد أن لقي من أعدائه ما لقي في الهجرة إلى الطائف، وكان أشد ما لقي في تاريخ الرسالة حسب رواية السيدة عائشة رضي الله عنها، وجاءه ملك الجبال قائلاً: يا محمد، لو شئت لأطبقت عليهم

الأخشبين (جبلين في مكة) فكان الجواب الذي يشكل النداء التاريخي الخالد لكل مسلم: «عسى أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً».

الاستبداد السياسي . . والتخلف

إن عمليات التغيير والتحويل لا يمكن أن تتم بالقضاء على الخصم، الذي هو محل الدعوة والتغيير، وإنما بالرفق واللين والحكمة والبلاغ المبين والمدافعة بالتي هي أحسن، وهذه توجيهات القرآن الكريم وسيرة النبي عن ربه ﷺ، ومقاصد الشريعة، وفي تاريخنا من الشواهد والأدلة ما لا يدع استزادة لمستزيد. . . فعمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي ذهب لتأديب أخته عندما أسلمت، رجع مسلماً أعز الله به الإسلام، وخالد بن الوليد رضي الله عنه الذي ذهب مقاتلاً للمسلمين في أحد، وكان سبب هزيمتهم كان أحد قادة فتح مكة المسلمين. إن هذه الصور لم تنقطع على مدار التاريخ، فالمغول الذين جاءوا كالإعصار المدمر انقلبوا مسلمين نشروا الحضارة الإسلامية في العالم. . . وسيان في نظر المسلم الحق إن وصل أهل الإيمان إلى السلطة والتمكين في الأرض لأداء الرسالة المنوطة بهم والخروج من عهدة التكليف، أو وصل الإيمان إلى قيادة السلطة السياسية فتحصلت النتيجة نفسها، والمسلم متعبد باستفراغ وسعه وبذل جهده في انتقاء الوسيلة الأفضل والطريق الأحكم لتحقيق الأهداف، فقد يكون الطريق ممهداً لإيصال الإيمان إلى أهل السلطان في مرحلة لا بد من اغتنامها، وقد يكون الطريق ميسوراً لوصول أهل الإيمان إلى السلطان، المهم أن تتحصل القضية وليس المهم وصول الأشخاص.

وسوف لن تحل مشكلة العالم الإسلامي ما دام الصراع قائماً، لقد أصبحت تجربة الصدام غنية أيما غنىً، ولا بد من عودة إلى مراجعة الحسابات، وإلى دراسة المقدمات على ضوء النتائج التي انتهت إليها على مستوى القيادة السياسية والثقافية الفكرية على حد سواء، ويكاد يكمن معظم الحل ـ إن لم

يكن كله ـ في يد القيادة السياسية صاحبة السلطة والنفوذ والتنفيذ، فما قيمة الاستمرار السياسي إذا كان على حساب أجيال الأمة وكفاءاتها المبدعة؟ وما فائدة العمل الإسلامي وجدواه إذا حصدت أجياله كاملة وهم عقل الأمة وروحها، نتيجة الإقدام على معارك غير محسوبة، ورؤية غير واضحة قد لا يكون للإسلام منها نصيب، وإنما نصيب المسلمين أن تصفي الحسابات بدمائهم، وتشوه صورتهم، ويحال بينهم وبين دعوتهم؟!!.

إن إنهاء حالات الاستبداد السياسي وإيقاف الصدام، وإشاعة مناخ الحرية في العالم الإسلامي كفيل بوقف كل السلبيات المترتبة على ذلك، وكفيل بحل مشكلة التخلف بإيقاف نزف العقول المبدعة من جانب واستقدام العقول المهاجرة التي تساهم بدفع عملية التقدم العلمي في أوروبا وأمريكا من جانب آخر لتأخذ مكانها في إنقاذ العالم الإسلامي من معاناته، ذلك أن التخلف من لوازم الاستبداد السياسي في عالمنا الإسلامي الذي ضربه علينا أعداء الإسلام ليضمنوا تقدمهم بالعقول والسواعد والأموال الإسلامية.

[صفر ١٤٠٥هـ ـ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٤م]

قضايا في ملتقى الفكر الإسلامي

إن الحرية هي المناخ الصحيح والشرط الضروري لمعالجة مشكلات العالم الإسلامي، حتى ليمكننا أن نعزو واقع التخلف وصور العجز والانكسار وانعدام الكفاءات وهجرتها، وغياب القدرات واختفاء ملكات الإبداع، مردها جميعاً إلى الاستبداد السياسي الذي يتحكم بكثير من عالم المسلمين، بل لعل مخططي السياسة الدولية أدركوا هذه الحقيقة في عالم المسلمين وعملوا على تكريسها بوسائل مختلفة وبأشكال شتى.. ومهما تكن المشكلات التي تترتب على الحرية السياسية والحرية الفكرية ومناخها المعطاء، فإنها لا يجوز أن تقاس بمفاسد الاستبداد السياسي والإرهاب الفكري، حيث تهدر كرامة الإنسان، وتغيب إنسانيته، ويلغى حضوره..

* * *

حماية عالم الأفكار..

عقد في الجزائر العاصمة «في الفترة من ١١ ـ ١٧ شوال ١٤٠٤هـ، ١٠ ـ ١٦ تموز (يوليو) ١٩٨٤م» ملتقى الفكر الإسلامي الثامن عشر ـ الصحوة الإسلامية والحضارة المعاصرة ـ في سلسلة الملتقيات السنوية التي تنظمها وزارة الشؤون الدينية، وتعتبر من أبرز أعمالها على المستوى الإسلامي العام، إن لم تكن أبرزها، حيث إنها بمجموعها أصبحت تشكل رصيداً فكرياً، ومرجعاً لكثير من القضايا، وتراثاً حضارياً ذا بعد واضح في الثقافة الإسلامية المعاصرة...

وقد يستغرب بعضنا هذا الكلام، ذلك أن الأسوار الإعلامية في العالم

الإسلامي، وقصور وسائل الإعلام عن أداء رسالتها بحق كانا يحولان دائماً دون بلوغ الأهداف المقصودة لمثل هذه الحوارات الفكرية الضرورية لمسلمي اليوم، ومن وجه آخر فإن عدم إعطاء أعمال الملتقيات قيمتها الصحيحة من حيث الطباعة والترجمة والنشر والإعلام والتوزيع على مراكز البحوث والدراسات والجامعات والمراكز الثقافية يحول أيضاً دون الإفادة منها، أو اقتصارها على المساحة البشرية الأقل، ولا شك أن دقة البرمجة والتخطيط والتوفر الإعلامي المناسب اليوم هو الذي يحمي عالم الأفكار، ويحقق لها سريان الروح، وإلا كانت المساهمة السلبية بإماتتها وقبرها...

وسوف لا نعرض هنا للمحاور التي دارت عليها بحوث ومناقشات الملتقى، وإنما الذي يعنينا أن نلقي الضوء على بعض القضايا الأخرى التي لم تكن أقل أهمية ـ في نظرنا على الأقل ـ من بحوث ومناقشات الملتقى، أو هي تشكل في الحقيقة الشروط الضرورية لنجاح أعمال الملتقى ومقياس نجاحه... وقبل أن نعرض لهذه القضايا قد يكون من المفيد أن نسارع إلى تسجيل هذه الملاحظة الهامة:

على الرغم أن الداعي إلى هذه الملتقيات جهة رسمية، هي وزارة الشؤون الدينية، فقد تخلص وبشكل يلفت النظر من الأمور المألوفة في المؤتمرات الرسمية، أو التي تدعو لها جهات رسمية، أو تقام في ظل جهات رسمية، مما يمكن أن يحكمه أو يتحكم به من الاعتبارات والرسوم والأشكال حتى ولو كان مؤتمراً فكرياً وليس سياسياً، مما يفقد هذه المؤتمرات قيمتها الحقيقية، ويجعل منها وسيلة دعائية باهتة، الأمر الذي يجعل المسلم في حالة ارتياب من هذه المؤتمرات، وشك في فوائدها، وزهد في حضورها أو الاهتمام بها، فقد آن الأوان لأن يتحرر العلماء والمفكرون من سلطان الجهات الرسمية، ويتوقف كيل المديح في حياتنا، والتصفيق للخطأ والصواب على حد سواء ليمكننا بذلك أن نقول كلمة الحق بالتي هي أحسن، فيكون لها أثرها وتأثيرها، وقد يكون المسؤول في السلطة أحوج إلى الذي يبصره بأخطائه من الذي يصفق لأخطائه حتى تحيط به خطيئته؛ لذلك كان شعار علمائنا العاملين: لو كان عندي نصيحة لادخرتها

للحاكم، لأن نفعها يعم الناس. والنصح إنما يكون بالتحذير من الخطأ والتبصير بالصواب.

وهنا لا بد أن نقول: إن ملتقى الفكر الإسلامي عوفي من مرض التملق والمديح، بل لعل الإصرار على ذلك كان ملاحظاً وواضحاً في أن يتجنب الملتقى هذا المنزلق الخطير، فليس له من الصفات الرسمية المعروفة إلا أن الداعي له وزارة...

المناخ الصحيح لمعالجة المشكلات

● إن هذه الملتقيات بمجموعة البحوث والتعقيبات والملاحظات التي تملأ أيامها وتستغرق جهودها ليست ملكاً للجزائر، ولا تختص بالجزائر وحدها وإنما هي ملك للعالم الإسلامي، بل للعام بأسره... سواء نظر في ذلك إلى طبيعة المدعوين الذين يشكلون إلى حد بعيد جغرافية العلم الإسلامي والأقليات الإسلامية في العالم والعمل الإسلامي بمدارسه المتعددة، أو إلى القضايا والمشكلات التي يتم طرحها ومناقشتها، إنها ليست مشكلات وقضايا جزائرية، وإنما هي قضايا العالم الإسلامي، أو قضايا المسلمين في العالم، ولعل نصيب المسلمين في الجزائر من ذلك لا يتعدى نصيب أي مسلم في أي مكان من العالم، مضافاً إليه فضل الريادة، وقد تكون هناك خصيصة في هذه الملتقيات تنفرد فيها الجزائر دون بقية المسلمين ألا وهي وضع الطلبة والخريجين والحضور والشعب الجزائري من خلال نقل وسائل الإعلام في صورة الفكر الإسلامي العالمي والتصور الإسلامي العالمي للمشكلات الذي يجتمع لها هذا الملتقى... ومن الإنصاف هنا أن نبين، والله تعالى يقول: ﴿وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ...﴾ (الأعراف: ٨٥) أن البذرة الأولى لهذه الملتقيات كانت من زرع المفكر الإسلامي الجزائري مالك بن نبي رحمه الله الذي كان قد نظم مع طلابه بواكيرها الأولى وأسماها «ملتقى التعريف بالفكر الإسلامي» وكان يدعو لها من يستطيع ممن هم مظنة الخير والفهم في العالم الإسلامي بمساعدة إخوانه وطلابه،

وبهذه المناسبة يمكننا أن نقول: إن العاملين للإسلام اليوم لم يحسنوا الاستفادة بعد من فكر مالك رحمه الله ومن منهجه الذي تتأكد يوماً بعد يوم حاجة العمل الإسلامي إليه، إنه الحاسة الإسلامية التي لا يمكن الاستغناء عنها، ومراكز الاستشعار عن بعد التي لا بد من استخدامها للتعرف على النتائج، والقيام بالحسابات قبل حلول الكوارث.

● من القضايا ذات الأهمية والدلالة البالغة هذا الإصرار الواضح على اعتماد العربية على المستوى الرسمي والشعبي، ونستطيع أن نقول: إن قضية العربية وعملية التعريف سبقت الزمن وخطت خطوات عريضة حتى لتكاد الفوارق تستبين بين سنة وأخرى، وأذكر أني حضرت ملتقى الفكر الإسلامي العاشر في «عنابة» قبل ثماني سنوات فرأيت عربية الجزائر الآن غير عربية جزائر الأمس؛ وقد أصبحت العربية تعم البلاد من الطالب في المدرسة حتى العامل في المصنع والتاجر في السوق. إن سمات العربية والإسلام أصبحت هي الطابع المميز للجزائر بعد الغربة التي ضربت عليها خلال قرن ونصف القرن تقريباً من الاستعمار الذي حاول طمس كل شيء يمت إلى الهوية الأصلية للشعب الجزائري، ومحاولة إخراجه من تاريخه وعقيدته...

● يمكن أن نعتبر أن ملتقى الفكر الإسلامي الثامن عشر أشبه ما يكون بالأسواق الحرة في عالم الاقتصاد، أو المناطق الحرة التي لا تخضع فيها البضائع لأية قيود والتي تقام ضمن بلاد تحكمها الكثير من السدود... إنه ساحة للحوار والتنفس يجد فيها الإنسان نفسه؛ والحقيقة أن هذا الملتقى تحقق بقدر من الحرية قد يلفت النظر في عالم المسلمين اليوم. ولا شك أن الحرية هي المناخ الصحيح، والشرط الضروري لمعالجة مشكلات العالم الإسلامي حتى ليمكننا أن نعزو واقع التخلق وصور العجز والانكسار، وانعدام الكفاءات وهجرتها، وغياب القدرات واختفاء ملكات الإبداع مردها جميعاً إلى الاستبداد السياسي الذي يتحكم بكثير من عالم المسلمين، بل لعل مخططي السياسة الدولية أدركوا هذه الحقيقة في عالم المسلمين وعملوا على تكريسها بوسائل مختلفة وبأشكال شتى، ولسوف تبقى أزمة التخلف وانعدام الإبداع وعدم تلمس وسائل التقدم،

من لوازم الاستبداد السياسي لأنه يقتل الكفاءات ويعتمد الولاءات، ويخادع نفسه بالاستقرار الموهوم، حتى لو روجت لذلك في بعض الأحيان فلسفات تحتمي بمظلة الإسلام... ومهما تكن المشكلات التي تترتب على الحرية السياسية والحرية الفكرية ومناخها المعطاء فإنها لا يجوز أن تقاس بمفاسد الاستبداد السياسي والإرهاب الفكري حيث تهدر كرامة الإنسان وتغيب إنسانيته ويلغى حضوره...

خطوة نحو المنصة..

● اجتمع لهذا الملتقى عقل الشيوخ وتجربتهم وحكمتهم، وسواعد الشباب وحيويتهم، فإلى أي مدى يمكن لهؤلاء الشباب، وهم أمانة الأمة وأملها ومستقبلها، الإفادة من تاريخ أمتهم، وحسن وراثة تراثها مع استيعاب ثقافة عصرهم حتى يكونوا أحفاداً شرعيين لأسلافهم وتاريخهم؟؟ ولعل من أهم وأخطر الأمور هنا: التنبه إلى ضرورة أن يتمتع الشباب في العالم الإسلامي عامة برؤية مستقبلية أكثر شمولية ووضوحاً تتجاوز ما عليه المسلمون الآن، تتجاوز ما عليه واقع المسلمين اليوم من التناقضات والخلافيات والتمزقات وقيام الدويلات والأمميات وما إلى ذلك... ولعل مما يبشر بخير ما يلحظه الإنسان من مجموعة الأسئلة التي تقدم بها الطلبة، وكيف أن الخيط الذي كان ينتظمها جميعاً هو: شد المحاضرين والمعقبين إلى معالجة مشاكل المسلمين الآن ومحاولة تلمس الطريق بصدق إلى بعث إسلامي جديد وصحوة إسلامية راشدة، إن ظاهرة إشراك الطلبة، وإن كانت هذه الظاهرة لم تتعد السماع والتلقي والمتابعة والاستيضاح بالسؤال، تحمل الكثير من الخير حيث يتعرف هؤلاء على مواقع الفكر الإسلامي وطرائقه فيعطيهم نوعاً من الدربة والتجربة ويحقق فرصة للتفاعل بين الأجيال خاصة بما يدور من حوارات وأسئلة ومناقشات بعد الجلسات المحددة للملتقى، وحبذا لو يسمح للطلبة أن يتقدموا خطوة أكبر باتجاه المنصة تتجاوز طرح الأسئلة ليأخذوا حجمهم الطبيعي في الطرح والمناقشة مع ما يمكن أن يترتب على ذلك من مشكلات تبقى لا قيمة لها أمام ما يتحقق

من فوائد وما يحلّ من عقد، وقد يكون هذا ضرورياً كلون من المسح الفكري للتعرف على المشكلات الحقيقية التي يعاني منها الشباب فتؤخذ بعين الاعتبار وتعتمد في جدول المناقشات، وبذلك يتخلص الملتقى من بعض الجوانب النظرية والمجردة التي قد لا تجدي كثيراً.

بين القيادة السياسية والقيادة الفكرية..

لقد أجمع المحاضرون والمعقبون على اختلاف تفسيراتهم وتقويماتهم ومناهجهم في التناول على أن أزمة العالم الإسلامي وتخلفه في مجال الإبداع الحضاري، وسقوطه في وهدة التخلف ليس مرده عدم وجود الكفاءات والإمكانات، وإنما هو الصدام الرعيب بين بعض القيادات السياسية والعاملين في الحقل الإسلامي، وأن مشكلة العالم الإسلامي سوف لا تُحل ما لم تُحل هذه المعضلة التي تستنزف الطاقة وتحول بين الأمة وتحقيق أهدافها، سواء في ذلك من رأى أن السبب في القيادات السياسية التي توهمت أن بقاءها واستمرارها مرهون بمطاردة العاملين للإسلام، لأنهم وحدهم الذين يشكلون الخطر الحقيقي على السلطة السياسية، بوحي من أعداء الإسلام في الداخل والخارج، وليس بتحقيق العدل وإضاعة الحرية وتحكيم قيم الأمة؛ أو من أرجع ذلك إلى وسائل بعض العاملين في الحقل الإسلامي الذي قد يرى أن التغيير يمكن أن يتم من القمة.. من قمة العمل السياسي، وأن الطريق الوحيد لاستئناف الحياة الإسلامية يبدأ من السلطة السياسية، فيكون الصراع على السلطة؛ أو من أرجع ذلك إلى مخططات أجنبية، وأتى على ذكر دلائل على ذلك من تجارب ذاتية واطلاع شخصي من أن ديدن أجهزة المخابرات العالمية تخويف السلطة السياسية في العالم الإسلامي من العاملين للإسلام، وزرع الأجسام الغريبة في الحقل الإسلامي التي يؤخذ سلوكها دليلاً على تغذية الشكوك، وبذلك يستمر إنهاك العالم الإسلامي، وتستديم السيطرة عليه من منطق الحاجة للاستناد إلى الدعم واستمداد التأييد..

ولقد طرحت لهذه القضية حلول ووجهات نظر متعددة ومتفاوتة، ابتداء

من طلب الهدنة، إلى المصالحة، إلى التعاون؛ فالكل مجمعون على أن مشكلة العالم الإسلامي هي هذه وإن اختلفت الوجهات والتفسيرات والمقترحات كما أسلفنا. ولا شك عندنا أن المشكلة قائمة في العالم الإسلامي، وسوف لا تحل هذه المعادلة الصعبة ما لم يلتق أبناء الأمة من حكام ومحكومين على كلمة سواء فيصل أهل القرآن إلى السلطان أو يصل أهل السلطان إلى القرآن، وبذلك يوضع حد لانفصال السلطان عن القرآن، وانفصال القيادة السياسية عن القيادة الفكرية الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ، لقد أصبحت تجربة الصدام غنية أيما غنى، ولم تدع استزادة لمستزيد، ولا بد من عودة إلى مراجعة الحسابات، وإلى مراجعة المقدمات على ضوء النتائج التي انتهت إليها على مستوى القيادة السياسية والقيادة الفكرية على حد سواء، ويكاد يكمن معظم الحل إن لم يكن كله بيد القيادات السياسية صاحبة السلطة والنفوذ والتنفيذ. فما قيمة الاستمرار السياسي وما جدواه وعطاؤه على مستوى الأمة إن كان يفتقد مقومات استقراره؟! أو أن هذا مستوى الأمة إن كان يفتقد مقومات استقراره؟! أو أن هذا الاستمرار سوف لا يكون إلا على حساب أجيال الأمة وكفاءاتها المبدعة؟! وما فائدة العمل الإسلامي وجدواه إذا حصدت أجياله كاملة، وهم عقل الأمة وروحها، نتيجة الإقدام على معارك غير محسوبة ورؤية غير واضحة، وقد لا يكون للإسلام فيها نصيب في كثير من الأحيان، وإنما نصيب المسلمين فقط أن تصفى الحسابات بدمائهم، وأن يظهرهم أعداؤهم بأن أهدافهم تنتهي عند السلطة السياسية فقط، وبذلك يخاف أصحاب السلطان على سلطانهم وتبدأ المعارك؟

التحلل باسم التحرر..

● حضور المرأة المسلمة ومشاركتها في أعمال الملتقى كان ظاهرة تلفت النظر فعلاً، يلمح الإنسان من خلالها الاعتزاز بالثقافة الإسلامية، والتشبث بالزي الإسلامي، والالتزام بالخُلُق والحياة الإسلامية؛ والجدية في المتابعة وطرح كثير من التساؤلات الهامة، ومتابعة المحاضرين والمعقبين بعد الجلسات الرسمية

للملتقى؛ لكن الأمر المحزن حقاً أن المرأة المسلمة ما تزال إنسانة مُستهلكة فكرياً تأخذ مكانها في صالات التلقي ولم تصل بعد إلى مستوى المرأة المسلمة المنتجة فكرياً في أكثر من مجال، فإلى متى تقف القيود والسدود والعادات والتقاليد التي ليست من الإسلام في شيء أمامها بحجة أن ذلك من الإسلام، ويسمح للمرأة العابثة بالقفز من فوقها؟! لماذا لا تتقدم المرأة المسلمة خطوات أخرى باتجاه المنصة والمجلة والصحيفة والكتاب، وكلها آفاق لا تتعارض مع الضوابط الشرعية، بل هي ساحة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي هي مسؤولية المرأة كما تطلب من الرجل؟! **﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾** (التوبة: ٧١).

ولشد ما لفت انتباه المشاركين في الملتقى تلك الطالبة التي اخترقت الصفوف وتقدمت إلى المنصة بكل اعتزاز لتقول كلمة تلخص فيها معاني كثيرة، وترد على موجة عاتيةمن العبث بالمفاهيم، من ضرورة أن الذي يتكلم بالإسلام ويفتقر الحد الأدنى للسلوك الإسلامي سوف لا يعتد بكلامه، فالتربية إنما تكون بالقدوة وليست بالفلسفة، وأن اللباس الإسلامي لا يشكل عائقاً أمام التقدم العلمي والمعاصرة الحضارية ذلك أن القضية أولاً وقبل كل شيء مرتبطة بالمواهب والقدرات وليست باللباس، ولا أدل على ذلك من أن الطالبة الأولى في الثانوية بالجزائر لهذا العام استلمت الجائزة من رئيس الدولة ورأيناها جميعاً بوسائل الإعلام كيف كانت ملتزمة باللباس الإسلامي، وهذا يكفي رداً على التحلل باسم الدعوة إلى التحرر.

التجربة الميدانية

● الصحوة الإسلامية، موضوع الملتقى، بمظاهرها المختلفة وتياراتها الظاهرة والخفية، ليست طارئة أو عارضة، كما أنها ليست رد فعل لظروف تاريخية معينة أو أوضاع اجتماعية أو نكسات عسكرية، وإنما هي امتداد طبيعي لرسالة هذه الأمة، جاءت من العمق التاريخي وامتدت إلى الجذور الأصيلة

لعقيدتها والشمولية الكاملة لها، ولا ينكرها ويتنكر لها إلا منكر أو جاحد... وإنها تعني فيها تعني استمرار التواصل الحضاري من خلال الطائفة التي ما تزال قائمة على الحق وإن اعتراها المد والجزر، ولا شك أنها اصطفت خيرة شباب الأمة ونخبتها المفكرة، ولقد دلت التجارب على أن رجالها من أصدق الناس قولاً، وأكثرهم وطنية، وأرقاهم خُلُقاً، وأبصرهم بوسائل الاستعمار وأقدرهم على مواجهته... فالصحوة طاقة فكرية، وحركة تغييرية إصلاحية، ومدرسة خلقية، إذا أحسنا الاستفادة منها يمكن أن تعود بالخير العميم على الأمة والبشرية، ولهذا فالمطلوب أن توفر لها حرية التفكير وحرية التعبير، وتعطى الفرصة لتجربتها الميدانية، ويؤخذ بيدها إلى سبيل الرشاد... والخطورة كل الخطورة أن تكتم أنفاسها، ويدمر أشخاصها وأفكارها، ذلك أن مثل هذا الأمر سيكون نذير خطر على من يعترض سبيلها وبلاءً يصيب المسلمين عامة.

إن حسن التعامل مع الصحوة: عقل الأمة وساعدها، يمكن أن يختصر لنا فجوة التخلف، ويختصر لنا كثيراً من الوقت الذي نحتاجه لنستعيد مكاننا في السلم الحضاري، ولقد حازت الجزائر في هذا قصب السبق عندما اختارت لملتقاها الثامن عشر عنوان «الصحوة الإسلامية والحضارة المعاصرة» إنه الوفاء لدماء المليون شهيد الذين قضوا في سبيل العقيدة الإسلامية، هذا الوقود الضخم الذي لا يمكن أن يتقدم فداء لأهداف غريبة أو باهتة وإنما كان ينطلق من رؤية إسلامية، عريقة الجذور، دفعت به إلى التضحية، وليس من السهل على أي إنسان تجاهل ذلك أو طمسه؛ فهل يتابع جيل الصحوة بناء الاستقلال على خطوات الجيل المسلم نفسه الذي ضحى لصناعة هذا الاستقلال؟ وإن الذين يقرأون تاريخ الأمة الإسلامية وتضحياتها قراءة خاطئة هم الذين يحاولون عبثاً إخراجها عن عقيدتها وتراثها إلى لون من التبعية الثقافية لا يلبث أن يسقط. ولا شك أن ملتقى الفكر الإسلامي كان تجربة رائدة على هذا الطريق، ولا نقول: كاملة، وإنما تكمل وتتكامل شيئاً فشيئاً، ولعلها تكون حافزاً لسائر بلاد المسلمين... وقد تكمن الخطورة في النظرات السلبية التي تفوت الكثير من عناصر الخير فلا تراها فتقع في البخس الذي نهى الله عنه ﴿وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾.

فالملتقى ينطوي على خير كثير كبير سواء في محاضراته وحواراته، أو في اللقاءات الجانبية التي تتم مع الطلبة والباحثين؛ واكتشاف بعض جوانب النقص يجب أن يكون حافزاً على بلوغ الكمال والاستكمال وليس مساهمة سلبية في الإحباط.

[المحرم ١٤٠٥هـ - تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٤م]

وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ

قد نكون عاجزين ـ لسبب أو لآخر ـ عن مواجهة القضية الآن، فلا أقل من أن نعترف بعجزنا ونرفع أيدينا عنها، ونتركها للأجيال القادمة، فهي أكبر من أن تكون قضية جيل بعينه، أو رجل بذاته مهما أضفى على نفسه من الألقاب التي تأتي في غير موضعها، نتركها للأجيال تستلمها بأمانة دون زيف أو تدليس، ذلك أن القضية مع يهود قضية صراع ديني تاريخي حضاري ثقافي، لا يمكن لأحد أن يقفز من فوقه ويعطي نفسه أكثر ما تمتلك وتستحق..

وبإمكاننا القول: إن المسلمين عندما كانوا في مستوى إسلامهم، هم وحدهم الذين استطاعوا أن يضعوا حداً لجرائم يهود على البشرية.. ولا يزال خلاص البشرية مرهوناً بالتزام المقاييس والضوابط التي وضعها الإسلام...

* * *

بين الإحساس.. والإدراك

لا نريد بهذه الكلمات أن نشارك مجموعة الندّابين والبكّائين، لأن مساحة المأساة وعمق جراحها يتسع يوماً بعد يوم، ولم يبق في الكلام عنها استزادة لمستزيد... كما أننا لا نريد أيضاً أن ننضم لموكب المشيعين الذين يسيرون في الجنازة، وقد يكون بعضهم من القتلة، ليطمئنوا على مواراتها التراب في مثواها الأخير.. وإنما نحاول المساهمة بشيء من البصارة الضرورية لسلامة الرؤية، وتصويب المسار، وإتيان البيوت من أبوابها بدل الإصرار على السير في الطرق المسدودة والمسالك الوعرة... ذلك أن ما نزل بنا ليس عبثاً، وليس وليد

مصادفة وإنما هو ثمرة لمقدمات طويلة لم نستفد منها، وسنن وقوانين تحكم الحياة والأحياء ثابتة لم نتعامل معها، وعقوق لقيم وتاريخ هذه الأمة لما نستطع أن نضع له نهاية بعد، وليت الأمر توقف عند عتبة العقوق فقط، وإنما تجاوزه إلى مرحلة الاعتداء على عقيدة الأمة والإبادة المستمرة للجيل الذي يحمل هذه العقيدة ويدافع عنها تحت أسماء وعناوين شتى باتت لا تخفى على أحد، خاصة وأنها، وفي كل مرة، جاءت متزامنة ومتوازية مع عمق المأساة وامتداد ساحتها.

ولعل المأساة الحقيقية هي في العدوان على عقيدة الأمة الإسلامية وذلك بتربية الأجيال على التنكر لها والانسلاخ منها، ومطاردة الملتزمين بها الداعين للاحتكام إليها، هذه هي المأساة الحقيقية، وما عدا ذلك إنما يكون من ثمراتها، بل هو أحد الأعراض الكثيرة للأمراض التي تفتك في الجسم الإسلامي.

ونحن ابتداء قد لا نتهم صدق أصحاب العواطف الجياشة التي نلمسها هنا وهناك، ولا الحرقة الصادقة على مأساة المسلمين والمذابح الرعيبة وحمامات الدم في المخيمات الفلسطينية في لبنان التي لا يعوزها الدليل بالنسبة لبعضهم حيث يدفع النساء والأطفال الأبرياء ضريبة التخاذل والعجز العربي... ولكن نريد أن نقول: إن العاطفة الصادقة، والندب المستمر، والبكاء الدائب سوف لا يساهم بحل المشكلة إذا لم يترافق مع دراسة متأنية للأسباب التي أدت إلى وقوع الكارثة، وتحديد العلة وتشخيص المرض.. ومن ثم البدء بالمعالجة، ذلك أن البكاء والندب الصادق قد يكون بمقدور النساء والأطفال والعاجزين، لكن السؤال المطروح دائماً: إلى أي مدىً يساهم بحل المشكلة ومعالجة المأساة؟!

وأخشى ما نخشاه أن يكون ذلك الصراخ والعويل قد أصبح ثقافة تحكمنا، تشفي نفوسنا ولا تحل مشاكلنا، كالأطفال الذين يظنون أن مشكلاتهم كلها تحل بالبكاء والصراخ... لذلك نراهم يستزيدون من الصراخ كلما اشتد بهم الأمر واتسعت دائرة العجز، فهل ينقذ الندب والنياحة الميت؟! وهل يشفي البكاء المريض؟ أم يزيد المأساة، ويستنزف طاقات يمكن ادخارها وصرفها إلى المكان المجدي في الطريق الصحيح؟! لا بد لنا من بصيرة الطبيب، أما أن نبكي ونهدر طاقاتنا ونتابع رحلة التضليل، فإن ذلك تكريساً للمأساة.

ويحضرنا هنا قول الشاعر الأندلسي بعد أن أُجبر المسلمون على الخروج من غرناطة وحدد لهم طريق هذا الخروج، وهو العدوة الثانية من الشاطىء، يخاطب أحد البكّائين من المسؤولين عن ضياع بلاد المسلمين هناك:

تبكي مثل النساء ملكاً مضاعاً   لم تحافظ عليه مثل الرجال

هناك في الحقيقة الكثير من المقدمات الخطيرة التي انتهت بالأمة إلى ما وصلت إليه الحال الآن، ولم نرض لأنفسنا أن نكون من فريق المدّاحين الذين يصفقون لكل خطوة دون فحصها واختبارها، ومن بطانات السوء التي تسللت إلى بعض الأجواء، وهي لا تريد خيراً للبلاد والعباد، وللتي لا يعصم منها إلا من عصمه الله، لأنها بطانة تحسن الهدم ولا تطيق البناء.

فليست الميزة في رؤية المأساة حال وقوعها، والإحساس بها عند حلولها، لأن ذلك يستوي فيه الناس جميعاً. . وإن كان الدرس والعبرة والاسترجاع إنما يختص به بعضهم، لأن الكثير يحس، ولكن القليل هو الذي يدرك. . .

إن الميزة دائماً تكون بالقدرة على إبصار الأمور من مقدماتها، والقدرة على المقايسة والتعليل للحيلولة دون وقوعها، وهذا ما لا يريده كثير ممن يسمون بالعرب وبالمسلمين اليوم، لأن معظمهم مصاب بالعمى العقلي إن صح التعبير. . ذلك بأنهم يصنعون التماثيل من ثلج بأيديهم، ومن ثم يبكون على ذوبانها.

مواقع الرؤية القرآنية

وقد يكون بإمكاننا إلى حد بعيد تلخيص المشكلة، وتحديد أبعادها، ذلك أنها أصبحت من الوضوح إلى درجة لا تتطلب مزيداً من الأدلة بعد أن حصحص الحق. .

إن قيام إسرائيل جاء نتيجة رؤية دينية توراتية، كانت وراء تحريك يهود وشدهم في جميع أنحاء العالم، وبوسائل مختلفة، وعلى مستويات متعددة

للوصول إلى دولة «إسرائيل» التي تقيم الهيكل في أرض الميعاد؟؟ ولم تكن القضية وليدة يوم وليلة، كما يتوهم بعضهم، وإنما هي ثمرة لجهود مكثفة، وخطط مدروسة، وتعاون مستمر، وتحكم خفي بالمسارات الدولية، وقدرة على توظيف الكثير من الأشخاص والأحداث لمصلحة القضية، يحكم ذلك كله ويتحكم به إرادة عامة هي وليدة عقيدة تلمودية صنعها لهم الحاخامات ورجال الدين، ولكل فرد يهودي نصيب منها، فاليهود يحاكمون العالم ويحكمون عليه من خلال ما يعتقدونه من قيم، ويفسرون الحركة الإنسانية والنشاط البشري تفسيراً توراتياً ويصرون على ذلك، ويرسمون الخرائط الدينية ويغيرون التسميات ويتلاعبون بالأسماء، وتتفجر أحقادهم التاريخية، كالألغام الموقوتة هنا وهناك، للانتقام من البشرية، ولأمر يريده الله، أن تكون ساحة انتقامهم مركوزة في قلب العالم الإسلامي، فلسطين، وأن يكون أهلها هم على الخندق الأول للمواجهة والوقوف في وجه يهود الذين يهددون العالم الإسلامي كله الذي يعاني الضياع، والضلال والانسلاخ من عقيدته الإسلامية، يعيش فترة التيه والشتات التي خرج منها يهود ليدخلها العرب المسلمون، وتلك الأيام نداولها بين الناس. . .

أما أولئك الذين يعيشون حياة الاسترخاء والدعة، ولا يشعرون بهول المأساة وخطورة المذبحة، ولا يحسُّون بحقوق الأخوّة، ويسلمون النساء والأطفال ليهود، يمزقون أجسادهم ويهتكون أعراضهم، فلسوف (يؤكلون كما أكل الثور الأبيض!!).

وهذا سوط السماء يؤدب اللّهُ به العصاة، وسيوف الأعداء توقع العقوبات على الأمة المتنكرة لعقيدتها، الخارجة على مبادئها، والمهادنة للظالمين الذين يعملون على سلخها عن عقيدتها، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم:

«. . إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقابه. .» وقال تعالى: **﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾** (الأنفال: ٢٥) والأمر الذي لا يزال غائباً عن

ساحة الرؤية أن قيام الحضارات وسقوطها، وبناء الأمم وانقراضها، وتسليط الأمم بعضها على بعض، إنما يخضع لسنن وقوانين لا يمكن إغفالها ولا القفز من فوقها. . . ولقد عرض القرآن الكريم للمرتكزات الأساسية لهذه السنن، وطلب النظر والتبصر والسير في الأرض، وتحقيق العبرة، والاعتبار بأحوال الأمم السابقة وسبب انقراضها وتداعيها، لتكون الأمة التي تحمل الرسالة الخاتمة على بينة من أمرها وبصيرة بموضع أقدامها ومعرفة بأعدائها، **﴿والله أعلم بأعدائكم﴾**. . **﴿وما جعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾**. .

كيف لا يكون ذلك، والله تعالى يقول: **﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ. .﴾** (المائدة: ٨٢).

ولكن الأمر الذي نعاني منه على الجانب العربي الإسلامي أن مسلمي اليوم ما يزالون دون سوية الرؤية القرآنية التي تبصرهم بأعدائهم، وتحملهم إلى مواقع الترصد والتبصر والنظر والاعتبار، هذا على المستوى العام، أما في بعض المستويات الأخرى فنرى التنكر والعقوق والعمل على سلخ الأمة عن عقيدتها درع صمودها وعدة كفاحها، إذ لا يمكن بحال من الأحوال أن تلتزم الأمة عقيدتها، وتعيش مواقع الرؤية القرآنية، وتحسن تحقيق الإسلام في حياتها، ويسلط الله عليها أعداءها: فلا بد من المراجعة، وقد تكون الحاجة إلى المراجعة أشد في المنعطفات الكبيرة والهزائم الكبرى في حياة الأمم.

فلسفة الهزائم

إن الخطورة كل الخطورة على هذه الأمة التي تحمل الرسالة الخاتمة تأتي من يهود، والعداوة أشد العداوة كامنة في طبيعة يهود، وقد بدأت المواجهة معهم منذ الأيام الأولى لنزول الوحي الذي أنكروه، لا لشيء وإنما لكونه في العرب، بعد أن كانوا يستفتحون به عليهم، والذي يستقرىء التاريخ يجد أن المسلمين كانوا تاريخياً الأقدر على التسامح وحسن التعامل والإحسان، ولم يجد يهود في تاريخهم الطويل من حسن المعاملة ما وجدوه عند المسلمين، لكن كانت تأبى

طبائعهم المتوارثة إلا الحقد والتآمر والكيد... إنها الجبلة التي طبعوا عليها كما طبعت بعض الحيوانات على الافتراس، وكما طبعت الأفاعي والعقارب على اللدغ، وهل الإحسان إلى هذا النوع من المخلوقات يغير من وظيفتها، ويبدل من طبيعتها، ويستبدل سمها بعسل... إن كل المحاولات التي تبذل في هذا المجال يسخر منها التاريخ ويكذبها الواقع.

إن علاقات يهود مع المسلمين في مرحلة النبوة، والمعاهدات التي وقعت بينهم وبين رسول الله ﷺ، وجعلتهم على قدم المساواة مع المسلمين لم تغير من طبائعهم شيئاً، وكانوا لا يفتأون يتربصون الدوائر بالمسلمين، وهذا لا يحتاج منا إلى مزيد اختبار وإنما يحتاج إلى مزيد دراسة وديمومة اعتبار... ذلك أن الحقد التاريخي اليهودي يمكن أن يتفجر في كل زمان ومكان، فلا بد من اليقظة الدائمة في كل زمان ومكان، ولا بد من التمتع بقدر أكبر من الرؤية القرآنية، واعتبار أكثر بدروس السيرة النبوية... فإذا كان من أوليات عقيدتنا أن القرآن مجرد عن حدود الزمان والمكان، وأن الرؤية القرآنية لا يحدها زمان ولا يحصرها مكان، بقي أن نمتلك القدرة على ترجمة هذه الأوليات إلى حركة وموقف... وليس عبثاً أن تكون المساحة التعبيرية التي تتكلم عن بني إسرائيل وجرائمهم، وقتلهم الأنبياء، ونكثهم العهود، وأكل أموال الناس بالباطل حتى على أعلى المستويات كالأحبار أو الرهبان، والشهادة للكافرين بأنهم أهدى من المؤمنين سبيلاً، والنكول عن الاستجابة لأمر الله تعالى في دخولهم الأرض المقدسة وتسللهم إلى الصف الإسلامي وصناعة المنافقين وعقد موالاة معهم.

ليس عبثاً أن تكون المساحة التعبيرية بهذا الحجم، وأن تستغرق موضوع السور الطويلة في القرآن الكريم، ذلك أن الخطر الذي يهدد الأمة التي تحمل الرسالة الخاتمة إلى الإنسان إنما يتمركز بيهود، إنها الجبلة التي تنتقل من جيل إلى جيل، وتشكل المناخ الثقافي الذي يتحكم بالأجيال من خلال عقدة الشعب المختار، وأسوار المجتمعات المغلقة، من هنا يمكننا أن نفسر لماذا خاطب القرآن الكريم الأبناء بجرائم الآباء، والأحفاد بجرائم الأجداد، إنها الجريمة، وهي الطبيعة المتأصلة التي تنتقل من جيل إلى جيل.

وبإمكاننا القول: إن المسلمين عندما كانوا في مستوى إسلامهم، فهم وحدهم الذين استطاعوا أن يضعوا حداً لجرائم يهود على البشرية، ولا يزال خلاص البشرية مرهوناً بالتزام المقاييس والضوابط التي وضعها الإسلام، والنظر من النوافذ التي رسمها القرآن لمعرفة ما تنطوي عليه نفوسهم، وأية محاولة للتنكر لهذه الحقائق تعني الدمار، وتعني مزيداً من الهزائم والتردي، وسقوطاً في مناخ التهويد عن حسن نية أو غباء، أو عن عمالة وتآمر وكيد لهذه الأمة.

ولا بد لنا من الاعتراف بأننا نمثل الآن، وأكثر من أي وقت مضى، مرحلة «القصعة» ومرحلة «الغثاء» التي حذر الرسول ﷺ من الانتهاء إليها عندما تتداعى علينا الأمم، لكن بعضنا يصر على الاستكبار، ويلفه الصلف، ولا يرضى أن يعترف بالحال التي نحن عليها، والذي يشكل بداية الطريق إلى الحل من خلال الأرض التي نقف عليها، حيث ما زلنا نسمي الأمور بغير أسمائها، ونتابع رحلة التضليل والمغالطة، ولا زالت الهزائم تقرأ لنا انتصارت... ولا زلنا نذكر بأسى شديد الشيء الكثير عن فلسفة الهزيمة في نكبة ١٩٦٧م والتي شكلت نقطة تحول في الوجود اليهودي، عندما رفعنا شعار أن «إسرائيل» لم تحقق هدفها (الذي حددناه لها نحن وهو إسقاط الأنظمة) وأنها احتلت الأرض ولم تستطع احتلال الإرادة العربية!! لذلك ذهب الناس يفتشون في خارطة العالم العربي عن الإرادة العربية التي لم تستطع «إسرائيل» احتلالها فلم يجدوها!!

قضية أجيال...

إن أعداءنا يتحركون بوعي وإدراك ودراسة ودراية لكل ما حولهم، يشدهم إلى ذلك ويدفعهم إليه رؤاهم الدينية التي يحملون الناس عليها ويحاكمونهم من خلالها، كما قدمنا، ويحاولون أن يوظفوا كل شيء من الغزو الفكري والتضليل الثقافي... وقد امتدت أيديهم إلى القيم الإسلامية للعبث بها وتحريفها، وهم المختصون تاريخياً بتحريف الكلم عن مواضعه، ولا بأس هنا أن نذكر مقولة رئيس وزراء دولة العدو «بيجن» في الكنيست الإسرائيلي -

بين يدي السلام الهزيل الموهوم ـ عندما قال: (إن حق إسرائيل في فلسطين أبدي تاريخي تشهد له الكتب المقدسة، ومنها القرآن الكريم، وقرأ قوله تعالى في سورة المائدة على لسان موسى عليه السلام ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (الآية: ٢١) وقال: إن الله فرض لنا الأرض المقدسة دون سائر الخلق، فلا يجوز لأحد دينياً أن ينازعنا فيها)..

وكانت المأساة أن بعض من يعيشون في عالمنا بدأوا يتساءلون: هل توجد مثل هذه الآية في القرآن الكريم؟! وإن وجدت فما حقيقة تفسيرها؟ أليست هذه هي المأساة بكل أبعادها: أن يكون يهود أقدر على توظيف قيمنا منا، ونحن نستمر في الضياع، ونعجز عن التعامل معها!!..

لقد كان موقف القرآن الكريم من يهود ـ أشد الناس عداوة للذين آمنوا ـ حاسماً جازماً غير قابل للمهادنة والتميع، لأن القضية مصيرية، قضية مصير البشرية، وقد حذر بشكل لا يقبل التأويل من اتخاذهم أولياء، وأن ذلك طريق المنافقين، وحذر أيضاً من الاطمئنان إليهم بأي شكل من الأشكال، وبيّن أن ملة الكفر واحدة، وأن الخطورة على المسلمين تكمن في التعاون الصليبي اليهودي لأن جذورهم واحدة، وبعضهم أولياء بعض... ويؤكد هذا الآن، ما تناقلته وكالات الأنباء من أن «بيجن» بعد احتلال قواته قلعة «الشقيف»، أعادها إلى «سعد حداد» قائلاً: إننا نعيد إليك القلعة التي افتقدها أجدادك أيام صلاح الدين..

قال تعالى في أمر موالاة اليهود والنصارى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّه مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَومَ الظَّالِمِينَ. فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ إلى أن يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي

﴿اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٥١ ـ ٥٤).

فهل ندرك:

أن موالاة اليهود والنصارى ردة عن دين الله، وأنه طريق المنافقين، وفلسفة المنافقين، وأنه مهلكة للأمة وطريق لانتهائها واستبدالها بقوم يحبهم الله ويحبونه، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يسيرون في طريق الجهاد؟.. وأن موالاة اليهود والنصارى تسقط الجهاد من الحساب، وذلك نهاية الذل والخذلان؟ ولا يتسع المقام هنا لبيان سبب نزول الآيات، وقد يكون المطلوب قراءتها أكثر من مرة لأنها يمكن أن تفسر إلى حد بعيد الكثيرمما نحن فيه.

وبعد:

فقد نكون عاجزين لسبب أو لآخر عن مواجهة القضية الآن، فلا أقل من أن نعترف بعجزنا، ونرفع أيدينا عنها ونتركها للأجيال القادمة، فهي أكبر من أن تكون قضيةجيل بعينه، أو رجل بذاته مهما أضفى على نفسه من الألقاب التي تأتي في غير موضعها، نتركها للأجيال تستلمها بأمانة دون زيف أو تدليس، فإن القضية مع يهود قضية صراع ديني تاريخي حضاري ثقافي لا يمكن لأحد أن يقفز من فوقه ويعطي نفسه أكثر مما تمتلك وتستحق، فيظن أنه ينشيء قضيةحضارية، أو يلغي تاريخاً ثقافياً، أو يغير جبلة بشرية بتوقيع أو بمعاهدة أو بمقررات..

لا بد أن يتوقف العد التنازلي في حياتنا، فلقد كانت المشكلة في عام ١٩٤٨م قبول العرب بـ «إسرائيل» فأصبحت المشكلة الآن: اعتراف «إسرائيل» بالعرب.

[المحرم ١٤٠٣هـ ـ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٢م]

نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ

لو أحصينا عدد المهاجرين من بعض دول المسلمين بسبب القمع السياسي والإرهاب الفكري، لتوازى عددهم مع عدد الفلسطينيين المهجرين من بطش يهود.. فالمأساة تكاد تكون واحدة وإن اختلفت الأسماء والمسميات.. من هنا نقول: إن الذين يعملون على سلخ الأمة عن إسلامها، ويمارسون الاعتداء على عقيدتها وكرامتها، هم طلائع جيش العدو، يعيشون في أرضنا، ويمهدون لهزائمنا المتلاحقة..

* * *

الحراب العربية

نصف قرن من الزمان في معركتنا المباشرة مع يهود، والنكبات تستمر، والنكسات تتوالى على هذه الأمة، والأرض العربية المسلمة تنحسر وتتناقص من أطرافها، وجيوش اللاجئين والنازحين والوافدين ـ ولكل مرحلة تسمياتها ـ تغطي ما تبقى من أرضنا، وخيامهم مزروعة أينما اتجهنا وحيثما سرنا، وكل يوم نحن بحاجة إلى أراضٍ جديدة لإقامة المخيمات التي لم توقظ فينا عقيدة، ولم تثر فينا حمية، بل شكلت مناخاً لزرع وتربية حواس جديدة في نفوسنا، هي، حواس الذل والمهانة، وإشاعة الخوف والانكسار.

لقد حلت مخيمات اللاجئين في عالمنا الإسلامي محل معسكرات المجاهدين، وحلَّ التطبيل والتزمير محل الإعداد والاستعداد وامتلاك إرادة القتال، وأدوات الحرب التي ننكأ بها عدونا، لنكون صادقين مع الله ومع

النَّاس، وغدت معظم بلاد العالم الإسلامي ضواح للدول الكبرى تأمرها فتأتمر، وتزجرها فتنزجر، ولا تستطيع الخروج عما رسم لها قيد أنملة، فالموالون للشرق يصيحون ملء حناجرهم: لا غربية، والموالون للغرب الذين أقاموا أنصابهم وأزلامهم في أوروبا وأمريكا يصيحون: لا شرقية.

وتعيش الشعوب المسكينة المغلوبة على أمرها وهم الاستقلال، وتصدق فرية الشعارات التي تملأ عليها حياتها. وكلما حصلت نكبة، ارتفع الصياح أكثر فأكثر...

إن تهديد إسرائيل لجنوب لبنان، بل تهديدها للبنان واحتلالها الوشيك، أخذ حيزاً كبيراً من اهتمامنا، ومساحة واسعة من وسائل إعلامنا، وضربت له طبول الحرب أكثر من مرة، وعقدت الاجتماعات والمشاورات التي لم تخرج في حقيقتها عن أن تكون حلقة في سلسلة الاجتماعات التاريخية التي سبقتها، وولت الأدبار وباءت بغضب من الله، لأنها لم تقدم شيئاً لقضية الأمة، ولم تتخل عن طريقها وتعترف بالعجز..

واليهود يعرفون ذلك ويعتمدونه في خطتهم، تقول جولدا مائير: إنني أعرف هؤلاء العرب جيداً، إنهم يحتجون اليوم، ويقيمون المظاهرات ويصرخون.. ثم يحتفلون بالذكرى السنوية كل عام للقضية.

وحصل العدوان على لبنان وبدأت حرب الإبادة الكاملة للبقية الباقية، ومع ذلك يصر الكثير منَّا على أن يكون دوره دور المتفرج، إن لم يكن دور الشامت، لأنه متذرع بالحصافة والعقلانية، لدرجة تفوِّت على إسرائيل أغراضها، ولا تسمح لها بتحديد زمان ومكان المعركة!! والشعوب المسكينة ما زالت على قائمة الانتظار، والجيوش المحنطة في العالم الإسلامي انقلب دورها إلى حماية الأنظمة من الشعوب بدل حماية الأرض، وصون العرض على الحدود، إلى جانب المسلسلات الانقلابية التي وظفت لها، فأنهكتها وشلَّت قواها، وأفقدتها وظيفتها الأساسية.

وأظن أننا لا نأتي بجديد، إذا قلنا: إن ما أصاب المقاومة الفلسطينية من

الحراب العربية في أكثر من جهة، كان المقدمة الطبيعية لما تقوم به إسرائيل اليوم من حرب الإبادة في لبنان، لقد اقتسمت إسرائيل المعركة مع عملائها في عالم المسلمين الذين نيط بهم العمل على إنهاك المقاومة الفلسطينية، ومن ثم يأتي دور إسرائيل في العمل على إنهائها، وهذه بديهية أصبح يعرفها القاصي والداني مهما حاولنا تزييف التاريخ، فبعض شواهده ما زالوا على قيد الحياة.

حصاد الهشيم

إن واحدة من هذه الهزائم الساحقة واللاحقة كانت كافية لوقفة مراجعة جريئة على كل المستويات، والاكتشاف أن سبب هذه النكبات هو غياب روح الوعي الإسلامي، وغياب البعد الإيماني عن ساحة المعركة، ولنستمع إلى ما تقوله صحيفة يديعوت أحرنوت في أعقاب غزوهم الأول لجنوب لبنان، وإقامتهم لدويلة سعد حداد، نواة الدولة المارونية الطائفية المنتظرة، قالت الصحيفة:

(إننا نجحنا بجهودنا وجهود أصدقائنا في إبعاد الإسلام عن معركتنا مع العرب، ويجب أن يبقى الإسلام بعيداً عن المعركة، ولهذا فيجب علينا أن لا نغفل لحظة واحدة عن تنفيذ خطتنا في منع يقظة الروح الإسلامية بأي شكل، وبأي أسلوب ولو اقتضى ذلك الاستعانة بأصدقائنا لاستعمال العنف في إخماد أية بادرة ليقظة الروح الإسلامية).

إن جميع الصور والممارسات التي يعيشها عالمنا الإسلامي، هي المقدمات الطبيعية لما انتهينا إليه، فأين الإسلام من المعركة، وأين أصبح الجيل المسلم الذي يشكل الخطورة الحقيقية على إسرائيل؟! هل استطاعت إسرائيل بواسطة أصدقائها إخماد يقظة الروح الإسلامية؟! ندع الجواب إلى وسائل الإيضاح الكثيرة التي تملأ علينا حياتنا في العالم الإسلامي، فلماذا نصنع التماثيل من الثلج ونبكي على ذوبانها؟

والأمة المسلمة اليوم تُعَاقَبُ بسيوف يهود وحرابهم، هي عقوبات يوقعها

الله في الأمة التي تتخاذل عن نصرة دينها، ويكثر فيها الخبث، وتقعد عن الأخذ على يد الظالمين الذين غدروا بقيمها، ومارسوا عملية سلخها عن إسلامها، إنها ركنت إلى الذين ظلموا وتعايشت معهم، فكان لا بد أن تمضي فيها سنة الله.. ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

إنه الغياب الإسلامي المخيف، لقد غاب البعد الإيماني عن حياتنا، وغاب سلاح الإيمان عن معاركنا، ونحن تاريخياً لم ننتصر بعدد ولا عدة فقط، وإنما انتصرنا بهذا الدين، ولا يفهم من هذا عدم الإعداد المادي، والله تعالى يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ﴾ بل لا بد من إعداد المؤمن المجاهد أولاً، ومن ثم يأتي الإعداد المادي، فالرجل هو الذي يحمل السلاح ويستعمله، وليس السلاح هو الذي يحمل الرجل، ولعل في وصية سيدنا عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص، ومن معه من الأجناد.. رضي الله عنهم، شيء من العبرة والبصائر في هذه المناسبة، قال عمر رضي الله عنه.

(أمّا بعد... فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، لولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا بالقوة، وإلاَّ نُنْصر عليهم بفضلنا.. لم نغلبهم بقوتنا فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا: إن عدونا شَرٌّ منَّا فلن يُسلط علينا، فرب قوم سُلِّط عليهم شَرٌّ منهم، كما سُلِّط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله، كفار المجوس، فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولاً، اسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم..) فأين موقفنا من الإسلام، وموقع الإسلام من حياتنا، والله تعالى يقول: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

سنوات طوال عجاف.. والمحاولات دائبة لسلخ الأمة عن إسلامها،

درع وقايتها وعدة كفاحها، ونصب الآلهة المزيفة والاستنصار بها من دون الله، ومحاولة نقل قبلتها إلى الشرق تارة وإلى الغرب أخرى.. حيث كان الحصاد هشياً.

ضحايا التصورات الخاطئة

لقد سقطت مدارسنا وجامعاتنا ومعاهد التعليم، والكثير من وسائل الإعلام في بلادنا في أيدي يهود قبل أن تسقط الأرض، ولا يظنن أحد أن سيوف يهود مشهورة على حدودنا، ورماحهم مزروعة في أرض فلسطين فقط، إنها الأشباح تطاردنا في كل مكان.

من أجلها تشرع تشريعات القمع السياسي، والضنك الاقتصادي، وتشرع وتُحْكَم أحكام الطوارىء في أكثر بلاد المسلمين، ومن أجلها قامت المسلسلات الانقلابية طيلة نصف قرن من الزمان، حتى لا يكاد ينجو أحد من الاتهام بالعمالة اليهود، ولا نريد هنا أن نذكر بقائمة الزعماء التي مرت بعالمنا خلال هذه الفترة، ولم يستطع أحدهم أن يحتفظ بسمعته، والذي استطاع أن يحرسها بعسكره حال حياته نفذت عليه الأحكام بعد مماته، وأن عمليات القمع السياسي، والإرهاب الفكري، وتهجير العقول، واستلاب الحريات، وإماتة روح المقاومة في نفوس الأمة التي تمارس في أنحاء كثيرة من بلاد المسلمين، تكاد تجعل الإنسان غريباً في وطنه، ولو أحصينا عدد المهاجرين من بعض دول المسلمين بسبب القمع السياسي والإرهاب الفكري لتوازي عددهم مع عدد الفلسطينيين المهجرين من بطش يهود، فالمأساة تكاد تكون واحدة وإن اختلفت الأسماء والمسميات، من هنا نقول: إن الذين يعملون على سلخ الأمة عن إسلامها، ويمارسون الاعتداء على عقيدتها وكرامتها، هم طلائع جيش العدو، يعيشون في أرضنا، ويمهدون لهزائمنا المتلاحقة، والحقيقة التي لا بد من تأكيدها بعد هذه المعطيات الكثيرة التي نعيشها هي أن الفلسطينيين يُحَاربون وتجمع الدنيا على إبادتهم على أنهم أحفاد المسلمين، صلاح الدين ونور الدين وقطز

وقادة الفتح، وتصب عليهم نيران الأحقاد التاريخية الصليبية والصهيونية مهما كان واقعهم وتسمياته، ومحاولة إبعادهم عن الإسلام سلاحهم الحقيقي ودرعهم الواقي.. فأين سلاح الإسلام في المعركة، وأين تربية الإسلام في البناء، وأين حقوق الأخوة الإسلامية في التضامن.. والنصرة والموالاة، والحميم يصب على رؤوسهم أمام سمعنا وبصرنا؟!

لقد ذهب الكثير منهم ضحية تصوراتهم الخاطئة، ولم يغن عنهم شيئاً إعلانهم القبول بالدولة العلمانية، وتشكيلهم للمنظمات اليسارية، وممارسة بعضهم لحياة الانسلاخ عن الإسلام، فهل ما زلنا نحتاج إلى مزيد من القوارع حتى يعود إلينا الوعي؟!.. فما أشبه اليوم بالبارحة، ما أشبه واقع الأمة اليوم بواقعها أيام الحملات الصليبية!!..

إن الصليبية الفاجرة واليهودية الماكرة، وربيبتهما الطائفية الحاقدة هي التي تحكم صورة المعركة، ومع ذلك لا يزال بعضنا يقابل ذلك بالذهول وبعمى الألوان..

وبعد: فنحن واثقون بأن مصير يهود والصليبيين الجدد لا يختلف عن نهاية الصليبيين القدامى، وسوف تنتهي فترة غياب الجيل المسلم القادر على تحرير الأرض وحماية العرض، ورب ضارة نافعة، فالهزائم المتوالية، وسقوط قائمة الشعارات التي أريد لها أن تكون البدائل الفكرية عن العقيدة الإسلامية، جعل الأمة تفكر في استئناف طريقها إلى الإسلام من جديد مهما عظمت التضحيات، وتعتقد بحتمية النهج الإسلامي لانتهاء رحلة التضليل الثقافي، والضياع النفسي، والاستعمار العسكري، وقد حذرها الله تعالى بقوله: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

[شوال ١٤٠٢هـ - آب (أغسطس) ١٩٨٢م]

فِلسْطين وَالذاكِرَة المَفْقودَة

إن عمر الأمم لا يقاس بالسنوات التي يقاس بها عمر الأفراد، ولا يحكم على أمة من خلال مرضها أو أثناء مرضها. . وأن الصليبيين، بكل أحقادهم وإمكاناتهم، استمروا في احتلال بلاد المسلمين قرابة قرنين من الزمان، وكانت الأمة بإسلامها، درع وقايتها وعدة جهادها، قادرة بعد ذلك على طردهم، ونحن واثقون بأن مصير يهود لا يختلف عن نهاية الصليبيين، وسوف تنتهي فترة غياب الجيل القادر على التحرير، ذلك أن العقائد أبقى من السياسات، والشعوب أقوى من الحكومات، وأن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على أبواب دمشق وعلى أبواب بيت المقدس وما حوله، لا يضيرهم خذلان من خذلهم، ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة».

ولعل هذا الربط الذي يلمحه الإنسان من حديث رسول الله ﷺ، من وحدة الجيل المسلم، ووحدة المعركة، ووحدة الأمة، ووحدة المصير، لا تعوزه الدلائل، فمعركة المسلمين واحدة.

* * *

نعترف منذ البداية أننا لا نريد الكلام عن تاريخ القضية الفسطينية، ولا عن قيام دولة إسرائيل، الذي تعود الناس أن يعرضوا له في مثل هذه المناسبات ـ تأسيس دولة إسرائيل ـ ابتداء من نشوء الفكرة في رؤوس زعماء

إسرائيل، وظهورها على ألسنتهم، وفي كتاباتهم، واعتمادها في مؤتمراتهم، والتزامها في سلوكهم، وطريقهم الطويل إلى أرض الميعاد، ووسائلهم الكثيرة والمتعددة لتحقيق ذلك.

فالكثير من الصحف والمجلات في عالمنا الإسلامي تكفينا ذلك، فالأمر يكتفى فيه بالرجوع إلى مفكرة المناسبات والأحداث، حيث إن القضية أخذت مكانها في سجل المآسي والأحزان، ومن ثم تأخذ الملف الخاص من الأرشيف، وتعيد طرح المعلومات من جديد، وقد تضيف إليها بعض الصور الجديدة والتصريحات التي يمكن أن تشكل معلومات إضافية، ولا نقول أضواء إضافية، لأنه على الرغم من كثرة الكتابات والكتاب، والورق والأقلام، لا يزال بعض الذين يقفون في طريق التحرير، ويقودون الأمة في الطريق المسدود، يشكلون الحواجز الحقيقية... والمشكلة بالنسبة لهم ليست في نقص المعرفة وإنما في الالتزام بأخلاقها.

إن أوراق القضية الفلسطينية، لا نقول: بلغت حمل بعير؛ وإنما هي أحمال، وقضية الأمة قبالة ذلك آخذة بالتراجع والعد العكسي، وإسرائيل ماضية في قضم أطرافنا، والواحد تلو الآخر، إن هذه الأوراق لو أحرقت على أرض فلسطين لكانت كافية أن لا تبقي فيها عدواً لله، ولو أحرقت على الساحة العربية لطهرتها من كل الذين يعملون لمصلحة يهود عن قصد وغير قصد، سواء أكان ذلك عن عمالة أم هبالة... وأخشى ما نخشاه أن تكون الكتابة والخطابة والصحافة، والبيانات والمؤتمرات أقنية مرسومة مسبقاً لتفريغ العواطف وتنفيس الطاقات والاعتماد النفسي للأمة، وخصاء معاني الجهاد من حياة المسلمين..

إنها صفحات نوبخ فيها أنفسنا بكثرة الكلام وقلة الأعمال، وتوظف في نهاية المطاف لمصلحة عدونا، يبصر فيها حقيقة الواقع الذي نعيشه، ويرسم المداخل الحقيقية للتعامل معنا، وتوظف هذه الأمور جميعاً لمصلحته، وقديماً قال الشاعر:

وَإِذَا مَا خَلاَ الْجَبَانُ بِأَرْضٍ   طَلَبَ الطَّعْنَ وَحْدَهُ وَالنِّزَالاَ

لقد أصبح الاحتجاج فناً قائماً بذاته في أدبنا السياسي، أو في فكرنا السياسي، إن صح التعبير، ولسوف يحفظه لنا التاريخ دون منازع، وأصبحت الشكوى وسيلة علاج خادع، إنها عودة إلى الطفولة البشرية التي تتوهم أن كل المشكلات إنما تحل بالبكاء والصياح والاحتجاج والخطب والمؤتمرات، ونحن هنا لا ندعو إلى كسر الأقلام، وإلغاء الصحف، وإيقاف المنابر، ولكن نقول: إن هذه الأمور هي في حقيقتها وسائل لشحذ العواطف، وإنارة العقول، وتبصير الأمة بعدوها، وتعبئة طاقاتها، وإعداد قوتها، لكن المشكلة عند كثير منا أن هذه الوسائل انقلبت إلى غايات بحد ذاتها، تأكل القضية فيزداد ارتكاسها.. إنها وسائل، فلتكن ولتبق وسائل تعتمد بالمقدار الذي يحقق للأمة أهدافها، ويخدم قضيتها..

قلنا في إثر إحراق المسجد الأقصى الأول: إن إحراق الأقصى جريمة لن تمر دون عقاب، وملأنا الدنيا خطباً ومظاهرات واحتجاجات واجتماعات وتصريحات، وبدأنا بمجلس الأمن، وانتهينا بالجمعية العمومية (الدورة ذاتها) وكان رد جولدا مائير في ذلك الوقت:

«إنني أعرف هؤلاء العرب جيداً، إنهم يحتجون اليوم ويقيمون المظاهرات ويصرخون.. ثم يحتفلون بالذكرى السنوية كل عام...».

فهل نذكر ذلك أم نتابع فقدان الذاكرة، فيصدق فينا قول القائل: يرضى القتيل وليس يرضى القاتل..

وأخشى ما نخشاه هنا أن يشكل هذا الذي عليه الواقع اليوم مُناخاً تُنشَّأ من خلاله الأجيال، وتربى عليه الأطفال، فتفتقد الكلمات معناها، وتنهي الأمة إلى لون من التضليل والضلال، تضيع عليها الجهات، وتختلط عندها المفاهيم، ويتوارث الأبناء عن الآباء كثرة الكلام وقلة الأعمال، واهتزاز القيم، واعوجاج المقاييس..

باسم قضية فلسطين..

ولنا أن نقول إذا تتبعنا مسار القضية التي سلخت من حياتنا الفكرية

والسياسية والاقتصادية قرابة نصف قرن أو يزيد، في أخطر عملية استنزاف: إن المناخ الذي تركته القضية يحكم حياتنا هو مناخ مأساوي أليم، أحدث اضطراباً سياسياً خطيراً، فلا بد من المصارحة خدمة للجيل القادم الذي يمكن أن يكون جيل القضية، لأن هذا الجيل قد تُودع منه أو كاد... إنه جيل الاسترخاء والرخاوة، وفلسفة الهزائم، والخداع السياسي، وصناعة البطولات والأبطال في الفراغ الذي عم حتى يكاد لا ينجو منه أحد.. إننا نعيش مرحلة أبطال الهزائم، والظاهر أن البطولة لم تقتصر في قاموسنا على ساحات النصر، وإنما للهزيمة أبطال لهم مقوماتهم ومسوغاتهم، ولسنا مبالغين إذا قلنا: إن هذا أصبح مناخاً عاماً، يحكم بعض المؤسسات الرسمية وبعض التنظيمات الشعبية أيضاً، فأي مناخ من الزيف والفساد الأخلاقي والسياسي المغشوش هذا الذي نورثه لأبنائنا؟! حتى كرست مفاهيم الفساد والاستسلام والظلم، وأصبح الرافض لها والخارج عليها متعصباً متطرفاً، وقد يصل الأمر ببعضهم إلى اتهامه بالهوس الديني.. ففي عام ١٩٤٨م كانت الأنظمة سبب الهزيمة وقيام إسرائيل، لذا كان لا بد من الخروج على الأنظمة وإسقاطها، أما في عام ١٩٦٧م فقد خسرنا المعركة، ولم نخسر الحرب، واحتلت الأرض ولم تحتل الإرادة، وهزمت الجيوش ولم تهزم الشعوب، وإن هدف إسرائيل كان إسقاط الأنظمة، فعجزت عن ذلك وسلمت الأنظمة، وأخفقت إسرائيل وانتصرنا!!

إنها ضريبة الوطنية التي يدفعها الفرد في عالمنا على شكل لا نظير له في دنيا العقلاء، ولا يظن أحد أن سيوف يهود مشهورة على حدودنا، ورماحهم مزروعة في أرض فلسطين فقط، إنها الأشباح تطاردنا هنا وهناك.. بها نقتل خصومنا ونحكم عليهم، وبها يقتلوننا ويحكمون علينا، ومن أجلها تشرع التشريعات، ويعبث بالأمن، وتصادر الحريات، وتمارس عمليات القمع السياسي، والضنك الاقتصادي.. ومن خلال المسلسلات الانقلابية طيلة نصف قرن من الزمان يكاد لا ينجو أحد من الاتهام بالعمالة ليهود، حتى ليمكننا القول: وبعملية إحصائية بسيطة للاتهامات المتبادلة: إن الصهيونية لم تقتصر على فلسطين، وإنما يمتد نفوذها إلى العالم العربي كله!! فأسهل طريق وأقصر طريق لمواجهة الخصوم الفكريين والسياسيين اتهامهم بالعمالة لإسرائيل!!

أما في إسرائيل نفسها، فاليهودي البولوني المهاجر إلى فلسطين. . الذي دخلها على رأس عصابات شتيرن للقتل والتدمير، والتمكين ليهود، هو اليهودي الذي يقوم على رأس العصابة التي أخذت شكل الدولة، ولا نريد هنا أن نذكرُ أو نذكِّر بقائمة الزعماء التي مرت على عالمنا خلال نصف قرن، ولم يستطع أحدهم أن يحتفظ بسمعته، والذي استطاع أن يحرسها بعسكره حال حياته، نفذت عليه الأحكام بعد مماته، . . فإلى متى تمتد هذه المأساة، وتُخفى عنّا الحقائق، وتمارس علينا الأباطيل، ونعاني من ألوان الاعتداء على كرامتنا وعقيدتنا في الداخل والخارج، كل ذلك باسم قضية تحرير فلسطين، وكأن من شروط الذين يحررون فلسطين أن يكونوا عبيداً لا حرية لهم، وأن يكونوا فجاراً تافهين لا عقيدة لديهم، وأن يكونوا فقراء لا مال لهم، وأن يكونوا أميين لا علم لهم، وأن يكونوا عزلاً لا سلاح عندهم. .

إنها مجموعة حقائق ما يزال الكثير يتجاهلها أو يجهلها لنبقى نعاني من الهزيمة والعجز، وتمارس علينا عمليات التيئيس. . ابتداءً من نشوء إسرائيل التي بدأت مخلب قط ورأس حربة للاستعمار، وأن بإمكاننا أن نلقي بها في البحر إذا أردنا، لكننا لم نرد لأننا شُغلنا بتحرير بلادنا من الرجعية والامبريالية والاستعمار، وإن شئت قل: تحريرها من الحرية، فإذا بإسرائيل أسطورة في القوة لا يمكن التغلب عليها، فأصبحنا عاجزين، ليس عن تحرير أرضنا، بل الدفاع عما بقي منها. .

القابلية لإسرائيل!

من هذه الحقائق: أن إسرائيل ارتكزت على الرؤية الدينية التوراتية التي شدت يهود من شتى أنحاء العالم، سواء في الشرق أو الغرب، إلى أرض الميعاد، وأنها تحاكم العالم، وتحكم على الأشياء من خلال هذه الرؤية، وتسلك كل وسيلة لتأكيدها وتحقيقها، حتى أنها تعيد الآن خريطة فلسطين وتخلع على مناطقها المختلفة أسماء توراتية وتنبش لذلك الحجارة، وتجمع له الوثائق، وأن

لعبة التفريق بين اليهودية والصهيونية هي لعبة يهود أنفسهم، ومدخلهم إلى كثير من المؤسسات، كما أن لعبة اليسار واليمين من صناعتهم، كلون من توزيع الأدوار، وأن هذه الرؤية ما لم تقاوم برؤية ترتكز على العقيدة، سيبقى العالم العربي يرسم في الفراغ، ويحرث في البحر، وأن طرح الإسلام والجهاد كشعار، واغتياله في الحقيقة والواقع في مناهج التربية، وعلى مستوى المؤسسات والثقافة الشعبية جزء من المخطط، وشراكة في التآمر، وشرك في العقيدة والسياسة والثقافة..

● وأن التآمر على قضيتنا في فلسطين كان دولياً، شارك فيه الشرق والغرب، ابتداءً من الاعتراف بإسرائيل دولياً، وانتهاء بضمان كيانها ومدها بالسلاح المتفوق من الغرب والعنصر البشري الاستيطاني المهاجر من الشرق، إنه تحالف يهودي نصراني وثني، لأن الكفر ملة واحدة، والله تعالى يقول: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

ونكتفي بواحدة من أدلة كثيرة: على طريق بناء الدولة اليهودية، والهجرة إلى أرضها، اقترح هرتزل أن تكون قبرص مكاناً للدولة، فرفض تشمبرلن وزير المستعمرات البريطاني هذا الاقتراح لأن سكان قبرص هم من النصارى البيض!!

● وأن إسرائيل اعتمدت في قيامها واستمرارها على الرفض العربي، واستطاعت توظيفه لمصلحتها، ودرست ردود الفعل في المنطقة دراسة علمية، ورسمت لها الخطة والعمر الزمني، وانطلقت من ثوابت تراها وأهداف تسعى إلى تحقيقها، فهي تدرس الظواهر وتحللها وتخضعها لمختبرات وخبراء، وتخلص إلى خطة مرحلية تتقدم بها بشتى الوسائل، ولقد كتب كثيرون أن حرب ١٩٦٧م كانت مرسومة بدقة، وموقت لها، لأن الوقت قد حان لضم القدس والضفة الغربية وهضبة الجولان.. وأنه لا بد من اشتراك هذه الجبهات الثلاث ليقوم المسوغ.

● وأن الرايات الجاهلية التي طرحت في المنطقة، ورفعت للتحرير

أخفقت جميعاً، وكشف زيفها، وأنها لم تكن أكثر من أقنعة اختبأ وراءها أعداء هذه الأمة في عقيدتها وثقافتها وحضارتها وتاريخها، وأنها كانت مرفوعة على سواعد يهود لم يخرج دورهم عن أن يكونوا الدونمة من جديد.

● وأن إسرائيل أقيمت في قلب العالم الإسلامي بعد رحيل الاستعمار العسكري عنه لتمثل أداة استنزاف لقوته واقتصاده وطاقاته وحرياته وأمنه، تستنفد قدرته على استعادة دوره التاريخي، وهذا الأمر أصبح حقيقة، فكل الممارسات الرعيبة في عالمنا العربي تسوغ باسم تحرير فلسطين.

● وأن إسرائيل، كدولة طائفية عنصرية ذات رؤية دينية، بدل أن تعيد المنطقة إلى عقيدتها، درع وقايتها وعدة جهادها، أيقظت فيها الحركات الطائفية والأقليات العرقية، وأمدتها بكل مقومات الحياة لتبقى ألغاماً موقوتة مخيفة يستمر تفجرها في الجسم العربي المسلم، الأمر الذي أدى إلى تمزيق أوصال الأمة وإنهاك قواها.

● وأن اليسار العالمي، مهما حاول التضليل والكلام عن السلام الدولي، والمناداة بحقوق الشعوب وحريتها، لم يخرج عن كونه بديلاً في عالم المسلمين، وكان إحدى لعب يهود الذين أتقنوا توزيع الأدوار ـ وإننا بكلٍ تادوينا فلم يشف ما بنا ـ وأن المؤتمرات اليسارية الشيوعية هي أول من رفع العلم الإسرائيلي على الرؤوس العربية في مؤتمر صوفيا، وهو الذي مهد لقبول إسرائيل نفسياً عند بعضهم وحضر للقابلية لها.

● وأن مداخل يهود تاريخياً كانت بعض المؤسسات الحاكمة وأصحاب النفوذ في الجماعات والأحزاب، وأنهم كانوا وراء الكثير من الانقلابات والتغييرات التي رفعت الرايات الوطنية وانتهت في حقيقتها إلى مصلحتهم ابتداءً من الانقلاب على السلطان عبد الحميد رحمه الله، ولسنا الآن في هذه العجالة بسبيل أن ندلل أنهم كانوا المستشارين لكثير من الكبراء والزعماء والمتنفذين، وأنهم قبل الدول وبعدها، وفي كثير من المجتمعات، يعيشون في الظل، ويحكمون من الظل، ويؤدون دورهم في الوقت المناسب.. وهم قادرون على

التشكل والكمون لفترات طويلة.. لقد بدأوا «مشوارهم» الطويل مع الرواد الأوائل للشيوعية، وانتهوا إلى السيطرة على مؤسساتها وتوظيفها.. وأذاقوا المسلمين الأمرين على أيدي الشيوعيين في مناطق متعددة ليس آخرها أرتيريا وأفغانستان. أما في المجتمع الغربي الرأسمالي فأمرهم معروف..

جبهة إسلامية شعبية

● وأن عدوهم الحقيقي والتاريخي والحضاري هو الإسلام، بعقيدته ومؤسساته، وأنهم لا يخفون تخوفهم منه ومن المتمسكين به الذين يعتبرونه العدو الحقيقي.. لذلك نرى الذراع الإسرائيلي تمتد بصورة أو بأخرى للعبث بمناهج التعليم وتهويدها، والسيطرة على وسائل الإعلام وتوجيهها وإبعادها عن المرتكزات الإسلامية، أما عن وسائلها وأدواتها في حرب الدعاة إلى الله، ومكرها لإبادة الجيل المسلم ومحاولتها وأد حركة الوعي الإسلامي، فقد أصبحت واضحة لكل ذي عينين..

● وأن المسجد كان ولا يزال، بما يحمل من معان وما يؤدي من رسالة، هو حصن الأمة من الذوبان، منه تستمد جهادها، وفيه تحفظ أصالتها، وهو حده تاريخياً الذي خرجت منه كتائب التحرير والجهاد، فلا غرو أن تخرج حركات رفض العدو المحتل منه، وأن يكون عنوان هذه الانتفاضة الآن، انتفاضة المساجد، وأن يصرح الحاخام كهانا: إن حركته ستخوض صراعاً حاداً من أجل استعادة ما أسماه الهيكل، وإزالة المساجد الإسلامية بما فيها المسجد الأقصى...

● وأن الذين يدمرون المسجد، ويعطلون رسالته، ويحولون بين الجيل وعقيدته هم جنود في جيش العدو، وأداة بيد الصهيونية مهما كانت الأسباب والمسوغات..

● وأن انتفاضة المساجد، دليل على أن هذه الأمة لن تموت، وأن الجسم الذي حاولت إسرائيل ـ طيلة نصف قرن تقريباً ـ إنهاء الحياة فيه ما يزال ينبض

بالحياة، وأنها دليل على أن الإسلام هو وحده القادر على تعبئة طاقات الأمة ومواجهة عدوها كما كان تاريخياً.

● وأن هذه الانتفاضة تجدد في الأمة شبابها، وتؤكد ذاتها، وتبصرها بعدوها.. إلى الكثير من هذه المعاني الإيجابية التي تحملها الانتفاضة، إلا أننا نرى أيضاً أن الأمة بواقعها عاجزة عن الاستفادة من هذه الانتفاضة التي يمكن أن تعتبر إلى حد بعيد، دليلاً على وجود الطاقات وعجز القيادات عن الاستفادة منها، والذي يخشى منه أن تكون هذه الانتفاضات التي يمكن أن تعتبر إلى حد بعيد، دليلاً على وجود الطاقات وعجز القيادات عن الاستفادة منها، والذي يخشى منه أن تكون هذه الانتفاضات الشعبية ومضات على الطريق حيث لا يوجد من يكتشف الطريق ويسير فيه، وبذلك يتمكن العدو من دراستها ووضع الخطط لإبادتها بالقضاء على أسبابها، أما نحن فنبقى متفرجين ومصفقين وكأن الأمر لا يعنينا، إنها ومضات تضيء، لكن نخشى عليها الاحتراق..

● وأن الحواس الشعبية الإسلامية كانت دائماً الأقدر على الاستشعار المبكر للخطر، وكان حسها صادقاً، لذا فمن الواجب الشرعي المحافظة عليها، وتركها تنمو بعيداً عن المؤسسات الرسمية والحكومية التي يمكن أن تغيب عنها بعض المعاني تحت وطأة العلاقات الدولية والروابط السياسية والدبلوماسية، وما إلى ذلك من المسوغات..

وأنه لا بد من إقامة قوة إسلامية دولية بعيدة عن النظم الرسمية وشبه الرسمية..

وبعد، فلا شك أن عمر الأمم لا يقاس بالسنوات التي يقاس بها عمر الأفراد، ولا يحكم على أمة من خلال مرضها أو أثناء مرضها.. وأن الصليبيين، بكل أحقادهم وإمكاناتهم، استمروا في احتلال بلاد المسلمين قرابة قرنين من الزمان، وكانت الأمة بإسلامها، درع وقايتها وعدة جهادها، وقادرة بعد ذلك على طردهم، ونحن واثقون بأن مصير يهود لا يختلف عن نهاية الصليبيين، وسوف تنتهي فترة غياب الجيل القادر على التحرير، ذلك أن

العقائد أبقى من السياسات، والشعوب أقوى من الحكومات، وأن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على أبواب دمشق وعلى أبوب بيت المقدس وما حوله، لا يضيرهم خذلان من خذلهم، ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة».

ولعل هذا الربط الذي يلمحه الإنسان من حديث رسول الله ﷺ، من وحدة الجيل المسلم، ووحدة المعركة، ووحدة الأمة، ووحدة المصير لا تعوزه الدلائل، فمعركة المسلمين واحدة.

[شعبان ١٤٠٢هـ - حزيران (يونيو) ١٩٨٢م]

البُعدُ الحَضَاريّ لِحَركَة الوَعي الإسْلاميّ

لقد أريد هذه الأمة أن تبقى في مواقع التخلف التي تلجئها إلى الاستيراد، ليس استيراد الأشياء المادية فقط كما يتوهم البسطاء، وإنما تشكل الأشياء المادية الغطاء الذي تتسلل من خلاله العقلية والروح التي أنتجتها، وصورة الحضارة التي صنعتها، وبذلك تصبح البلاد الإسلامية امتداداً للحضارة الأوروبية وواقعة تحت تأثيرها. وليس الخبراء في عصر الوصاية التكنولوجية في الحقيقة إلاّ الجسور التي تمر من خلالها ثقافة أمتهم وحضارتها وعاداتها وتقاليدها، إنهم المبشرون الجدد...

* * *

سقوط البدائل..

يشهد العالم الإسلامي اليوم تحديات خطيرة، ومنعطفات كبيرة، وأحداثاً جساماً، كما أنه يمر بتحولات جذرية على مستوى الفرد والأسرة والجماعة والدولة، بعد هذه المعاناة المريرة من التيه والضياع وسحر أعين الناس. والأمر الذي نريد له أن يكون واضحاً منذ البداية: أن الصحوة الإسلامية بمظاهرها المختلفة وتياراتها الظاهرة والخفية ليست قضية عارضة، من السهل احتواءها، والقضاء عليها، كما أنها ليست رد فعل، جاء نتيجة لظروف طارئة، وملابسات مبهمة، وإنما هي ثمرة لوعي تاريخي، وعودة إلى الأصل وتصحيح الانتماء، واستلهام للشخصية الحضارية التاريخية، التي رسمت الأبعاد الصحيحة لحركة الأمة الشاملة على مختلف المستويات.

إنها صحوة جاءت من العمق التاريخي لهذه الأمة، وعودة بصيرة مبصرة من خلال كل الظروف والملابسات والتجارب التي دفعت الأمة ثمنها الكثير من الضحايا، ثم تبين لها التضليل والضلال والحصاد المر، ذلك أن الشعارات التي رفعت على أرضها، والممارسات التي رافقتها، كانت دون سوية شخصيتها الحضارية، لذلك سقطت، ولم يكن سقوطها سياسياً، لاستبدال شكل بآخر، بل كان سقوطاً حضارياً، وثقافياً بكل ما في الكلمة من معنى.

إن هذه الصحوة لم تأت من فراغ: ولن تضيع عليها الجهات، إنها تحاول أن تترسم معالم الشخصية الحضارية لهذه الأمة، وتلتزم القيم المنزلة، البعيدة عن العبث والأهواء والتسلط، لقد أدركت رسالتها، وعرفت دورها، وشعرت بمسؤوليتها تجاه البشرية التي جعلها الله شاهدة عليها.

والأمر الذي نحب أن نؤكده دائماً، والذي لا يحتاج إلى كثير من التأمل والتفكير، أن كل التجارب والبدائل، التي حملت إلى عالم المسلمين، والتي أسقطت الأمة تحت وطأتها لسبب أو لآخر، لم تُكْتَب لها الحياة لأنها دون سوية الشخصية الحضارية الإسلامية في مجال الحكم والسياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق.. وهذه بَدَهية مهما حاول أعداء الإسلام تجاهلها. والمعروف تاريخياً: أن الأمة الإسلامية قد امتحنت، بما لم تمتحن بمثله أمة من الأمم، ولا شعب من الشعوب، وأن الحضارة الإسلامية تعرضت لنوع من التضليل والتزييف والسرقة، وابْتُلِيَت بجيل عاق من صنع أعداء الإسلام، ما يكفي لمحوها من الوجود.

حضارة المغلوب..

لقد كان الصدام الأول مع الصليبية العالمية التي دامت قرنين من الزمان تعمل لطمس معالم الشخصية الإسلامية، ثماني حملات صليبية غربية بحضارتها وثقافتها وعاداتها وأخلاقها وأشخاصها وعسكرها، قرنان من الزمان وأجيال تولد وتموت في ظل الاستعمار الصليبي، زحفت أوربا بكل أحقادها وجيوشها، ومع

ذلك انتهت عاجزة عن تحقيق الانكسار النفسي لهذه الأمة، والقضاء على عقيدتها وثقافتها، ثم تلتها زحوف التتار والمغول، والتي جاءت ساحقة ماحقة أتت على كل شيء بالتدمير، حتى سالت الدماء أنهاراً، لقد حرَّقوا الأخضر واليابس، وحطموا أشياء الأمة، وحكموا على فكرها وتراثها بالإعدام، ونفذت الأحكام، وألقيت آلاف الكتب والمخطوطات في الأنهار والمحارق، ولم تكن الدماء التي سالت بأقل من أنهار المداد التي نزفت من فكر هذه الأمة، ولم يكن حقدهم على الأموال أقل من حكمهم على الأحياء، الأمر الذي ظُنَّ معه أن قضية الإسلام والمسلمين قد انتهت إلى غير رجعة، ثم كان النهوض، وكانت شخصية الأمة الحضارية وتراثها الثقافي (عالم أفكارها) أقوى من سواعد العسكر المغولي، لقد استطاع العسكر المغولي تحطيم أشياء الأمة وعجزوا عن تحطيم أفكارها، وكانت حضارة المغلوب أقوى من سواعد الغالب، فانقلب العدو الكافر الذي جاء للقضاء على الأمة، مؤمناً يحمل رسالتها، ويلتزم عقيدتها، ويدفع عنها كيد الكائدين، كما تغلب الصليبيون عسكرياً وفشلوا حضارياً من قبل، لقد ابتلعتهم الحضارة الإسلامية، ومن ثم ألقتهم خارج الحدود، وعادت إلى شخصيتها التي استمدتها من دينها، درع وقايتها ومصدر قوتها.

ثم كانت حروب التبشير والاستعمار..

لقد أدركت أوربا ومن ورائها النصرانية غلطتها في الحروب الصليبية بشكلها المعروف ووسائلها العسكرية المكشوفة، فكان لا بد من التوجه إلى عقيدة هذه الأمة، إلى تحطيم أفكارها وعدم الاقتصار على تحطيم أشيائها، وبذلك يكون القضاء عليها واغتيالها من داخلها.

الاحتواء الثقافي..

والحقيقة التي لا بد من ذكرها والاعتراف بها، أن أوربا النصرانية، سبقت العالم الإسلامي في عصر الاستعمار الحديث على الأقل، إلى إخضاع خططها في غزو هذا العالم واستعماره سواءً في ذلك الاستعمار العسكري كمرحلة

متقدمة، أم التبعية الثقافية أو الاستعمار الثقافي - وهي الصورة الأخيرة للاستعمار - إلى دراسات واختبارت. وأنشأت لذلك المعاهد وشكلت له اللجان المتخصصة التي تجمع لها المعلومات، وتُقَدِّم لها الاختبارات، ويمكننا القول بأن دراسة تاريخ كل بلد، وعقيدته وعاداته وعوامل تكوينه أصبحت أمراً لازماً وضرورياً لرسم المداخل الاستعمارية، ووضع الخطط الاستراتيجية، لقد أصبح كل شيء خاضعاً للدراسة والاختبار والعلم، بل لعل العلوم الإنسانية التي تُمَكِّن للاستعمار، وتساهم برسم خريطة مناطق النفوذ أصبحت خاضعة لمختبرات أكثر دقة من العلوم الكيميائية والتجريبية.

وليست الحركة الاستشراقية التي نشأت في إطار الجامعات والمعاهد العلمية، إلا طليعة مبكرة، ومبكرة جداً للتمهيد للعمالة الحضارية التي تنتج بشكل طبيعي العمالة السياسية..

لقد امتدت يد الاستشراق إلى تراثنا تعبث فيه، وتعيد صياغته وقراءته على طريقتها، في حالة غياب كامل للشخصية الإسلامية، المنهكة من المواجهة العسكرية، ولم تستفق الأمة من غيبوبتها إلا وقد وجدت نفسها في موقع المحاكاة للحضارة والثقافة الغربية النصرانية بشقيها، وأن معظم تراثها المخطوط حبيس خزائن الغرب، والذي أُخْتِير منه وحُقق خضع لدراسات استشراقية ومقاييس استشراقية نصرانية مبكرة ومنتقاة، لتكون مصدراً لحياتنا الثقافية. لقد تأسست جامعاتنا ومعاهدنا التي جاءت متأخرة، على الطريقة الغربية، وخضعت في مناهجها ونوعية دراساتها وطرائقها التربوية للمناخ الثقافي الأوربي حتى إن معظم المدرسين كانوا من خريجي الجامعات الأوربية الذين تتلمذوا على يد المستشرقين، وكانوا نسخةمكررة عنهم، تحكمهم القوالب الأوربية، ويلتزمون مناهجها وينسجون على منوالها، إنها مرحلة الاستعمار الثقافي أو التبعية الثقافية التي لم نتخلص من آثارها حتى الآن..

في هذه المرحلة: الاستشراق يصنع، والتنصير (التبشير) يقوم بتسويق هذه الأفكار في عالم المسلمين على كل المستويات.

ولا ينكر أن القضية أغرت بعض البسطاء من ضحايا الغزو الفكري، الذين سقطوا فريسة لبعض المديح الذي مارسه المستشرقون لتاريخنا بالقدر الذي لا بد منه لاغتيال الشخصية المسلمة.

وبالإمكان أن نعتبر بأنه كلما قدر لهذه الأمة أن تكتشف وسيلة من وسائل الغزو الفكري تمكن أصحابه من استبدالها بوسائل جديدة..

لقد أريد لهذه الأمة أن تبقى في مواقع التخلف التي تلجئها إلى الاستيراد، ليس استيراد الأشياء المادية فقط كما يتوهم البسطاء، وإنما تشكل الأشياء المادية الغطاء الذي تتسلل من خلاله العقلية والروح التي أنتجتها، وصورة الحضارة التي صنعتها، وبذلك تصبح البلاد الإسلامية امتداداً للحضارة الأوربية وواقعة تحت تأثيرها شاءت أم أبت، وليس الخبراء في عصر الوصاية التكنولوجية في الحقيقة إلا الجسور التي تمر من خلالهم ثقافة أمتهم وحضارتها وعاداتها وتقاليدها، أفلا يحق لنا أن نعتبر الخبراء الذين يُسْتَقْدمون من الدول المتقدمة إلى الدول المتخلفة المعابر الحديثة للتبشير والاستعمار الثقافي إلا القليل النادر منهم، والقليل النادر من البلاد التي تتمتع بحصانة ثقافية؟.

وعلى الرغم من كل هذه الدراسات المتقدمة في هذا المجال، فقد فشلت عملية الاحتواء الثقافي إلى حد بعيد، بعد معاناة طويلة، ودروس مريرة، ويمكننا أن نعتبر أكثر الدراسات تقدماً في هذا المجال اليوم هي الدراسات الأوربية للإسلام ولظواهر الوعي الإسلامي بشكل أكاديمي، وتخصيص ساعات من البث الإذاعي لشعوب العالم الإسلامي.

لقد أدرك قادة الغزو الفكري أن بوابة العالم الإسلامي موصدة.. فبدأوا محاولة التسلل من خلال الإسلام نفسه وقراءته على الطريقة الأوربية الاستعمارية ليكون الإسلام الذي يريدون وليس الإسلام كما أنزله الله.

والمؤسف حقاً، أننا إزاء هذه التحديات الخطيرة، والدراسات المتقدمة، لا يزال البعض منا في العالم الإسلامي يواجهون ذلك بالخطب والحماس والمواقف الانفعالية الخاسرة والرسول ﷺ يقول:

«. . . إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب». . ما زالوا يطلقون الفرس الشقراء التي كانت تاريخياً إيذاناً ببدء مرحلة الاستعمار الحديث، ولم تزد على أنها كانت دلالة على مواطن الحس والحركة في عالم المسلمين ليسهل اكتشافها والتمكين للعدو في القضاء عليها، فإذا تحدثوا يخطبون، وإذا كتبوا يخطبون وينفعلون، في عالم يحكمه العلماء والمفكرون الصامتون.

ميدان العقل والقوة المادية

وبعد.. فنحن على يقين بأن الله سوف يهيء لدينه من يحمله ويدافع عنه، وأن أسلحة الغزو الفكري سوف تسقط بيد أصحابها. قال تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُور الله بِأَفْوَاهِهِم**. . .﴾ (سورة الصف: ٨) ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون**﴾ (الحجر: ٩).

إنه النور الذي لا يُطْفَأُ وَلاَ يَنْطَفِىءُ بهذه الأفواه الصغيرة بكل ما تحمل لأن الله تكفَّل بحفظه، ومرة بعد أخرى، وبالرغم من كل الأساليب والوسائل، فقد عجز الغزو الفكري أيضاً كما فشل الغزو العسكري من قبل، في تحطيم أفكار الأمة الإسلامية وشخصيتها الحضارية.

وكان القرآن هو القوة الفاعلة التي يعتصم بها المسلمون في عزَّتهم وانكسارهم.. إنه الحصن الثقافي، حفظ للأمة عالم أفكارها، حفظها من الذوبان، كان القوة التي تدفع المسلمين للتقدم والارتقاء كما كان القوة التي تعين على الثبات والمقاومة في حالات الغلبة والاضطهاد.

نعود إلى القول بأن اليقظة الإسلامية لم تنطلق من فراغ، إنما ترتكز إلى شخصية حضارية تاريخية كانت أقوى من الأزمات.

فهل يشهد العالم الإسلامي من جديد، في أوائل القرن الخامس عشر الهجري العودة إلى الأسلحة القديمة، بعد أن أخفق الغزو الفكري في تحقيق أهدافه إلغاء هوية الأمة؟

هل تتقدم العضلات لتأخذ دور العقل، بعدما ثبت من عجزه وإفلاسه

أمام القيم الإسلامية؟ ربما يكون ذلك، حيث الشواهد كثيرة في تاريخ النبوة الطويل، قال تعالى بعد أن قص علينا مناقشة الكفار للأنبياء وعجزهم وإفلاسهم في ميدان العقل والحجة ولجوئهم إلى العضلات والقوة المادية:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِم لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِن أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا...﴾ (إبراهيم: ١٣). وفي قصة فرعون مع السحرة عندما استبان لهم الحق وبطل السحر بقوله: ﴿آمَنْتُم لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُم وَأَرْجُلَكُم مِن خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُم فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾ (طه: ٧١). فقضية الإيمان باتت عنده محتاجة إلى إذن رسمي وإلغاؤها يتم بتهديد جسدي.

وبأن ما نشاهده اليوم من استنفار أعداء الإسلام ـ وهذا الإجماع الرعيب من كل حدب وصوب للقضاء على هذا الإسلام المتمثل في ظواهر اليقظة الإسلامية، قد تكون إلى حد بعيد دلالة على العودة إلى الوسائل القديمة من القهر والتسلط، بعد أن أعيتهم الحيلة، متذرعين ببعض الصور الشاذة التي تحمل شعاراً إسلامياً، وقد تكون إلى حد بعيد من صنع أعداء الإسلام، لأن طرح الصور الشاذة والمشوهة من لوازم الكيد وضروراته.

لقد بدأ التضليل الثقافي من جديد وكثيرون أولئك الذين أعطوا أنفسهم الحق في تقييم ظواهر الوعي الإسلامي، ولبسوا ثياب الجرح والتعديل، وبدأوا يهاجمون القيم الإسلامية من خلال بعض المظاهر الشاذة وأقل ما يقال فيهم: إنه ليس للإسلام نصيب من سلوكهم أو أثارة من فكرهم، فهم بهذا أعجز من أن يصححوا مساراً، أو يرشدوا ضالاً.

فالعودة إلى الأصول الإسلامية كما أنزلها الله ليست قضية أفرادٍ أو جماعات أو هيئات بأعيانها.. كما أنها ليست قضية عارضة أو حركة عشوائية، رافضة، وإنما هي قضية الأمة الإسلامية عامة غايتها العودة إلى شريعة الله والانضباط بأوامرها، وفي هذا الخير والرحمة للعالم قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) والله حسبنا ونعم الوكيل.

[صفر ١٤٠٢هـ ـ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨١م]

هَل طَالَ عليْنَا الأمَد فَقَسَت قلوبنا

هل يعتبر عزاء للمسلم أم مزيد حسرة وألم، معرفة أن الأيدي اليهودية التي أرادت لمسجد أيا صوفيا أن يصير متحفاً، هي الأيدي نفسها التي أقدمت على حرق المسجد الأقصى، وأن يهود الدونمة لا يزالون يعملون عملهم في عالمنا الإسلامي.. والمسلمون أسرى في عالمهم لا حول لهم ولا طول، عاجزون عن تقديم دمعة الحزن على مأساتهم لأنهم محاسبون عليها.. ولا تزال تقرأ لهم الهزائم على أنها انتصارات!!.

* * *

حريق المعاني كلها

سنوات طوال مرت على حريق المسجد الأقصى، وأطول منها أربع عشرة سنة مرت على نكبة حزيران (حرب الساعات الست).. نكبة حزيران التي كانت المقدمة الطبيعية لحريق المسجد الأقصى.. ليله لا يزال يغطي الكثير من أرضنا، في سيناء والجولان والضفة الغربية وقطاع غزة، وكآبته تملأ سماء المخيمات هنا وهناك، ومأساته تحتل نفوسنا، وآلامه الموجعة تحفر في وجداننا.

جنوب لبنان الذي أصبح أشبه ما يكون بغابات القنص، يستمتع بها العسكريون الصهاينة بمطاردة فرائسهم، أصبح مركزاً للتدريب، وميداناً للعمليات والمناورات العسكرية الحية، وفرصة لاختبار الأسلحة ومدى فعاليتها... جرح دائم لا يكاد يتوقف عن النزف..

والأمر الآخر وليس الأخير، كان ضرب المفاعل الذري العراقي على هذه المسافة، وفي هذا البعد، فهل طال علينا الأمد فقست قلوبنا؟!

في مثل هذه الأيام من شهر آب (أغسطس) كان حريق المسجد الأقصى الذي جاء بعد سلسلة من الجرائم الكثيرة في نطاق عمليات التهويد التي تستهدف كيان الأمة، وثقافتها، وحضارتها وطمس معالم شخصيتها التاريخية، حيث الحفريات ما تزال مستمرة تكاد تأتي على المسجد من أركانه بحثاً عن الهيكل المزعوم تحت بناء المسجد الأسير..

لقد كان حريق المسجد الأقصى صفعة من أكبر الصفعات لأمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، ومع ذلك فإن هذه الصفعة الموجعة، كغيرها، لم تساهم في إعادة الأمة إلى صوابها وتبصرها بحقيقة طريقها.

صحيح أن المسجد في الاسلام لا يقوم على رسوم وأشكال، فهو ليس بناء يقام، ومكاناً يخصص، وإماماً يعين، وكفى الله المؤمنين القتال.. فالأرض كل الأرض مسجد للمسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً».

فالقضية ليست عدواناً على بناء وأحجار، وحرقاً لأخشاب، وإنما هو التصميم على حريق كل المعاني التي يحملها المسجد ويؤديها في عالم المسلمين، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن المسجد بشكل عام لو أخذ بعده في نفوسنا، وأدى رسالته في حياتنا، واستمر في تخريج أجيال الجهاد في عالمنا، لو عمرنا المسجد في بلاد المسلمين ولم تحرق رسالته على أيدينا، لما حرق بناؤه في أرضنا المحتلة ولما كانت دولة «إسرائيل» أصلاً.

لقد احتلت «إسرائيل» القدس وأعلنت أنها العاصمة الأبدية لها وأنها سوف تسمح لأبناء الأديان الأخرى بالوصول إلى أماكنهم المقدسة التي يراد لها أن تصبح متحفاً ذا قيمة تاريخية تستهوي السياح، وتوظفه «إسرائيل» لحسابها (تقضي على مهمته الأساسية وتدنس حرمته وقدسيته بالمناظر الداعرة التي تحدث في ردهاته وساحاته)..

فمن الوجهة السياسية: المسجد باق أمام العالم كله. باق بشكله دون مضمونه، فإذا انتهى المسجد إلى مركز سياحي، أو متحف ذي قيمة تاريخية، أو مأوى للعجزة والقاعدين الطاعنين في السن، نكون بذلك قد حكمنا على الإسلام ـ عقيدة هذه الأمة، ودرع جهادها محرر فلسطين من الصليبيين ـ بالتوقف ليصبح في ذمة التاريخ، كما حكم من قبل على مسجد أيا صوفيا وغيره كثير في بلاد التقدمية والحرية!!

هل يعتبر عزاء للمسلم أم مزيد حسرة وألم، معرفة أن الأيدي اليهودية التي أرادت لمسجد أيا صوفيا أن يصير متحفاً هي نفس الأيدي التي أقدمت على حرق المسجد الأقصى، وأن يهود الدونمة لا يزالون يعملون عملهم في عالمنا الإسلامي.

والمسلمون أسرى في عالمهم، لا حول لهم ولا طول، عاجزون عن تقديم دمعة الحزن على مأساتهم، لأنهم محاسبون عليها، ولا تزال تقرأ لهم الهزائم على أنها انتصارات!!

وبعد هذا كله، هل نعيش المأساة فعلاً، على مستوى الفرد والجماعة والدولة؟ وهل نتعامل معها كما يقضي بذلك منطق الأشياء، أم نقرأها بحس متبلد، وذاكرة مفقودة، ثم ننصرف إلى مألوفنا ومعروفنا؟ نتعامل مع مآسينا تعامل النائحات المستأجرات، وليست النائحة كالثكلى... في أثر كل صفعة تبدأ الثورة بالأقلام، ويبدأ إعلان الجهاد، ولكن بالكلام، ونتبارى بالدعوة إلى ضرورة المؤتمرات واتخاذ التوصيات، الأمر الذي لا يخفى على العدو والصديق معاً..

وحبذا أن لا نبدىء في القضية ولا نعيد مع كل حلقة من حلقاتها، وإنما نكتفي بسماع الخطب وقراءة الصحف والمجلات وتوصيات المؤتمرات السابقة، ولا نضيع الأجر والعمر..

لقد كنا عاجزين خلال مأساتنا الطويلة أن نستفيد من أعدائنا، ومشكلتنا الدائمة: مناقشة النتائج التي تأتي ثمرة طبيعية لمقدماتها، وتناسي المقدمات التي صارت بالأمور إلى ما هي عليه الآن..

صياغة الرؤية الدينية وتوزيع الأدوار..

ولسنا الآن بسبيل الدراسة والمقابلة بين ما نحن عليه من الحال التي لا نحسد عليها، وبين حال عدونا الذي ابتدأ خرافة وأسطورة نهون من شأنها، وانتهى إلى خوارق تضبع الأمة ويصعب التغلب عليها، يروج لهذا من هم في داخل الأمة وخارجها ليأتي القبول بالعدو المحتل أمراً قسرياً..

ويكاد لا يشك الإنسان أن الأيدي التي وصفت «إسرائيل» قبل نكبة حزيران ١٩٦٧م، بالكيان الهزيل الذي لا يحتاج إلى أية قوة لإلقائه في البحر حتى يستمر العالم العربي والإسلامي في غطيطه، ولا يأخذ حذره ويقدر القضية حق قدرها، هي نفس الأيدي التي تحاول إسقاط العالم العربي في حالة من اليأس والاستسلام والخنوع بما تضفيه على أعمال «إسرائيل» من الخوارق والمعجزات والتفوق الذي لا يقاوم..

إن هذه الأيدي تمسك بزناد العدو، وتتجاهل تاريخ الأمة وجهادها وحضارتها، ولا نظن أننا، بحاجة أكثر إلى الدروس القاسية والعبر الماثلة لنعيد النظر بواقعنا على مختلف الأصعدة... ونتأكد من حتمية الحل الإسلامي، وأن الله لم يحذر هذه الأمة التي تحمل الرسالة الخاتمة من قوم كما حذرها من يهود، وأن المساحة التعبيرية التي تكلمت عن أخلاقهم وسلوكهم وتاريخهم تفوق كل مساحة في كتاب الله..

نقول: لسنا الآن بسبيل المقارنة والمقابلة، ولكنها لمحات وملاحظات لا بد منها، فالمتتبع لفكرة الدولة الصهيونية ابتداء من نشوئها في الذهنية اليهودية حيث توجيه اليهود المتوزعين في جميع أنحاء العالم نحو «أرض الميعاد» وصياغة الرؤية الدينية لهذه الدولة من خلال الكتب الدينية التي بين أيديهم..

هذه الرؤية التي شدت ولا تزال تشد يهود العالم إلى أرض الدولة بالهجرات المتزايدة، وانتهاءاً بقيام الدولة على أرض فلسطين..

المتتبع لفكرة الدولة، والوسائل التي استخدمت، والأدوار التي وزعت

على كل يهود من كل المستويات، يلحظ تلك المقدمات، فلا يفاجأ بالنتائج التي صارت إليها الأمور على الجانبين العربي واليهودي على حد سواء..

لقد وزعت الأدوار على يهود، كل يهود، في كل العالم، وعلى مختلف المستويات على كل فرد بحسب مكانه ومكانته، وقدراته واختصاصه..

فالحاخامون ورجال الدين كانوا وما يزالون يشحنون الفرد اليهودي بهذه الرؤية حتى أصبحت جزءاً عضوياً منه، غير قابل للمناقشة، فالطريق إلى «أرض الميعاد» هو قدره في الدنيا فلا يمتلك تغييره، وهو سعادته في الآخرة لأنه تنفيذ أمر الرب والتقاء مع وعده..

في إطار الرؤية الدينية جعلوا من توزعهم وتشتتهم حافزاً مستمراً لتغذية وحدتهم، وتأكيد غربتهم عن كل الأقوام والمجتمعات التي حلوا فيها، كما وظفوا ذلك لاستدرار عطف العالم عليهم فحولوا بذلك تشتتهم الذي هو في الأصل عامل سلبي إلى عامل إيجابي يخدم رؤيتهم الدينية ويصب في طريقهم إلى «أرض الميعاد» ومع الهجرة وضرورتها لم ينسوا ضرورة بقاء بعضهم في مراكزهم ضمن المجتمعات غير اليهودية للاستمرار في توجيهها أو السيطرة عليها لمصلحة الدولة اليهودية فهاجر من هاجر منهم من أوربا الشرقية والغربية، وبقي من اقتضت مصلحة الدولة بقاءه.

أما الكتاب والمفكرون، فلم يكونوا أقل من رجال الدين في بناء هذه الرؤية، وحمل يهود للسير في هذه الطريق بمختلف الوسائل عن طريق الرواية والقصة والشعر والنثر والمذكرات وسائر فنون الأدب والكتابة التي كانت ولا تزال تشكل الساحة الثقافية التي ينشأ من خلالها يهود، وتحول دون ذوبانهم في الثقافات الأخرى، وتضمن لهم استمرار مجتمعهم المغلق في سائر الظروف والأحوال، ولا نظن أحداً في عالمنا، حتى المعنيين بالقضية الفلسطينية، أحاطوا أو تعرفوا على الجانب الضروري فيه، كوسيلة من وسائل المواجهة الجادة.

أما المجال السياسي، فهو مجالهم الحيوي الذي يضع الهندسة الكاملة لبناء الدولة، ويحدد مهمات الأفراد في طريق الدولة، ويلحظ في هذا كله عواطف

الناس ومشكلات العالم في السلم والحرب، ويوظفها لمصلحة الدولة اليهودية، فقد تقتضي المرحلة وطبيعة المشكلات التي يعاني منها العالم: توزع الأدوار، وذلك باصطناع الاختلاف في بعض وجهات النظر، والمراهنة على حصاني السباق، والعمل من خلال كل التجمعات السياسية والأحزاب التي قد تبدو متناقضة في ظاهر الأمر.

أما الأغنياء، فهم الذين دفعوا من جيوبهم ثمن قيام الدولة، وتمويل كل الحركات التي ساهمت في بنائها، هذا من جانب، ومن الجانب الآخر جعلوا أموالهم وتحركاتهم المالية، وسيطرتهم على اقتصاد العالم، والقبض على حاجاته الأساسية، والتحكم بأرزاقه وأزماته وأسعاره، جعلوا حل ذلك كله مرهوناً بتحقيق مصالح يهود بشكل عام، وما اسم «روتشيلد» وغيره في طريق بناء الدولة والعمل لها، وتسخير أمواله في خدمتها بأقل من اسم «هيرتزل» وغيره من رجال الفكر والسياسة.

وليس نصيب العسكريين من المساهمة في الدفاع عن فكرة الدولة وتقديم التضحيات في سبيلها، ومن ثم إقامتها وحمايتها، بأقل من نصيب ومشاركات غيرهم فلعل دور العسكريين يأتي في المقدمة، يمهد الطريق ويذلل العقبات لقيام الدولة بعد أن نحتوا على الشكل اليهودي الذي أراده حاخاماتهم ورجال الدين فيهم، وتسلحوا بالثقافة اليهودية كما رسمها رجال الفكر، وأتقنوا الوسائل المناسبة كما حددها رجال السياسة..

لقد شارك العسكريون من يهود في الحربين العالميتين وقدموا الضحايا لكن حركتهم ضمن هذه الجيوش وتحريكهم لها كان ضمن هدف ونتيجة وخطة، فقد أقاموا الحرب وأنهكوا العالم وظفروا بنتائجها وجعلوها في مصلحتهم..

أما العلماء والخبراء، وكيف فرضوا وجودهم على العالم من خلال نبغهم في اختصاصاتهم، فتسلموا أعلى المنابر العلمية التي لا يزال العالم يتجه صوبها في الرياضيات والطب والكيمياء وعلم النفس وغير ذلك، وكيف جعلوا

اختصاصهم في خدمة عقيدتهم، وكيف أدوا دورهم كاملاً، فالطب وسيلة لتوجيه سلوك الناس واهتماماتهم فيما يريدون، والاكتشافات والاختراعات الكيماوية الحربية لا تسلم لاستخدامها في الحروب وصناعة الانتصارات إلا بشروط ووعود وضمانات لهم بإقامة الدولة، والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى..

المقدمات والنتائج

وبعد: لقد جاءت النتائج طبيعية ومنطقية مع هذه المقدمات، فما هو واقعنا على الجانب الآخر؟

أين موقع الرؤية العربية للقضية الفلسطينية، وما هو نصيبها من العقيدة والواقع التاريخي ومنطق الأشياء؟

أين موقع رجال الفكر والثقافة بيننا من صورة القضية؟ ألم يكن الكثيرين منهم ضحايا التهويد والثقافة اليهودية، يعملون على نشر الرذيلة وحرب الفضيلة، وإذابة كيان الأمة، وتمزيق عقيدتها..

أين موقع أغنيائنا من القضية، وأين اهتماماتهم بها وتضحيتهم في سبيلها؟ لقد استعبد معظمهم شهوات البطن والفرج، وكان المال وبالاً عليهم مكنهم من استيراد الرذيلة والفواحش، ونشر الترف والميوعة التي قتلت روح المقاومة..

وليس حال بعض رجال السياسة والعسكريين بأحسن من حال غيرهم، إنهم يعيشون نفس المناخ، والكثيرون يأكلون بالقضية ويعيشون على حسابها..

إن الذي يقوم بعملية مقارنة بسيطة بين واقعنا وواقع عدونا، بين مقدماتنا وما تنتج ومقدماته وما أنتجت، يرى الأمور طبيعية وأكثر من طبيعية فالعقل العربي مطارد ومهاجر لأسباب باتت معروفة للجميع، والمال العربي مهرب ليكون في خدمة أعداء الأمة في الخارج، والإنسان العربي منكود مطارد في إنسانيته، فكيف نطلب منه النصر؟.

لقد دخل حـريق الأقصى كغيره من المـآسي الكثيرة محـافلنا الـرسمية، واكتفينا بإقامة الندوات بمناسبة حرقه عن التفكير بفك أسره، وكان حرقه ولا يزال بالنسبة لبعضنا فرصة وموسماً للابتزاز السياسي والمادي..

ألا ليت المسجد الأقصى يبقى على صورته المحروقة كشاهد تاريخ يروي للأجيال القادمة حقيقة تاريخها، فيكون الحريق حافـزاً ومبصراً لهـا بأعـدائها الحقيقيين، ولا تجد فلسفة الهزيمة طريقاً إليها..

[شوال ١٤٠١هـ - آب (أغسطس) ١٩٨١م]

القدسُ والجهاد الإسلاميّ

الخارجون على الإسلام هم الجسر الحقيقي الذي مكّن اليهود من العبور إلى فلسطين، وهم الذين حاولوا طيلة القرن الماضي - إن لم نقل النصف الأخير منه - على طرح المشكلة الفلسطينية طرحاً مغلوطاً، ووضعها في غير إطارها الصحيح الذي يشهد له التاريخ، ويؤيده الواقع، وتؤكده الأحداث اليومية.. وهم لا يزالون يصرون على السير في هذا الطريق المسدود، رغم سقوط الطريق وسقوط أهل الطريق..

* * *

الجهاد.. والمواجهة المستمرة

الجهاد هو السمة المميزة لهذه الأمة في تاريخها الطويل، بل هو طريقها المرسومة إلى الهداية والتمكين في الأرض، وإرضاء الله تعالى، بإقامة المجتمع الإسلامي الذي يحكمه العدل ويعمّه الخير وتسوده المساواة وحمايته داخلاً بتطبيق الحدود، وخارجاً بمتابعة الجهاد في الإعداد والاستعداد لإرهاب العدو. قال تعالى: ﴿والَّذين جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وإنّ الله لَمَعَ المُحْسِنينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

والجهاد: ذروة سنام الإسلام لأنه عطاء أعظم ما يكون العطاء عطاء النفس والمال معاً.

والجهاد ماض إلى يوم القيامة.

لأن العدوان على هذا الدين وأهله قائم إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿**ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا**﴾ (البقرة: ٢١٧)... والشواهد على ذلك كثيرة وكثيرة جداً، تملأ على المسلم حواسه ويقرأها في كل ما حوله.

ولعل هذا العدوان المستمر، من لوازم الرسالة الخاتمة، وقَدَر حَمَلتها الذين نيط بهم القضاء على الباطل وديمومة التصدي له ومواجهة جولاته الأخيرة بكل أحقادها وخبراتها التاريخية لذلك كان الجهاد روح هذه الأمة ودرع حياتها. وكان القيام على الحق، حتى يأتي أمر الله، من أخص خصائصها. وكان الجهاد بمدلوله العام: الذي هو بَذْل الجهد في سبيل نصرة الحق (الإسلام) بشتى الوسائل المشروعة: فرض عيّن على كل مسلم، لا يكون المسلم مسلماً إلا به، كما كان بمدلوله الخاص: الذي هو بذل الجهد في سبيل نشر الدعوة، ونسخ حكم الطواغيت حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين لله: فرض كفاية إذا قام به بعض المسلمين سقط الإثم عن الباقين. وهنا لا بد من التنبه إلى معنى على غاية من الأهمية والخطورة، معنى: قام به بعض المسلمين، أي أداه على الوجه الأكمل واستطاع تغطية حاجاته، وليس المراد من ذلك مباشرته فقط كما يُظن، فإذا لم يتحقق ذلك صار الجهاد بالمعنى الخاص أيضاً فرض عيْن على جميع المسلمين.

وليس الجهاد أمراً طارئاً على هذه الأمة، ولا فترة عابرة من حياتها أو شعاراً تمارسه في المناسبات. قال تعالى: ﴿**وَدّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة**﴾ (النساء: ١٠٢). وقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا خُذوا حِذْركم فانفِروا ثُباتٍ أو انفِروا جميعاً**﴾ (النساء: ٧١)...

وللجهاد مقدماته ومقوماته، من الإعداد المستمر والاستعداد المعنوي والمادي، والتدرّب عليه بتهيئة مناخه في المؤسسات المختلفة، في الأسرة، والمدرسة والتربية والتعليم، والإعلام، وسائر ما يكون في هذا المجال من

الأنشطة الكثيرة، لتكون التنشئة جهادية، يُعَد الفرد فيها للمواجهة المستمرة ويقرأ تاريخه وإسلامه وسيرة سلفه الصالح بأبجدية صحيحة سليمة تحمله إلى مستوى إسلامه وتعرّفه بتحديات عصره، وتبصّره بمواجهتها.

طريق صلاح الدين . .

تحت راية الجهاد الإسلامي فُتحت بيت المقدس زمن الخليفة الراشد عمر ابن الخطاب، كما فُتحت سائر البلاد الأخرى، وبتثاقل المسلمين إلى الأرض، وعدم نفرتهم واستجابتهم لأمر الله والتزامهم بمنهجه سقطت بيت المقدس في يد الصليبيين. وبإيقاد شعلة الإيمان ورفع راية الجهاد الإسلامي استُردّت بيت المقدس من جديد، على يد نور الدين وصلاح الدين رحمهما الله حيث عادت الأمة إلى مواقعها الصحيحة بعد رحلة من التيه والضياع والتمزق والعبث الصليبي، وكيد الباطنية الحشاشين. ولا مانع هنا أن نعرض لشيء من طريق صلاح الدين رحمه الله لتحرير بيت المقدس:

لقد كان من أبرز أعمال صلاح الدين قبل أن يوجه ضربته القاصمة للصليبيين في معركة حطين نجاحه في ميدانين عظيمين لتعبئة قوى الأمة الروحية والمادية:

في مجال الإعداد الروحي: كان لكثرة ما بنى من مدارس دينية وزوايا ورُبط وتكايا حتى قيل: لقد بنى نور الدين وصلاح الدين من المدارس والزوايا والربط أكثر مما بنيا من القلاع والحصون. وأحكم صلته بالعلماء العاملين، يسمع منهم ويهتدي بهداهم، وحوّل التوجيه العام في الأمة إلى هدف واحد هو إحياء روح الإيمان والجهاد والحنين إلى مسرى رسول الله ﷺ في القدس الشريف، حتى كانت أغنيات الأعراس والمناسبات أناشيد دينية تُذكي في الأمة روح الجهاد والاستشهاد والحنين إلى المسجد الأقصى والعزم على تحريره وإنقاذه. وكان للأدباء والشعراء والعلماء دورهم في هذه التعبئة المعنوية للأمة، وكان يرى دائماً كسلفه نور الدين رحمهما الله مطرقاً حزيناً يقول: كيف أسرّ والمسجد

الأقصى في أسْر الأعداء. وكان يُرى وهو يحرّض المسلمين على القتال ملتاعاً كالثكلى التي فقدت أحد أولادها. هذا في مجال الإعداد المعنوي.

أما في مجال الإعداد المادي:

فقد نجح في توحيد جهود الأمة المادية، وقضى على الفرقة والانقسام، وأزال الخلاف بين زعماءالبلاد الإسلامية، حيث وحدّ مصر وسورية وأعد الأمة عسكرياً وجنّد قواها ليوم النصر، ووجه ضربته القوية إلى الباطنية الحشاشين الذين تعاونوا مع الصليبيين، وأرسل إلى أخيه العادل في مصر ليُحكم الحصار على الصليبيين من ناحية، ونزل بقواته القدس بعد انتصاره في حطين، هذا بعض طريق صلاح الدين رحمه الله إلى تحرير بيت المقدس.

الطريق المسدود

وعقيدة الإسلام هي التي حالت بين اليهود وبين شراء السلطان عبد الحميد رحمه الله للمرور إلى فلسطين في عصر الاستعمار الأوربي الصليبي الحديث رغم احتضار الخلافة.

والخارجون على الإسلام هم الجسر الحقيقي الذي مكن اليهود من العبور إلى فلسطين، وهم الذين حاولوا طيلة القرن الماضي إن لم نقل النصف الأخير منه على طرح المشكلة الفلسطينية طرحاً مغلوطاً ووضعها في غير إطارها الصحيح الذي يشهد له التاريخ، ويؤيده الواقع، وتؤكده الأحداث اليومية، وهم لا يزالون يصرون على السير في هذا الطريق المسدود، رغم سقوط الطريق وسقوط أهل الطريق.

إن نوايا إسرائيل وممارساتها ليست جديدة ولا طارئة ولا خفيّة على أحد، كما أن عمليات التهويد في الضفة الغربية وقطاع غزة ماضية إلى غايتها المرسومة، وإن التهويد والعبث والتشويه في مناهج التعليم يكاد يأتي على الأمة بكل مقوماتها، ولا يقتصر على الأرض المحتلة بل يمتد إلى العالم العربي وبلاد

العالم الإسلامي أيضاً، من تهويد للنفوس أولاً ومن ثم ما يلمح من سقوط كثير من وسائل الثقافة والإعلام والتربية في مناخ التهويد. والذي مكن لهذا ولا يزال تغييب الإسلام عن الساحة أو غيابه عنها، وإغلاق مدارس الجهاد الإسلامي وإيقاف نسغ الإسلام عن الحياة اليومية، وإقامة هياكل إسلامية خالية من معاني الإسلام الحقيقية، خاوية من روح الإسلام الجهادية. وطرح صور مشوهة لمحاربة الصورة الصحيحة السليمة، والاسترخاء والميل إلى الدعة واللذائذ ومتع الدنيا والرضى بها عن الآخرة فأنى يكون لنا النصر.!؟

الحل الإسلامي..

إن أخوف ما تخافه إسرائيل عودة الأمة إلى عقيدة الجهاد، أو عودة روح الجهاد إلى جسم الأمة الذي أكلت إسرائيل بعض أطرافه، وهي ماضية في الإجهاز عليه طبقاً لخطة مرسومة، وإن تغير الممثل، فالدور باق على كل حال.

لقد كانت عقيدة الجهاد هي رد الفعل السويّ والطبيعي لوجود إسرائيل وما قامت عليه من الرؤية الدينية التوراتية، لكن الأمة المسلمة حُرمت حتى من رد الفعل السوي، وخدعت بفرية التفريق بين اليهودية والصهيونية، لتستمر حملات التضليل وحياة الضياع.

ولا نزال نذكر الرعب الذي ساد الصحافة الغربية بشقّيها بعد هزيمة الأمة في عام ١٩٦٧ والأمة ما تزال على أرض الهزيمة تلملم جراحها، أن تعود إلى فكرة الجهاد المقدس والتحذير من خطورة ذلك على إسرائيل وسائر العالم.

لقد استُهلكت خلال السنين الماضية، كل الشعارات التي طُرحت في المنطقة العربية لتحرير فلسطين، وسقطت كل الحلول المطروحة، بل تبين أنها كانت في مصلحة إسرائيل في نهاية المطاف، لقد أصبحت جثة هامدة، مهما حاول أصحابها أن ينفخوا فيها الروح، أو يزعموا لها الحياة، ولم يبق إلا الحل الإسلامي. فهل نتقدم باتجاه هذا الحل بإخلاص نية وصدق عزيمة؟ وهل نعدّ

له عدّته بكل مقوّماته ومقدماته، كما أراده الإسلام وطبّقه الرسول ﷺ وصحبه الكرام؟ وهل نفتح مدارس الجهاد الإسلامي في عالمنا من جديد؟ وهل نهيّء المناخ الصحيح لثقافة الجهاد، ونخلي بين الجيل المسلم وبين إسلامه لينشأ نشأة جهادية، ويتدرب ويمارس معاني الجهاد على كل المستويات؟ وهل تعود الأمة إلى الجهاد الإسلامي، أملها الباقي وملاذها الأخير، لإنقاذ الشعب واسترداد الأرض، أم يطرح شعار الجهاد دون إعداد أو استعداد ليلتحق بقائمة الشعارات الموؤودة ـ لا سمح الله ـ؟ وبذلك نكسر السهم الأخير الباقي في جعبة الأمة بأيدينا. ونقضي على الأمل. ويكون ذلك من لوازم التهويد.

فليس أمر بيت المقدس مختلفاً في الحكم الشرعي عن أمر يافا وحيفا وغيرهما من سائر بلاد العالم الإسلامي المحتلة، وإن كان في موقع القلب منها. والله المسؤول أن يأخذ بيد هذه الأمة إلى أهلية النصر ومواقع الانتصار، وأن يحقق وعده على لسان الرسول صلّى الله عليه وسلّم

«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبدالله هذا يهودي خلفي فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود».

[صفر ١٤٠١هـ ـ كانون أول (ديسمبر) ١٩٨٠م]

فهرس الموضوعات